خصائص النظم القرآني
في سورة الذاريات
دراسة بلاغية

دكتور
أحمد سعد ناجي
كلية اللغة العربية بايتاي البارود
جامعة الأزهر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

" تقديـــــم "

الحمد لله ربِّ العالمين ، أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، قرآناً عربياً لقوم يعلمون . اشتمل الأمر والنَّهى والحـلال والحـرام فأحـلَّ الحلال وحرّم الحرام ، فرقاناً وذكراً . ونظراً وعبراً والصلاة والسلام على أفصح العرب لساناً وأبلغهم بياناً وعلى آله وصحبه من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين .

وبَعْـدُ ؛؛

فقد منَّ الله تعالى علىَّ بأن شرح صدرى لدراسة سورة كريمـــة مـــن سور القرآن العظيم زخرت بالمواعظ والعبر ، وحفلت بالـدَّقائق والحكـم ، واشتملت على الكثير من الحقائق العلمية والأسرار الخفيَّة التى تستوقف العقل وتستجلب الفكر . يحار فيها لبُّ العاقل المدقِّق والنَّاظر المفكِّر .

هذه السُّورة جمعت بين ثناياها أسس الإيمان وأصول العقيدة وعملـت على ترسيخ أنوار اليقين فى قلوب المؤمنين الموحِّدين ، وحملت حملة شعواء على الشِّرك وذويه ، وأبطلت كل شبهة تمسَّك بهـا المنكـرون للرسـالات السماوية بوجه عامٍّ ، والمنكرون لرسالة النبىِّ – ﷺ – بوجه خاصٍّ ، مـع محاكمتهم إلى العقل والحسِّ ، أيضاً أرشدت هؤلاء إلى آيات الله فى الآفـاق المحيطة بهم فى الأرض أو فى السماء ، وضربت لهم أبلغ الأمثال بهـلاك أعتى الأمم وطغاة البشر فى أسلوب موجز بليغ دقيق تمتلئ به النفوس رغبة ورهبة ، وهو أسلوب حكيم مقنع لا يترك مجالاً للريبة فى قلب مرتاب ، إنها سورة الذاريات ، أراد الله تعالى أن أقف عند بعـض أسـرارها البلاغيـة

وخصائص النظم التى اشتملتها هذه السورة لنعلم شيئاً عن دقائقها ، ونقتطف بعض ثمارها اليانعة من خلال مقاصدها ومراميها ومواطن العبرة فيها وهذا البحث الذى بين أيدينا وهو " **خصائص النظم القرآنى فى سورة الذاريات دراسة بلاغية** " جاء فى مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث وخاتمة وثبت بالمراجع والموضوعات .

أمَّا المقدمة فقد بُيِّن فيها سرُّ الوقوف عند هذه السُّورة بالدراسة ، وأمَّا التمهيد وهو مدخل إلى سورة الذاريات من حيث التعريف بها وما اشتملت عليه من الأغراض والمقاصد ، وبيان مناسبتها لسورتى " ق " و " الطور " ثم المباحث وهى خمسة – كما ذكرنا – المبحث الأول : وعنوانه " تحليل آيات القسم وبيان جزاء المكذِّبين من الآية الأولى حتى الآية الرابعة عشر " .

المبحث الثانى : تحت عنوان " جزاء المتَّقين ، وبيان آيات الله فى الأنفس والآفاق من الآية الخامسة عشر إلى الآية الثالثة والعشرين " .

المبحث الثالث : وهو متناول " حديث ضيف إبراهيم – عليه السلام – والحوار الذى دار بينه وبينهم – عليهم السلام – من الآية الرابعة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين " .

المبحث الرابع : دراسة قصص الأمم السالفة وعنوانه : " هلاك الأمم المكذِّبة – فرعون – عاد – ثمود – قوم نوح من الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية السادسة والأربعين " .

المبحث الخامس : وعنوانه " بيان دلائل القدرة الإلهية " من الآية السابعة والأربعين إلى الآية الستين وهى ختام السُّورة الكريمة " .

وأمَّا الخاتمة : ففيها أهمُّ الأفكار التى أبرزتها هذه الدراســة لســورة الذاريات وما بان لها من خلال الجولة فى رحابها .

وأخيراً : ثبت للمراجع التى اعتمدتها الدراسة وقامــت عليهــا ، ثــم فهرسة الموضوعات التى احتوتها هذه الدراسة .

والله الموفِّق والهادى إلى الصواب

من القول والسديد من العمل

التمهيد

" سورة الذاريات "

تعدُّ سورة الذاريات من السُّور المكيَّة التى تهتمُّ بأسس العقيدة وترسيخ الإيمان فى النفوس ، فهذه السُّورة قد جمعت أصول الإيمان كلَّها ، واهتمت بتعميق جذور اليقين فى قلوب المؤمنين وحملت حملة شعواء على الشرك وأهله ، وقد أدحضت كلَّ شبهة تمسَّك بها المنكرون للرسالات السماوية بوجه عام والمنكرون لرسالة النبيِّ - ﷺ - بوجه خاصٍّ ، وحاكمتهم إلى العقل والحسِّ ، ونبهَّتهم إلى آيات الله فى الآفاق والأنفس الناطقة بوحدانية الله تعالى الدالة على كمال قدرته مع تنويع الأدلة والتفنُّن فى الأساليب ، ثم ضربت لهم بليغ الأمثال ، وحذَّرتهم عاقبة التَّمادى فى الكفر والضلال فى أسلوب موجز بليغ معجز يملأ النفوس رغبة ورهبة وهو أسلوب حكيم مقنع لا يدع ريبة فى قلب مرتاب ، وقد قامت السُّورة على الأسس التالية :

أولاً : بدء السُّورة الكريمة بالحديث عن الرِّياح التى تذرو الغبار وتطيِّره ، وتُسيِّر المراكب فى البحار ، وعن السُّحب الحاملة لمياه الأمطار ، وعن السُّفن الجارية على سطح الماء بقدرة الله الواحد القهَّار ، وعن الملائكة الأطهار المكلَّفين بتدبير شئون الخلق ، وأقسمت بهذه الأمور الأربعة على أن الحشر كائن وحاصلٌ لا محالة ، ولابُدَّ من البعث والجزاء .

ثانياً : الحديث عن كفَّار مكَّة المكذِّبين بالقرآن وبالدَّار الآخرة ، وبيان حالهم فى الدُّنيا ، ومآلهم فى الآخرة ، حيث يعرضون على نار جهنم فَيَصلَوْن عذابها ونكالها .

ثالثاً : الحديث عن المؤمنين المتَّقين ، وما أعدَّ الله لهم من النعيم والكرامة فى الآخرة ، لأنهم كانوا فى الدُّنيا محسنين ، على طريقة القرآن فى التَّرغيب والتَّرهيب ، والإنذار والتَّبشير .

رابعاً : الحديث عن دلائل القدرة والوحدانية فى هذا الكون الفسيح فى سمائه وأرضه ، وجباله ووهاده ، وفى خلق الإنسان فى أبدع سورة وأجمل تكوين . وكلُّ هذه دلائل على قدرة الله ربِّ العالمين .

خامساً : الحديث عن قصص الرسل الكرام ، وعن موقف الأمم الطَّاغية من أنبيائهم وما حلَّ بهم من العذاب والدَّمار ، فنراها تستعرض قصَّة إبراهيم ولوط ، وقصَّة موسى – عليهم السَّلام – وقصَّة الطُّغاة المتجبرين من قوم عاد وثمود وقوم نَوح – عليه السَّلام – وفى ذكر القصص وتكراره فى القرآن تسليةٌ للرسل الكرم ، وعبرةٌ لأولى الأبصار يعتبر بها من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد .

سادساً : ختمُ السُّورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنس والجنِّ ، وهى معرفة الله جلَّ وعلا ، وعبادته وتوحيده ، وإفراده بالإخلاص والتوجُّه لوجه الله تعالى الكريم بأنواع القربات والعبادات " (1) .

---

(1) صفوة التفاسير تفسير سورة الذاريات / ٢٥٠ بتصرُّف ، التحرير والتنوير ٣٣٥/٢٦ .

" مكيَّة السورة ومدنيتها "

سورة الذاريات من السُّور المكيَّة بإجماع المفسِّرين واتفاقهم على ذلك، وآياتها ستون آية ، وعدد كلماتها ثلثمائة وستون ، وحروفها ألف ومائتان وتسعة وثلاثون ، نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية ، وهى السُّورة السادسة والستون فى ترتيب نزول السُّور – كما عند جابر بن زيد – وقد سُمِّيت عند بعض العلماء – والذاريات – بإثبات الواو تسمية لها بحكاية الكلمتين الواقعتين فى أولها " (١) .

وقد ذكر الشيخ الطَّاهر ابن عاشور (٢) : أن ابن عطية سَّماها كذلك – والذاريات – ، ولم نره ذكر ذلك بل عنون لها بقوله : تفسير سورة الذاريات (٣) ، وسُمِّيت عند جميع المفسِّرين " سورة الذاريات " .

مناسبة سورة الذاريات لسورتى " ق " ، " والطور " :

لمَّا ذكر تعالى فى سورة " ق " البعث والجزاء والجنَّة والنَّار ، وافتتح هذه السُّورة بالقسم على أن ما وُعِدُوا به من ذلك صدق ، وأن الجزاء واقع لا محالة ، كما أنه تعالى ذكر فى سورة " ق " إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال ، وهنا فى " الذاريات " ذكر ذلك على وجه التفصيل (٤) .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٤٦٣/٨ ك التفسير ، الجامع لأحكام القرآن ٢٩/١٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٣٥/٢٦ .

(٣) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ١٧١/٥ .

(٤) البحر المحيط ١٣١/٨ ، حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٣٨٨/٤ ، تفسير المراغى ٢٨١/٩ .

وفى تفسير القاسمى : قال المهايمى : سُمِّيَت بها – الذاريات – لأنها مبدأ الخيرات فأشبهت العناية الإلهية " ([١]) .

ثم لمَّا بيَّنت سورة – ق فى أولها مدى إنكار المشركين بعث الخلائق للعرض والحساب . فجاءت سورة الذاريات تدفع إنكارهم وتبطل مزاعمهم وتدحض شبههم بشتىَّ الحجج ومختلف أساليب الإقناع منها القسم بالذاريات وما بعدها ، وجاءت سورة " الطُّور " تؤكِّد ما أكدته سورة الذاريات من وقوع العذاب فى يوم البعث والنُّشور ، " وأول سورة الذاريات مناسب لآخر ما قبلها ، وذلك لأنه تعالى لمَّا بيَّن الحشر بدلائله وقال : – ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ ([٢]) – وقال : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ ([٣]) – أى تجبرهم وتلجئهم إلى الإيمان إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم لم يبق إلا اليمين فقال : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا .... إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ وأول هذه السورة وأخرها متناسبان حيث قال فى أولها : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ وقال فى أخرها : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ ([٤]) .

وفى سورة " ق " أيضاً نجد الله تعالى قد وجَّه أنظار هؤلاء المنكرين إلى السماء المحكمة البناء الخالية من العيوب والفروج المليئة بالكواكب والنجوم ، وهنا فى سورة " الذاريات " يقسم سبحانه بالسماء ذات الحبك أى ذات الخلق الحسن المستوى ، أو ذات الطُّرق المعبَّدة والكواكب النيِّرة

([١]) محاسن التأويل ٣٨٨/١٥ .

([٢]) ق / ٤٤ .

([٣]) ق / ٤٥ .

([٤]) التفسير الكبير ١٩٤/٢٨ ، حاشية الشيخ زادة ٣٨٨/٤ .

والنجوم الزاهرة والعجائب الباهرة والبناء المحكم ، وهذا كلُّه في معنى الحبك وهو إجمال لقوله تعالى فى سورة " ق " : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (١) ، وسورة " ق " فيها بيانٌ لوعد الله ووعيده وثوابه وعقابه ، كذلك سورة الذاريات وسورة الطُّور ، وقد اهتمت هذه السُّور الثلاث بتطهير القلوب من الشرك والوثنية وتزكية النفوس من نوازع الشرّ وتقويم سلوك الفرد والجماعة حسب منهج سليم لا يوجد منهج أرقى وأقوم منه إذ هو منهج العدل والوسطية ، وهو منهج لا يصادم الواقع ولا يختلف معه ولا يتناقض مع مقوِّمات الحياة بل هو الحياة نفسها فى أسمى صورها وأبهى مناظرها ، وعلى الجملة فإنا نرى أنَّ هذه السُّور الثلاث قد اتحدت فى كثير من الأغراض والمقاصد ، وتشابهت فى كثير من الأساليب والتَّراكيب ، وقوة اللهجة وعنف التَّحدى ودقَّة الحوار إلى غير ذلك من الوجوه التى يقف عندها الباحثون طويلاً وقفة تأمل ونظر (٢) .

---

(١) ق / ٦ .

(٢) تأملات فى سورة الذاريات /١٠-١٢ بتصرف للدكتور / محمد بكر إسماعيل .

المبحث الأول

" تحليل آيات القسم ، وبيان جزاء المكذبين"

" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " .

تفسير هذا القول : قال الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) يقول العلاَّمة ابن كثير : فهذه ثلاث آيات ليس لهنَّ رابعة فى معناها ، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدوّ الإنسىّ ، والإحسان إليه ليردَّه عنه طبعُهُ الطيِّبُ الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدوّ الشيطانىّ لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدّة العداوة بينه وبين أبيه آدم " (٤) .

والاستعاذة : هى الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شرّ كلّ ذى شرّ ، والعياذة تكون لدفع الشرّ ، واللياذ يكون لطلب جلب الخير . كما قال المتنبى : (٥)

يا من ألوذ به فيما أؤمّله ∴ ومَنْ أعوذ به ممّن أحاذره
لا يجبر الناسُ عظماً أنت كاسره ∴ ولا يهيضون عظماً أنت جابره

ويقولون : عاذ فلانٌ بفلان إذا التجأ إلى غيره وتعلقّ به (٦) .

---

(١) الأعراف / ٢٠٠ .

(٢) المؤمنون /٩٧ ، ٩٨ .

(٣) فصلت /٣٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٢/١ ، ١٣ .

(٥) ديوانه ١٤٦/١ ، ١٤٧ شرح ناصيف اليازجى ط دار صادر بيروت .

(٦) المفردات فى غريب القرآن /٣٥٢ مادة عوذ .

والمراد بـ " أعوذ بالله " أستجير بجناب الله ، وإضافة العياذ إلى الله إضافة حقيقية إذ لا يستطيع دفع الشيطان عن الإنسان ولا يقدر عليه إلا الله تعالى .

" الشيطان " مشتقٌّ من شطن فلانٌ إذا بعد ، و " الشيطان " بعيدٌ بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كلِّ خير . يقول النَّابغة الذُّبيانى : (١)

نأت بسعادٍ عنك نوى شطون ∴ فبانت والفؤاد بها رهين

قال الراغب : الشيطان النون فيه أصلية وهو من شطن أى تباعد ومن بئر شَطُونُ وشطنت الدار وغُرْبَة شَطُونُ ، وقيل : بل النون فيه زائدة من شاط يشيط احترق غضباً فالشيطان مخلوق من النَّار ، قال أبو عبيدة : الشيطان اسمٌ لكلِّ عارمٍ من الجنِّ والإنس والحيوانات " (٢) .

و " الرجيم " أى المرجوم فهو فعيل بمعنى مفعول ، وهو مأخوذ من الرَّجم أى الرَّمى واستعير هنا للطَّرد لأن الشيطان الرجيم هو المطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى " (٣) .

والمراد بالقول أجمع : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " : استجير بجناب الله من الشيطان الرَّجيم أن يضرَّنى فى دينى أو دنياى أو يصدَّنى عن فعل ما أمرت به ، أو يحثَّنى على فعل ما نهيت عنه .

---

(١) ديوانه / ٢٦٢ ط الشركة التونسية تونس سنة ١٩٨٦م ش الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور .

(٢) المفردات /٢٦١ مادة شطن .

(٣) المفردات / ١٩٠ مادة " رجم " .

البسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " تفسيرها : أى أبدأ بتسمية الله تعالى ذكره قبل كلِّ شئ طالباً منه العون فإنه هو الربُّ المعبود المقصود فى جميع الأمور وسعت رحمته كلَّ شئ زاد فضله وعمَّ إحسانه الخلائق بأسرها .

اللغة : الاسم : هو ما يعرف به ذات الشئ ، وأصله سمو بدلالة قولهم أسماء وسُمَى ، وأصله من السموّ وهو الذى به رفع ذكر المسمَّى فيعرف به " هذا رأى البصريين ، ويرى الكوفيون أنه مشتقٌ من السِّمة وهى العلامة ، وذلك لأن الاسم علامة على مسمَّاه ، والأصل وسم ، حذفت الواو وعوِّض عنها الهمزة " (١) .

و " الله " علم على الذات المقدَّسة جلَّ جلاله ، وقال الخليل : وليس هو من الأسماء التى يجوز عنها اشتقاق فعل كما يجوز فى " الرحمن الرحيم " وقيل : إنه مشتَق من أله يأله إذا تحيرُ ، أى إذا وقع العبد فى عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف همه إليها أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد ، ولأن العقول تأله فى عظمته ، و" الله " أصله : إلاه على زنة فِعَال " بمعنى مفعول ، لأنه مألوه أى معبود ، فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته فى الكلام ، وقيل : من " لاه يليه " أى ارتفع ، ومن " لاه يلوه " بمعنى احتجب . إلى آخر ما قيل فى ذلك " (٢) .

---

(١) الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى ٤/١ ط دار الاستقامة سنة ١٣٤٦هـ ، البيان فى غريب إعراب القرآن له ٣٢/١ ، الصاحبى فى فقه اللغة /٩٩ ، ١٠٠ ، لسان العرب مادة " سما " ط دار المعارف القاهرة .

(٢) البيان فى غريب إعراب القرآن ٣٢/١ ، ٣٣ ، المزهر فى علوم اللغة للسيوطى ٣٤٩/١ ، بدائع الفوائد ٢٢/١ ، ٢٣ ، لسان العرب مادة " أله " ، المفردات /٢١ ، ٢٢ مادة " أله " .

و " الرحمن " فعلان من رحم كندمان وغضبان من ندم وغضب ، ولا يطلق " الرحمن " إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصحُّ إلا له إذ هو الذى وسع كلَّ شئ رحمة ، والمراد أنه المنعم بجلائل النّعم ، و " الرحيم " على زنة فعيل : أى المنعم بدقائق النِّعم ، و " الرحيم " يطلق على غير ذلك أيضاً ، و " الرحيم " هو الذى كثرت رحمته ، وفى " الرحمن " من المبالغة ما ليس فى " الرحيم " ولذا قيل : رحمان الدُّنيا والآخرة ورحيم الدُّنيا ، ويقولون : إن الزيادة فى المبنى لزيادة المعنى ([1]) .

قال ابن القيم – رحمه الله – : " وفائدة الجمع بين الصفتين – الرحمن الرحيم – الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصَّة وعامَّة ، وأما الجمع بين – الرحمن الرحيم – ففيه معنى هو أحسن ممَّا ذكر ، وهو أن الرحمن دالٌّ على الصِّفة القائمة به سبحانه والرحيم دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثانى للفعل فالأول دالٌّ على أن الرحمة صفته ، والثانى دالٌّ على أنه يرحم خلقه برحمته ، ولم يجئ قطُّ رحمن بهم فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الرَّاحم برحمته " ([2]) .

وقد جعل العلاَّمة الزمخشرى وتبعه السيد الشريف ([3]) : أن وصفه جلَّ جلاله بالرحمة التى معناها العطف والحنوُّ من باب المجاز المرسل لعلاقة السببية ، وذاك أن الرحمة والرِّقة سببٌ للإنعام ، أو عن إرادة الإنعام لأن الرحمن سببٌ للإرادة أولاً ، وبواسطة الإرادة للإنعام ثانياً ، ويجوز أن يكون استعارة تمثيلية حيث شُبِّهتَ هيئة رحمته وشفقته وعطفه وحنوِّه على

([1]) بدائع الفوائد ٢٣/١ .

([2]) السابق ٢٤/١ .

([3]) الكشاف وحاشية السيد عليه ٤٤/١ ، ٤٥ .

خلقه بهيئة الحانى على أبنائه أو على ما يملكه فيعاملهم بالرحمة والعطف والحنوّ والشفقة فاستعيرت الهيئة الدَّالَّة على المشبَّه به للهيئة المشبهَّة .

<u>وللسيد الشريف تعليق قيِّمٌ في ردِّه على</u> كلام العلاَّمة الزمخشرى فى تقديم أبلغ الوصفين على الآخر تابعه فيه الشيخ ابن المنيِّر . خلاصته : أن الأبلغ إذا كان أخصَّ ممَّا دونه ومشتملاً على مفهومه تعيَّن هناك طريقة الترقِّى ، إذ لو قُدِّم الأبلغ كان ذكر الآخر عارياً عن الفائدة ، وأمَّا إذا لم يكن الأبلغ مشتملاً على مفهوم الأدنى كالرحمن والرحيم إذا أريد بالأول جلائل النِّعم وبالثانى دقائقها جاز سلوك كلٍّ واحد من طريق التتميم والتَّرقِّى نظراً إلى مقتضى الحال ، ولما كان الملتفت إليه بالقصد الأول مقام العظمة والكبرياء جلائل النِّعم وعظائمها دون لطائفها ودقائقها قُدِّم الرحمن وأُرْدِفَ بالرحيم كالتتِّمة تنبيهاً على أن الكلَّ منه ، وقيل تأخير الرحيم للتَّرقِّى فإنه أبلغ من الرحمن ، فإن فعيلاً للأمور الغريزية كشريف وكريم ، وفعلان للأمور العارضة كسكران غضبان " (١) .

والباء فى " بسم الله " زائدة ، ومعنها الإلصاق ، وكسرت لوجهين : أحدهما : لتكون حركتها من جنس عملها ، والثانى : فرقاً بينها وبين ما لا يلزم الجر فيه كالكاف ، وحذف الألف من " بسم الله " فى الخطِّ ، لكثرة الاستعمال ، وطُوِّلت الباء لمكان حذف الألف ، ولا تحذف فى غير اسم الله " ولهذا كُتب ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (٢) ولا تحذف الألف منه إذا

---

(١) حاشية السيد الشريف ، الإنصاف على الكشاف ٤٥/١ ، ٤٦ بتصرف .

(٢) العلق / ٠١ .

أدخلت عليه غير الباء من حروف الجرّ ، كقولك : لاسم الله حلاوة ، ولا اسم كاسم الله " [١] .

وقُدِّم الجارُّ والمجرور " بسم " على عامله المقدَّر لإرادة التخصيص ، وحذف العامل من " بسم الله " لأن الحذف أبلغ لأن المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدّعى الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل فلا حاجة إلى النُّطق " [٢] .

ويُسمَّى هذا القول : " بسم الله الرحمن الرحيم " بالبسملة : فيقال : بَسْمَلَ الرَّجُلُ إذا كتب بسم الله وأكثر من قول بسم الله " [٣] .

فضل البسملة : روى ابن أبى حاتم – رحمه الله – عن ابن عباس أن عثمان بن عفّان – رضى الله عنهم – قال سألت رسول الله – ﷺ – عن – بسم الله الرحمن الرحيم – فقال : " هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب " ، وكان المشركون يستفتحون أمورهم بأسماء آلهتهم فيقولون باسم اللات وباسم العزى . فأمر المسلم أن يستفتح باسم الله ، وفى الحديث " كلُّ أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع [٤] " أى منزوع البركة ، وقد استقرَّ عمل الأئمة المصنِّفين وغيرهم على افتتاح كتب العلم النافعة بالبسملة وكذا معظم الرسائل .

---

[١] البيان فى غريب إعراب القرآن ٣١/١ .

[٢] بدائع الفوائد ٢٥/١ .

[٣] المزهر فى علوم اللغة ٨٣/١ .

[٤] فتح البارى لشرح صحيح البخارى ١٣/١ .

قال تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * .... * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ([1]) .

مفردات لغوية : " الذاريات " هى الرِّياح بإجماع المفسِّرين . يقال : ذرت الريح وأذرت بمعنى واحد ، وفى الرِّياح معتبر من شدَّتها حيناً ، ولينها حيناً ، وكونها رحمة مرة ، وعذاباً مرة أخرى ، و " الحاملات " هى السحاب الموقرة بالماء أى الممتلئة – كما روى عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – وقيل : هى السُّفن الموقرة بالناس وأمتاعهم – كما روى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – ، و " الجاريات " هى السُّفن فى البحر كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب – رضى الله عنه – وغيره ، وقيل : السحاب تجرى بالرِّيح ، وقيل : هى الجوارى من الكواكب ، " يسراً " سهولة وقلَّة تكلُّف ، و " المقسِّمات أمراً " هى الجماعات من الملائكة التى تُقسِّم أمور الملكوت من الأرزاق والآجال ، والخلق فى الأرحام ، وأمر الجبال والرِّياح وغير ذلك لأن كلَّ هذا إنما هو بملائكة تخدمه ، و " الدِّين " الجزاء ، و " الحُبُك " بضمِّ الحاء والباء وهى : الطَّرائق التى تقوم على نظام فى الأجرام ، أو ذات الخَلْقِ الحسن المستوى و " يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ " يُصْرَفُ عنه مَنْ صُرِفَ ، أى يُصْرَفُ عن كتاب الله مَنْ صُرِفَ ممَّن غلبت شقاوته ، " قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ " أسلوب دعاء أى لُعِنَ ، و " الْخَرَّاصُونَ " الكذَّابون المرتابون للرسول – ﷺ – وفى شأنه والقرآن الكريم ، و " غمرةَ " العماية عن الحقِّ والانصراف عنه باللهو واللعب ، و " يفتنون " يحرقون ويعذَّبون بالنار .

([1]) الذاريات /١ – ١٤ .

بلاغة النظم فى الآيات :

قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ﴾ إلخ قسمٌ منه عزَّ وجلَّ بهذه المخلوقات تنبيهاً عليها وتشريفاً لها ودلالة على الاعتبار فيها حتى يصير الناظر فيها إلى توحيد الله تعالى ، وهو أسلوب قسم مفتتح به مراد منه تحقيق المقسم عليه وتأكيد وقوعه ، وقد أقسم الله تعالى بمخلوق عظيم من مخلوقاته ، وهو فى المعنى قسمٌ بقدرته وحكمته متضمِّنٌ تشريف تلك المخلوقات بما فى أحوالها من نعم ودلالة على الهدى والصلاح . وفى ضمن ذلك تذكير بنعمة الله فيما أوجد فيها ، وهذه الصفات المذكورة المقسم بها حذفت موصوفاتها ، وأقيمت هى مقامها ، وفى ذلك إيجاز دقيق لما فى طى هذه الموصوفات من توفير لما تؤذن به الصفات من موصوفات صالحة بها لتذهب أفهام السامعين فى تقديرها كلَّ مذهب ممكن ، وهذا باب عظيم من أبواب البلاغة .

وقد بيَّن الإمام الفخر – رحمه الله – سرَّ القسم بقوله : " فى جميع السور التى أقسم الله فى ابتدائها بغير الحروف كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة ، وهى الوحدانية والرسالة والحشر ، وهى التى يتمُّ بها الإيمان ، ثم إنه تعالى لم يقسم لإثبات الوحدانية إلا فى سورة واحدة من تلك السور وهى " والصَّافات " حيث قال فيها : ﴿ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ (١) ، وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا ﴾ (٢) على سبيل الإنكار، وكانوا يبالغون فى الشِّرك ، لكنهم فى تضاعيف أقوالهم ، وتصاريف أحوالهم كانوا يُصرِّحون بالتوحيد " (٣) ، ثم يقول أيضاً : " فلم يبالغوا – الكفَّار – فى

(١) الصافات / ٤ .

(٢) ص / ٥ .

(٣) التفسير الكبير ١٩٥/٢٨ بتصرُّف .

الحقيقة فى إنكار المطلوب الأول ، فاكتفى بالبرهان ، ولم يُكْثِر من الأيمان ، وفى سورتين منها أقسم لإثبات صدق محمد - ﷺ - وكونه رسولاً فى إحداهما بأمر واحد ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ (١) ، وفى الثانية بأمرين وهو قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (٢) وذلك لأن القسم على إثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن . وفى باقى السُّور كان المقسم عليه الحشر والجزاء وما يتعلَّق به لكون إنكارهم فى ذلك خارجاً عن الحدّ ، وعدم استيفاء ذلك فى صورة القسم بالحروف " (٣) ، ونراه كذلك يفصّل الأمر بقوله : " فى السُّورة التى أقسم لإثبات الوحدانية " سورة الصافات " أقسم فى أول الأمر بالسَّاكنات حيث قال : ﴿ وَالصَّافَّاتِ ﴾ وفى السُّور الأربع الباقية أقسم بالمتحركات فقال : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ﴾ وقال : ﴿ وَالْمُرْسَلاتِ ﴾ وقال : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ ، وذلك لأن الحشر فيه جمع وتفريق، وذلك بالحركة أليق ، أو أن نقول فى جميع السُّور الأربع أقسم بالرِّياح على ما بين وهى التى تجمع وتفرّق، فالقادر على تأليف السحاب المتفرّق بالرِّياح الذارية والمرسلة ، قادر على تأليف الأجزاء المتفرّقة بطريق من الطُّرق التى يختارها بمشيئته تعالى " (٤) .

---

(١) النجم /١ .

(٢) الضحى /١-٣ .

(٣) التفسير الكبير ١٩٥/٢٨ .

(٤) التفسير الكبير ١٩٦/٢٨ بتصرف .

وقيل : يجوز أن يكون الكلام على حذف مضاف أى وربِّ هذه الأشياء فالقسم بالله لا بتلك الأشياء " (١) فيكون على هذا من باب الإيجاز بالحذف " حذف المضاف " ومفعول " الذاريات " محذوف تقديره : التُّراب وغيره ، وحذف المفعول إيجازاً واختصاراً أو لقصد تعميم المذورِّ ، فالريح ترفع وتجمع التراب أو المطر وتفرِّقه أى تذروه ، ومنه قول ذى الرُّمة " غيلان بن عقبة " (٢) :

وَمَنْهلٍ آجِنٍ قَفْرٍ محاضِرُهُ ∴ تذرو الرِّياحُ على جُمَّاتهِ الْبَعْرَا

وقيل : إنَّ " الذاريات " هى الأسباب التى تذرى الخلائق من الملائكة وغيرهم ، وعلى هذا تكون من باب الاستعارة التَّصريحية التبعية فى اسم الفاعل حيث شُبِّهت الأشياء المعدَّة للبروز من كمون العدم بالرِّياح المفرِّقة للحبوب وغيرها واستعير المشبَّه به للمشبه واشتق منه اسم الفاعل والتعبير باسم الفاعل " الذاريات " للدلالة على دوام وثبوت هذا الوصف للريِّاح ، " وفيه دليلٌ على أنَّ الذَّرو صفة مشهورة من صفات الرِّياح " (٣) فالوصف بـ " الذاريات " جامع كما يقول الإمام الفخر – رحمه الله : " فقوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ﴾ يعنى الجامع للذاريات من الأرض على أن الذارية هى التى تذرو التراب عن وجه الأرض " (٤) .

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين ١١٧/٤ .

(٢) ديوانه /١٩٠ وروايته تذرى الرياح ت كارليل هنرى هيس مكارتنى ط عالم الكتب ببيروت .

(٣) أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن ٦٥٩/٧ .

(٤) التفسير الكبير ١٩٦/٢٨ .

والتعريف فى " الذاريات " تعريف الجنس لدخول " أل " على ماهية شئ لم يسبق للسامع عهدٌ به ، وعُرِّفت بذلك لاستغراقها جنس الرِّياح ولشمولها كلَّ أفراد الرِّياح .

وقوله : " ذرواً " مصدر مؤكدٌ مفعول مطلق لإرادة تفخيمه بالتنوين ، وناصبه اسم الفاعل " الذاريات " ، وبين : " الذاريات " و " ذرواً " جناس اشتقاق لأن الاسمين مشتقان من فعل واحد وهو " ذرا " ، وفائدة هذا الجناس التوكيد والمبالغة فى فعل الرِّياح وبيان مدى قوّتها فى التّفريق والحركة ، وقرأ أبو عمرو البصرى وحمزة الكوفى بإدغام التاء فى الذال ، وهذا يؤدِّى إلى خفَّة فى النُّطق يتناسب وحال الرِّيَاح فى خفَّتها " فالحاملات وقراً " معطوف على ما سبق بالفاء ، وعطف هذه الصِّفات بالفاء يقتضى تناسبها وتجانسها ، فيجوز أن تكون صفاتٍ لجنس واحد ، وهو الغالب فى عطف الصِّفات بالفاء كقول ابن زيَّابة (١) :

يَا لَهْفَ زيَّابة الحارث الصَّـ ... ـابح فالغانم فالآيب

ويجوز أن تكون مختلفة الموصوفات إلا أن موصوفاتها متقاربة متجانسة كقول امرئ القيس (٢) :

بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فَحَوْمَلِ ∴ فَتَوْضِحَ فَالمِقْرَاة

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ت أحمد أمين وعبد السلام هارون ١٤٧/١ ط دار الجبل بيروت ط أولى .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى /١١ ، ١٣ ، وكلها مواضع أرادها الشاعر ، ديوانه /١٤٣ ت حسن السندوبى .

وقول لبيد بن ربيعة العامرىّ : (١)

بمشارقِ الجبلين أو بمُحجَّر ∴ فتضمنتّهـا فَـرْدَةٌ فرُخامُهـا

فَصَوَائِقٌ إن أيمنت فمظنّـة ∴ منها وحافُ القَهْرِ أو طِلخامُها

وقد اختلف علماء السلف فى معانى هـذه الأوصـاف " الـذاريات – الحاملات " وموصوفاتها – كما ذكرنا فى المفردات اللغوية – وهو يقتضـى اختلاف الأجناس المقسم بها ، وتأويله أنَّ كلَّ معطوف عليـه يُسـبِّب ذكـر المعطوف لالتقائهما فى الجامع الخيالى ، فالرِّياح تُذكِّر بالسَّـحاب ، وحمـل السَّحاب وِقْرَ الماء يُذكِّر بحمل السُّفن ، والكلُّ يُذكِّر بالملائكة " (٢) .

ومن المفسِّرين مَنْ يرى أنَّ هذه الصِّفات المذكورة وصفٌ للرِّيـاح ، قال العلاَّمة الزمخشرى : " ويجوز أن يراد الرِّياح لا غيـر لأنهـا تنشـئ السَّحاب ، وتُقلُّه وتصرِّفه وتجرى فى الجوِّ جرياً سـهلاً وتُقسِّـم الأمطـار بتصريف السَّحاب " (٣) ، ثم يقول : " فإن قلت : مـا معنـى الفـاء علـى التفسيرين ؟ قلت : أمَّا على الأول – وهو أنَّ لكلِّ صفة معنـى يخصُّـها – فمعنى التَّعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرِّياح فبالسَّحاب الذى تسـوقه فبالفلـك التى تجريها بهبوبها فبالملائكة التى تُقسم الأرزاق بإذن الله مـن الأمطـار وتجارات البحر ومنافعه ، وأمَّا على الثانى فلأنها تبتدئ بـالهبوب فتـذرو

---

(١) السابق /١٦٥ ، وكلها مواضع ، والطِّلخام بكسر الطاء الفيلة وقيل موضع ، ديوانـه /١٦٧ ط دار صادر بيروت .

(٢) التحرير والتنوير ٣٣٧/٢٦ .

(٣) الكشَّاف ١٣/٤ ، ١٤ .

التراب والحصباء فتقلُّ السّحاب فتجرى فى الجوّ باسطةً له فتُقَسّم المطر " (١) .

والفاء على كلام الزمخشرى السابق لترتيب الأفعال لأن الرّياح تذرو الأبخرة إلى الجوّ حتى تنعقد سحاباً ، فتحمله فتجرى به باسطة له إلى حيث أُمِرتْ به ، فتُقسِّم المطر ، أو لترتيب الأقسام إن حملت على ذوات مختلفة لاعتبار ما بينها من التفاوت فى الدلالة على كمال القدرة ، فالتّرتيب على هذا ترتيبٌ ذكرىٌّ ورُتْبىٌّ باعتبار تفاوت مراتبها فى الدلالة على قدرته لأنه المناسب اعتباره هنا " (٢) .

وقد بيّن الإمام الفخر – رحمه الله – (٣) سرّ العطف بالفاء فى هذه الصّفات المذكورة بقوله : " ما فائدة الفاء ؟ نقول إن قلنا : إنها صفات الرّياح فلبيان ترتيب الأمور فى الوجود فإن " الذاريات " تنشئ السّحاب فتُقَسّم الأمطار على الأقطار ، وإن قلنا : إنها أمور أربعة فالفاء للتّرتيب فى القسم لا للتّرتيب فى المقسم به ، كأنه يقول : أقسم بالرّياح الذاريات ثم بالسُّحب الحاملات ثم بالسُّفن الجاريات ثم بالملائكة المقسّمات ، وقوله : " فالحاملات " وقوله : " فالجاريات " إشارة إلى بيان ما فى الرّياح من الفوائد ، أمّا فى البرّ فإنشاء السُّحب ، وأمّا فى البحر فإجراء السُّفن ، ثم المقسّمات إشارة إلى ما يترتّب على حمل السُّحب وجرى السُّفن من الأرزاق ، والأرياح التى

---

(١) السابق ١٤/٤ .

(٢) تفسير البيضاوى ١٧٨/٥ ت د / حمزة النشرتى وآخرين ، حاشية الشهاب عليه ٩٤/٨ ، حاشية الشيخ زاده عليه ٥٨٩/٤ .

(٣) التفسير الكبير ١٩٧/٢٨ .

تكون بقسمة الله تعالى فتجرى سفنُ بعضِ النَّاس كما يشتهى ولا تربح ، وبعضهم تربح وهو غافل عنه " .

ويرى الشيخ الطَّاهر ابن عاشور : أنَّ ما ذكره الإمام الفخر هو الأنسب لعطف الصِّفات بالفاء " (١) .

وقوله : " فالحاملات وِقْراً " معطوف على قوله " والذاريات " أى وأقسم بالسُّحب التى تحمل أثقال الأمطار ، وهى محمَّلة بالماء الذى فيه حياة البشر ، أو النِّساء الحوامل ، أو الأسباب التى تحمل الملائكة من باب المجاز المرسل لعلاقة السببية بإطلاق السبب وإرادة المسبَّب عنه ، أو على سبيل الحقيقة للدلالة على قدرة الله تعالى فى جعله السُّحب حاملة الأمطار .

والتعبير باسم الفاعل للدلالة على ثبوت الصِّفة ودوامها . والتعريف فيها تعريف الجنس لعمومه وشموله لاستغراق هذا الجنس الحامل ، وقوله : " وِقْراً " إمَّا أنه مفعول به لاسم الفاعل " الحاملات " على قراءة الكسر ، وهو الشئ الثقيل ، وإمَّا أنه منصوب على المصدرية بناءً على تسمية المحمول به فى قراءة مَنْ فتح الأول فيكون مجازاً عقلياً بتسمية الشئ باسم مصدره أى الموقرة بالماء " الممتلئة " .

قال الإمام الفخر – رحمه الله – : " فإن قيل : إن كان – وقراً – مفعولاً به فلِمَ لَمْ يجمع ، وما قيل – والحاملات أوقاراً ؟ نقول : لأن – الحاملات – على ما ذكرنا صفة الرِّياح ، وهى تتوارد على وقر واحد ، فإن

(١) التحرير والتنوير ٣٣٧/٢٦ .

ريحاً تهبُّ وتسوق السَّحابة فتسبق السَّحاب ، فتهبُّ أخرى وتسوقها ، وربَّما تتحوَّلُ عنه يُمْنَةً ويُسْرَةً بسبب اختلاف الرِّياح " (١) .

وقوله : " فالحاملات يسراً " معطوف على ما سبق من عطف الصِّفات على بعضها وهى من جملة الصِّفات المقسم بها ، وهى الرِّياح التى تجرى بالسَّحاب بعد تراكمه وقد صار ثقيلاً بماء المطر ، والتقدير : فالجارى بذلك الوقر يسراً ، وعطفت على ما سبق بالفاء لترتيب صفات الرِّياح ، و " الجاريات " عُبِّر عنها باسم الفاعل للدلالة على ثبوت صفة الجرى ودوامها ، وتعريفها بأل الجنسية الدَّالَّة على الاستغراق لشمول الصِّفة وعمومها ، وتمييزها بهذه الصِّفة .

وقوله : " يسراً " وصف لمصدر محذوف منصوب على النيابة عن المفعول المطلق ، والتقدير : الجاريات جرياً ليناً هيِّناً سهلاً جرياً ذا يسر شأن السير الثقيل من باب الإيجاز بالحذف ، وهو حذف المصدر كما قال الأعشى : (٢)

كأنَّ مشيتها من بيت جارتها ∴ مَشْىُ السَّحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

قال السَّمين الحلبى : " أو أن يكون حالاً – أى أن يسراً منصوب على الحال – أى ذات يسر ، أو مُيَّسرة ، أو جعلت نفس السير مبالغة " (٣) .

وقيل : إنَّ المراد بـ " الحاملات " السُّفن التى تجرى فى البحر بأمر الله فى يسر ، وهذا الرأى أرجح الآراء ، وهو ما عليه جمهرة المفسِّرين لأن

---

(١) التفسير الكبير ١٩٧/٢٨ .

(٢) ديوانه /١٤٤ ط دار بيروت للطبع والنشر ببيروت .

(٣) الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون ١٨٣/٦ ، أضواء البيان ٦٦٠/٧ .

لفظ الجارية وصف غلب استعماله فى السُّفن حتى أصبح عَلَماً عليها فى القرآن " (١) .

وقيل : هى الكواكب التى تجرى فى منازلها (٢) " أو النجوم التى تجرى فى أفلاكها بيسر فيكون فى الكلام ترقٍّ من الأدنى إلى الأعلى ، فالذاريات فوقها السحَّاب فوقها النجوم ، فوقها المقسّمات ، ومَنْ قال بهذا القول الأخير ابنُ تيمية - رحمه الله - نقله عنه تلميذه ابنُ القيِّم مستدَّلاً بقوله تعالى فى سورة التكوير : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ (٣) .

وقوله : " فالمقسّمات أمراً " قسمٌ آخر من جملة الصّفات أو الأمور التى أقسم الله تعالى بها ، و " المقسّمات " هى الملائكة التى تُقسّم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها ، أو ما يعمُّهم وغيرهم سن أسباب القسمة ، أو الريح تُقسّم الأمطار بتصريف السَّحاب " (٤).وقال ابن عطيَّة- رحمه الله -:" و - المقسّمات - الملائكة ، والأمر هنا اسم الجنس ، فكأنه قال : والجماعات التى تُقسِّم أمور الملكوت من الأرزاق والآجال والخلق فى الأرحام وأمر الرِّياح والجبال وغير ذلك ، لأن كلَّ هذا إنما هو بملائكة تخدمه ، فالآية تتضمَّن جميع الملائكة لأنهم كلُّهم فى أمور مختلفة ، وأنَّث - المقسّمات - من حيث أراد الجماعات " (٥) .

---

(١) تأمُّلات فى سورة الذاريات / ١٥ .

(٢) تفسير البيضاوى ١٧٨/٥ .

(٣) التبيان فى أقسام القرآن /١٧٥ ، تأمُّلات فى سورة الذاريات/١٥، التكوين ١٥ ، ١٦.

(٤) تفسير البيضاوى ١٧٨/٥ .

(٥) المحرر الوجيز ١٧١/٥ ، الجواهر الحسان فى تفسير القرآن للثعالبى ٢٣١/٣ .

ولمَّا كانت الملائكة التى يرسلها الله فى شئون وأمور مختلفة ، ولـذا عبَّر عنها بالمقسِّمات . فمنهم مَنْ يرسل لقبض الأرواح ، ومنهم مَنْ يرسـل لإهلاك الأمم ، كما وقع لقوم صالح " (١) .

ومن المفسِّرين مِنْ يرى أنَّ " المقسِّمات " هى الرِّياح تُقسِّم الأمطـار بتصريف السَّحاب فى الأقطار ، أو أن الرِّياح تنتهى بالسحَّاب إلى الموضـع الذى يبلغ عنده نزول ما فى السَّحاب من الماء ، أو هى السُّـحب يقُسِّـم الله تعالى بها أرزاق العباد " (٢) .

قال العلاَّمة أبو السعود : " وقد جُوِّز أن يراد بالكلِّ الرِّيـاح تنـزيلاً لاختلاف العنوان منزلة اختلاف الذَّات فإنها كما تذرو ما تذروه تثير السَّحاب وتحمله وتجرى فى الجوِّ جرياً سهلاً ، وتُقسِّم الأمطار بتصريف السَّحاب فى الأقطار " (٣) . **ثم يقول أيضاً** : " فإن حملت الأمور المقسم بها علـى ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الأقسام باعتبار ما بينها من التَّفاوت فى الدلالـة علـى كمال القدرة وإلاَّ فهى لترتيب ما صدر عن الريح من الأفاعيل فإنهـا تـذر الأبخرة إلى الجوِّ حتى تنعقد سحاباً فتجرى به باسطة له إلى ما أمـرت بـه فتُقسِّم المطر " (٤) . فهذه الرِّياح مسخَّرة مدركة لما كُلِّفـت بــه لقـدرة الله تعالى لأنَّ أمره بين الكاف والنون .

---

(١) أضواء البيان ٦٦١/٧ .

(٢) تفسير البيضاوى ١٧٨/٥ ، حاشية الشيخ زادة عليه ٣٩٠/٤ ، روح المعانى ٣/٢٧ ، التحرير والتنوير ٣٣٨/٢٦ .

(٣) تفسير أبى السعود ١٣٦/٨ .

(٤) السابق نفسه .

و" أمراً " منصوب على المفعولية فهو مفعول به ، وهو واحد الأمور ، وقد أريد به : الجمع ولم يُعبّر به لأن المفرد أنسب برءوس الآى مع ظهور الأمر ، وقيل : إنه منصوب على الحال أى مأمورة ، والمفعول به محذوف ، أو الوصف منزّل منزلة اللازم أى تفعل التّقسيم مأمورة .

وفى الآيات : " والذاريات ذرواً – أمراً " سجع قصير ، وهو ما كان مؤلفاً من ألفاظ قليلة ، وكلّما أمعنت فى القلّة كان أفضل ، وهو يدلُّ على قوّة المُنْشِئ ، وتمكنُّه فى الصناعة ، لصعوبة إدراكه ، وعزّة اتفاقه ، ووعورة مذهبه ، وبُعْدِ تناوله ، ثم هو أجمل صورة ، وأحلى موقعاً لقرب توارد الفاصلتين على السّمع ، ولإخفاء فى أنّ تواليها بسرعة فى أزمنة متساوية – كما يقول جويو – يشعر أننا بانسجام حاضر دائماً ، فتظلُّ الأذن مهدهدة دون أن يفاجئها أى شئ غير منتظر " (١) ، وفى الآيات ما يُسمّى بالسجع المرصّع وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان فى الوزن والتّقفية مع اتفاق باقى ألفاظ القرينتين أو أكثرها فى الوزن والتّقفية كذلك " (٢) وقد قال عنه أبو هلال العسكرى : إنه إذا خلا من التكلُّف وجاء متفقاً دون استكراه كان حسناً (٣) " وذلك لظهور التناسب التامّ بين جميع ألفاظه مما يجعل له وقعاً موسيقياً أخّاذاً " (٤) .

---

(١) البديع فى ضوء أساليب القرآن /١٢٨ د.لاشين .

(٢) التبيان فى علم البيان للطيبى /٥٠١ ، دراسات منهجية فى علم البديع /١٠٣ د . الشحات .

(٣) الصناعتين /٤١٩ وما بعدها بتصرُّف .

(٤) دراسات منهجية /١٠٣ .

ومن الملاحظ أنَّ أواخر المفاعيل التى ختمت بها الآيات " ذرواً " و " وقراً " ، " يسراً " ، " أمراً " بالألف المنونة أو الممدودة التى تتناسب وشأن الرياح فى تصعيدها ونزولها ، وإذا وقف عليها اللسان رأيت علُواً يتناسب مع حالة الرِّياح أو السُّحب أو الملائكة .

" والمقسِّمات " من الملائكة أربعة هم : جبريل صاحب الوحى إلى الأنبياء الأمين عليه وصاحب الغلظة ، وميكائيل صاحب الرِّزق والرَّحمة ، وإسرافيل صاحب الصُّور واللُّوح ، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح " ([1]) .

وبعد : فقد أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لكثرة ما فيها من المنافع للعباد ، ولما تتضمنَّه من الدِّلالة على وحدانية الله تعالى وبدائع صنعه " ([2]) .

واستخدام الفاء ليس لمجرِّد العطف فقط بل إنها كما يقول الدكتور أبو موسى : " لم تُبْقِ الكلامين كلاماً واحداً ، ينعطف ثانية على أوله من ذات نفسه ، وإنما جعلتهما كلامين يشرح ثانيهما أولهما ، فكأنه أجمل ، ثم جاء بكلام آخر ورتَّبه على هذا الإجمال ، وجعله تفصيلاً له ، فالفاء عزلت جناحى الكلام ، وجعلتهما متمايزين ، وفرق بين استخدام الفاء واستخدام الواو " ([3]) .

ثم بيَّن هذا الفرق بقوله : " لأنَّ الفاء تجعل الكلام مرتَّباً بعضه ببعض وليس متولِّداً بعضه عن بعض كما لو كان بدونها ، ولو أنه جاء بالواو لآذن باستقلال الكلام من غير أن يشير إلى ترتيب بعضه على بعض ، فذكر الفاء

([1]) تفسير الخازن وبهامشه معالم التنزيل للبغوى ٢٤١/٦ ، البحر المحيط ١٣٣/٨ ، تفسير روح البيان للبروسوى ١٤٨/٩ ، حاشية الجمل على الجلالين ٢٨٥/٧ .

([2]) مجمع البيان للطبرسى ٧/٢٧ .

([3]) دلالات التراكيب /٣٠٥ بتصرُّف .

نصٌّ فى التعليل ، وأنَّ الكلام لم يُبْنَ على أساس أن تكون الجملة الثانية متولِّدة من الجملة الأولى وموصولة بها بهذه الرابطة ، وإنما هى مرتبطة بها بالفاء التى تعطفها عليها عطف العلَّة على المعلول ، وكأنَّ هنا كلامين متميزين أحدهما علَّة للآخر قامت الفاء بينهما مقام العروة الخارجية " (١) .

وقد أشار العلاَّمة ابن هشام إلى " أن الفاء للتَّرتيب الذِّكرى ، وهو عطف مفصَّل على مجمل ، كما أنها تفيد التَّعقيب وهو فى كلٍّ شئ بحسبه " (٢) .

وقد بيَّن الشيخ الأمير ما ذكره ابن هشام فيما سبق بأنَّ التَّرتيب الذِّكرى " ليس معناه مجرَّد أنَّ ما بعدها متأخِّرٌ عمَّا قبلها فى الذِّكر فإنَّ هذا بديهىٌّ بدونها ومع الواو مثلاً وإنما معناه حسن ذكر ما بعدها بإثر ما قبلها ألا ترى أن التفصيل يحسن بعد الإجمال ، وكذا ذمُّ الشئ أو مدحه بعد ذكره كلُّ ذلك صادف مرتبته " (٣) .

ونرى الدكتور أبا موسى يفسِّر هذا التَّرتيب تفسيراً أدبياً رائعاً مبيِّناً هدفه ومغزاه فى قوله : " وإن كانت إلغاء تُغْرِى بالعطف على السابق المباشر بناءً على الفهم القريب لمعنى التَّرتيب والتَّعقيب ، ولكنَّ التَّرتيب يعنى ترتيب المعنى الذى له رأسٌ وقدمٌ وأطراف ، أو له جَذْرٌ وفَرْعٌ فلابَّد من ملاحظة اكتماله حين ترتَّب عليه معنى آخر له هو الآخر هذا التشخُّص والاكتمال"(٤). ثم **يقول** : " وهكذا يكون بناءُ معنى على معنى ، وترتيبه

---

(١) دلالات التراكيب /٣١٨ ، ٣١٩ بتصرُّف .

(٢) مغنى اللبيب ١/١٣٩ .

(٣) حاشية الأمير على المغنى ١/١٣٩ .

(٤) دلالات التراكيب /٣٤١ بتصرُّف .

عليه فيه من الدّقة والحذر ما يحتاج إلى إدراك تلك الشُعيرات الخفيـة التـى تربط أطراف الخاطرة برأسها حتى تهيئها لأن تنضمَّ إليه خاطرة أو فكـرة ثانية فيها هذه النُعومة وتلك الدّقة " (١) .

وقد نبَّه العلاَّمة الأستاذ محمود شاكر : إلى فائدة استعمال الفاء بقوله: " فالفاء تُحرّك الزمن فى الفعل الماضى وتمدُّه وتمطله حتى تبلـغ بـه أول الزمن فى الفعل الذى يليه " (٢) ، ومن ذلك أيضاً قوله : " ومَنْ تأمَّل الفاءات فى كتاب الله سبحانه رأى عجباً " (٣) .

ولبيان الحكمة في القسم بهذه المخلوقات المذكورة فـى أول السُـورة نرى أن الإمام الفخر – رحمه الله – ذكر وجوهاً فى ذلك منها " أن العـرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الدّيار بلا قع ، ثم إن النبىَّ – ﷺ – أكثر من الأيمان بكلٍّ شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً ، وكـان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الأيمان ولنالـه المكروه فى بعض الأزمان " (٤) ثم يقول أيضاً : " إن الأيمان التى حلف الله تعالى بها كلُّها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان مثاله قول القائل لمنعمـه : وحقِّ نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك فيذكر النِّعم وهى سبب مفيد لـدوام الشُكر ويسلك مسلك القسم ، كذلك هذه الأشياء كلُّها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة ، فإن قيل فلم أخرجها مخرج الأيمان ؟ نقول : لأن المـتكلم إذا شرع فى أول كلامه يحلف بعلم السامع أنه يريد أن يـتكلَّم بكـلام عظـيم

---

(١) السابق نفسه .

(٢) مجلة المجلة عدد نوفمبر سنة ١٩٦٩ نقلاً عن دلالات التراكيب /٣٤٧ .

(٣) دلالات التراكيب /٣٤١ بتصرُّف

(٤) التفسير الكبير ١٩٤/٢٨ .

فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أنَّ الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف وأدرج الدليل فى صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه فخرج لهم البرهان المبين والتبيان المتين فى صورة اليمين " (١) .

جواب القسم وهو قضية البعث التى هى من أهمّ القضايا الإسلامية :

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ وهذا هو جواب القسم فى الآيات السابقة ، كأنه استدلَّ باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث الموعود .

" وقضية البعث من أهمّ القضايا الإسلامية – بعد الوحدانية – لقيت جدالاً شديداً فى كلِّ عصر ومع كلِّ رسول ، وكانت مشكلة معقَّدة ضلَّ بها كثيرٌ عن الإيمان ، لأنهم مشدودون إلى الحسِّيات ، ولا يعملون عقولهم فيما خلق الله ولا فيما وراء الحسِّ من غيب مكنون، فهم يرون البعث أمراً عسيراً بعد الموت وتفرُّق الأشلاء وتحولّهم عظاماً نخرة ، وكثر القسم بآيات الله فى كونه ما كان منها ظاهراً أو خفياً فقال : " والذاريات ذرواً – الآيات " (٢).

فالقسم بالشئ يكون لتعظيم المقسم به ومخالفته لمقتضى الطبيعة لأن الأصل عدمها ، و " ما " فى قوله : " إنَّما " موصولة والعائد على الموصولية مقدَّر ، والتَّقدير : الذى توعدونه أو توعدون به من البعث لصادق أى لذو صدق ، وهذا على أن بناء فاعل للنسب إذ الوعدُ لا يكون صادقاً بل الصَّادق الواعد – فهو على هذا من باب المجاز العقلى – كما سنرى – أو أن – ما – مصدرية ، والمعنى : إنَّ الوعد بالبعث والجزاء والحساب لصادق ، والخطاب فى قوله : – توعدون – للمشركين كما هو مقتضى التَّأكيد بالقسم ،

(١) السابق ١٩٥/٢٨ ، حاشية الشيخ زادة ٣٨٩/٤ ، ٣٩٠ ، محاسن التأويل ٣٣٩/١٥ .
(٢) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية /١٦٢ ، ١٦٣ د صبَّاح دراز بتصرُّف .

وكما يقتضيه تعقيبه بقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ ([1]) ، والذى أوعده عذاب الآخرة وعذاب الدُّنيا مثل الجوع فى سنىّ القحط السَّبع الذى هو دعوة النبىّ – ﷺ – عليهم بقوله : " اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنىّ يوسف " ([2]) .

ويجوز أن يكون قوله : " توعدون " من الوعد أى الإخبار بشئ يقع فى المستقبل والمراد بالوعد هنا الوعد بالبعث ، والوصف بـ " صادق " مجازٌ عقلىٌ لعلاقة الفاعلية لأن الصَّادق هو المُوْعِدُ به كما فى قوله : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ([3]) .

قال سماحة الشيخ الطَّاهر بن عاشور : " ومن رشاقة هذا التَّفسير أنَّ فيه مناسبة بين المقْسَم به والمقْسَم عليه وهو قوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ فإن أحوال الرِّياح المذكورة هنا مبدؤها : نفخ فتكوين ، فإحياء ، وكذلك البعث مبدؤه : نفخ فى الصُّور ، فالتئام أجساد الناس التى كانت معدومة أو متفرّقة ، فبثُّ الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون ، وقد يكون قوله تعالى : ﴿ أمراً ﴾ إشارة إلى ما يقابله فى المثال من أسباب الحياة وهو الروح لقوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ([4]) فهنا تناسب ([5]) " .

وقد تناول السمين الحابي : إسمية " ما " وحذف العائد فى قوله : " إنما توعدون " على أنَّ " ما " إسمية والعائد محذوف أى توعدونه ، أو مصدرية

([1]) تفسير البيضاوى ١٧٩/٥ ، حاشية الشهاب ٩٥/٨ ، التحرير والتنوير ٣٣٩/٢٦ .

([2]) صحيح مسلم ٤٦٧/١ ك المساجد من ح أبى هريرة ، سنن أبى داود ٦٨/٢ ك الصلاة وسنن ابن ماجة ٨١/٢ ك الإقامة ، سنن الدارمى ٣٧٤/١ باب القنوت فى الصلاة .

([3]) الحاقة /٢١ ، القارعة /٧ .

([4]) الإسراء /٨٥ .

([5]) التحرير والتنوير ٣٣٩/٢٦ .

فلا عائد على المشهور فقال : " وحينئذ – على ما ذكر – يحتمل أن يكون – توعدون – مبنياً من الوعد ، أو أن يكون مبنياً من الوعيد ، لأنه صالح أن يقال : أوعد فهو يوعد ، ووعدته فهو يوعد لا يختلف ، فالتقدير : إنَّ وعدكم أو إن وعيدكم ، ولا حاجة إلى مَنْ قال : إن قوله : " لصادق " وقع فيه اسم الفاعل موقع المصدر أى لصدق ، لأن لفظ اسم الفاعل أبلغ ، أو جعل الوعد أو الوعيد صادقاً مبالغة ، وإن كان الوصف إنما يقوم بمن يعد أو يوعد "(١).

والأول هو الحقُّ لأن اليمين مع المنكر إنما هو بوعيد لا بوعد . وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أسلوب قصر من قصر الموصوف على الصِّفة ، وهو قصر الموْعَد به على صفة الصِّدق ، و" إنما " تستعمل فيما ينزِّل فيه العالم بالشئ منزلة غير المنكر له ، كما أنها تستعمل للتَّعريض ، فكأنَّ هنا تعريضاً بهؤلاء فى إنكارهم البعث فأقسم الله تعالى بهذه الأشياء والقصر هنا قصر إضافىٌّ ، وهو قصر قلب لقلب معتقدهم فى وقوع البعث .

قال العلاَّمة أبو حيَّان عن كون قوله : " توعدون " فى الآية يحتمل الأمرين – الوعد والوعيد – إن " المقصود التخويف والتهويل ، ومعنى صدقه تحقُّق وقوعه ، والمتِّصف بالصِّدق حقيقة هو المخبِر ، وقال مجاهد : الأظهر أنَّ الآية فى الكفَّار وأنَّه وعيد محض (٢) " .

وعن إفادة إنَّما التَّعريض ذكر الإمام عبد القاهر – رحمه الله – فى معرض حديثه عن " إنَّما " إذا جاءت للتَّعريض بأمر هو مقتضى الكلام :

---

(١) الدُّرُّ المصون ١٨٤/٦ .

(٢) البحر المحيط ١٣٤/٨ .

" ثم اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب ، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التَّعريض بأمر هو مقتضاه "(١).

ويقول أيضاً : " ثم إنَّ العجب فى أنَّ هذا التَّعريض الذى ذكرت لك لا يحصل من دون – إنَّما – ، والسبب فى ذلك أنَّ هذا التَّعريض ، إنما وقع بأن كان من شأن – إنَّما – أن تضمَّن الكلام معنى النفى من بعد الإثبات ، والتَّصريح بامتناع التَّذكُّر ممَّن لا يعقل " (٢) .

وقد أقسم الله جلَّ ثناؤه بهذه الأشياء العظيمة فى خلقها وقدرها ونفعها، ودلالتها على أن البعث أمرٌ لابدَّ منه ، وأنَّ الجزاء فيه واقع لا محالة فقال جلَّ شأنه : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ ، ولمَّا بالغ المشركون فى إنكار البعث والجزاء جاء الأسلوب مؤكَّداً بالقسم وبأدوات التَّوكيد المعروفة ، وهى إنَّما واللام لتثبيت الخبر فى ذهن السَّامعين . وقوله : ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ معطوف على ما سبق موصول به لاتفاقهما فى الخبرية ، " و " الدِّين " هو الجزاء ، والمراد إثبات البعض الذى أنكروه وأنه واقع لا محالة ، والتعبير عن الجزاء بـ " الدين " لأن الدِّين هو منهاج وتعاليم تأمر بالحلال وتنهى عن الحرام ، وتُحسِّن الحَسَن وتُقبِّح القبيح ، وتحلُّ الطيِّبات وتُحرِّمُ الخبائث ، ولا يجازى الإنسان إلا على كلٍّ ما سبق ، ثم بالدِّين يؤمن الإنسان بأسسه ومبادئه ، ويهجر الكفر به وما يترتَّب على هذا الكفر من العقاب . فإذا التزم الإنسان الأخلاق والمبادئ التى أمر بها الدِّين وهجر ما سواها وقع حسابه وجزاؤه فيجازى بهذا الدِّين أى عليه ،

---

(١) دلائل الإعجاز /٣٥٤ ت الشيخ شاكر .

(٢) السابق /٣٥٦ .

حتى إنَّ " الدّين " على هذا إما شاهدٌ لمن التزمه ، وإما شاهدٌ على من هجره ، وعليه فقد عُبِّر عن ذلك بوقوع هذا الدّين .

قال الشيخ سيد قطب – رحمه الله – : " وقد وعد الله الناس : أنه مجازيهم بالإحسان إحساناً ، ومجازيهم بالسوء سوءاً ، وأنه إذا أمهلهم الحساب فى الأرض فليس بمهمل حسابهم فى الآخرة فالحساب لابدَّ منه هناك ، ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ فالوعد صادق حتماً إمَّا هنا وإمَّا هناك ، ولابدَّ أن يتحقّق ما وعد الله به النَّاس فى الصُّورة التى يريدها ، وفى الوقت الذى يريده " [1] .

ومعنى " لواقع " أى فى المستقبل بقرينة جعله مرتَّباً فى الذِّكر على ما يوعدون ، وإنما يكون حصول الموعود به فى الزمن المستقبل ، وفى ذكر الجزاء زيادة على الكناية به عن إثبات البعث تعريضٌ بالوعيد على إنكار البعث ، والمراد من قوله : " لواقع " أى صادر حقيقة على المكلَّفين من الإنس والجنّ .

قال الإمام الفخر : " وعلى هذا فالإيعاد بالحشر فى الموعد هو الحساب ، والجزاء هو العقاب . فكأنه تعالى بيَن بقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أنَّ الحساب يستوفى والعقاب يوفَّى " [2] .

قَسَمٌ آخر على أمر آخر :

قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ هذا قسم منه تعالى معطوف على الأقسام التى صُدِّرت بها السُّورة الكريمة لإبطال زعم آخر من مزاعمهم ، ودَحْض فرية من افتراءاتهم ، فبعد أن أخبر سبحانه أنَّ البعث

---

(1) فى ظلال القرآن ٣٣٧٥/٦ .

(2) التفسير الكبير ١٩٨/٢٨ .

حقٌّ كائنٌ لا ريب فيه ، وأنَّ الجزاء على الخير والشرّ واقع لا محالة ، بيَّن حال المشركين وما هم عليه من تناقض واختلاف فى شأن هذا الوعد وهذا الجزاء ، بل وفى شأن الرسول والرسالة بوجه عام .

فقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ قسمٌ آخرٌ لتحقيق اضطراب أقوالهم فى الطَّعن فى الدِّين ، وهو كالتَّذييل للذى قبله ، لأنَّ ما قبله خاصٌّ بإثبات الجزاء ، وهذا يعمُّ إبطال أقوالهم الضَّالَّة . فالقسم لتأكيد المقسم عليه لأنهم غير شاعرين بحالهم المقسم على وقوعه ، ومتهالكون على الاستزادة فيه ، فهم منكرون لما فى أقوالهم من اختلاف واضطراب جاهلون به جهلاً مركَّباً ، والجهل المركَّب إنكار للعلم الصحيح " (١) .

والتعريف فى " السَّماء " للعهد أى السَّماء المعهودة لجميع المخاطبين ، والوصف بـ " ذات " أى صاحبة " الحُبُك " لاختصاصها بهذه الطَّرائق المختلفة سواء كانت محسوسة كمسير الكواكب ومجرَّاتها أو معقولة كالتى يسلكها النُّظار ويتوصَّل بها إلى المعارف ، أو النجوم فإنَّ لها طرائق أو أنها تزيِّنها كما تزيِّن الموشَّى طرائقُ الوشى .

قال الشيخ الطَّاهر ابن عاشور : " ومناسبة هذا القسم للمقسم عليه فى وصف السَّماء بأنها ذاتُ حُبُك ، أى طرائق لأن المقسم عليه : إنَّ قولهم مختلف طرائق قِدداً ، ولذلك وُصِفَ المقسمُ به ليكون إيماءً إلى نوع جواب القسم " (٢) . و " الحُبُك " جمع حبيكة مثل طريقة وطرق ، أو حباك كمثال ومُثُل ، وإجراء هذا الوصف على " السَّماء " من باب الإدماج أدمج به الاستدلال على قدرة الله تعالى الامتنان بحسن المرأى .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٣٤٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/٣٤٠ .

واختلفت كلمة القوم في وصف ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ بأنه يراد " ذات الخَلْقِ الحَسَنِ المستوى ، وقيل : ذات الزينة حبكت بالنُّجوم ، وقيل : ذات البنيان المتقن ، وقيل : ذات الطَّرائق المختلفة كحبك الماء إذا ضربته الرِّيح ، وحبك الرَّمل ، ولكنها لا ترى لبعدها من النَّاس (١) " كذلك كثرت القراءات فى " الحُبُك " إلى سبع قراءات طوينا عنها هنا صفحاً (٢) .

قال ابن كثير – رحمه الله – بعد أن ذكر أقوال العلماء فى معنى ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ " وكلُّ هذه الأقوال ترجع إلى شئ واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس – رضى الله عنهما – فإنها من حسنها مرتفعة شفَّافة ضعيفة شديدة البناء ، متسعة الأرجاء أنيقة البهاء ، مكللَّة بالنجوم الثوابت ، والسيَّارات موشَّحة بالشمس والقمر والكواكب الزَّاهرات " (٣) .

جواب القسم المراد :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ جواب القسم " والظَّاهر أنه خطابٌ عامٌ للمسلم والكافر ، كما أنَّ جواب القسم السَّابق يشملهما ، واختلافهم فى كونهم منهم المؤمن بالرسول – ﷺ – وكتابه والكافر بهما ، وقال ابن زيد خطاب للكفرة فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون ، وقال الضحَّاك قول الكفرة لا يكون مستوياً إنما يكون متناقضاً مختلفاً ، وقيل : اختلافهم فى

---

(١) جامع البيان وبهامشه رغائب الفرقان للنيسابورى ١١٧/٢٦ ، ١١٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٣١/١٧ ، ٣٢ ، البحر المحيط ١٣٤/٨ ، تفسير الخازن ٢٤١/٦ ، زاد المسير ٢٤٩/٧ .

(٢) المحرر الوجيز ١٧٢/٥ ، ١٧٣ ، البحر المحيط ١٣٤/٨ ، زاد المسير ٢٤٩/٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢٣٢/٤ .

الحشر . منهم مَنْ ينفيه ، ومنهم مَنْ يشكُّ فيه ، وقيل : اختلافهم إقرارهم بأن الله تعالى أوجدهم ، وعبادتهم غيره ، والأقوال التى يقولونها فى آلهتهم "(١).

قال القاضى البيضاوى – رحمه الله – " ولعلَّ النكتة فى هذا القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها وتنافى أغراضها بالطَّرائق للسماوات فى تباعدها واختلاف غاياتها " (٢) .

وقد وضَّح الشيخ زاده كلام القاضى البيضاوى السابق بقوله : " – قوله ولعلَّ النكتة فى هذا القسم – مع أنَّ عدم ثباتهم على قول واحد أمرٌ مقرَّر لا ينكره أحدٌ حتى يؤكَّد بالقسم إلا أنه أقسم عليه تعظيماً للمقسم به من حيث كونه صالحاً لبيان حال أقوالهم من اختلافها وتنافى أغراضها للاشتراك بينها وبين الحبك والطَّرائق فى التباعد ذاتاً ومؤدًّى كما أن القسم الأول لتعظيم المقسم به من حيث كونه صالحاً لأن يستدلَّ به على المقسم عليه " (٣) .

و " فى " فى قوله تعالى : ﴿ فِي قَوْلٍ ﴾ للظرفية المجازية وهى شدَّة الملابسة الشبيهة بملابسة الظرْف للمظروف فهى من باب الاستعارة التبعية فى الحروف ، وبلاغة الاستعارة دليل على شدَّة اختلافهم وتناقضهم فى أقوالهم التى يخالف بعضها بعضاً ، فهى أقوال مختلفة مضطربة متناقضة ، حيث قالوا عن القرآن : إنَّه سحر وشعر وكهانة ، وقَالُوا : ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ (٤) ، وقالوا : ﴿ إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ ﴾ (٥) إلخ ، وقالوا فى حقٍّ

---

(١) البحر المحيط ١٣٤/٨ ، الجواهر الحسان ٢٣٢/٣ .

(٢) تفسير البيضاوى ١٨٠/٥ ، تفسير أبى السعود ١٣٧/٨ .

(٣) حاشية الشيخ زاده ٣٩٠/٤ ، حاشية الشهاب ٩٥/٨ ، روح المعانى ٥/٢٧ .

(٤) الفرقان /٥ .

(٥) ص / ٧ .

النبيّ - ﷺ - إنه شاعر وساحر ومجنون وكاهن ، وقالوا : إنه يتلقّى العلم من البشر بعد أن كانوا يلقبونه بالصَّادق الأمين - عليه السلام - وقوله : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ كناية عن لازم الاختلاف وهو التّردُّد فى الاعتقاد ويلزمه بطلان قولهم ، ولذا جاءت الجملة مؤكّدة بالقسم وإنّ واللام ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ على الرَّاجح " خطاب لأهل مكّة تبكيتاً لهم وتهكُماً بهم لاختلافهم فى حقائق ثابتة بالبراهين السَّاطعة والحجج القاطعة، ففى أىّ شئ يختلفون ؟ أعلى صدق الرسول يختلفون وهو لديهم الصَّادق الأمين ؟ أفى شأن القرآن يختلفون ؟ وهو النبأ العظيم والكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . كيف يختلفون فيه ويتنازعون فى شأنه ؟ وقد عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله فدلّ عجزهم على أنه ليس من عند بشر ، ولكنه تنزيل من ربّ البشر على خير البشر - ﷺ - ، ثم لماذا ينكرون البعث والجزاء ويختلفون حولهما ولديهم البراهيم القاطعة والحجج السَّاطعة على وقوعهما " (١) . ثم لماذا يكون اختلافهم وأمامهم آياتٌ وعبرٌ فى السماوات والأرض يشاهدونها ، وهى دالّة على أن الله الذى خلق هذه الكائنات وأوجد هذه المخلوقات العجيبة ؟ ألا يقدر بعد ذلك على إعادة هؤلاء المخلوقين بعد موتهم ثم يحاسبهم على ما قدَّموا وما فعلوا إلا أنهم ينصرفون عن هذه الأدلة النَّاطقة بقدرته والآيات الشَّاهدة على قوّة تصرُّفه وحكيم فعاله ومن هنا ينصرفون علُواً ومكابرة وعناداً واتباعاً للهوى.

قال ابن القيم : " لمَّا كذَّبوا بالحقّ اختلفت مذاهبهم وآراؤهم ، وطرائقهم وأقوالهم ، فإنّ الحقّ شئٌ واحد وطريق مستقيم ، فمن خالفه اختلفت به

---

(١) تأملات فى سورة الذاريات /١٨ .

الطُرق والمذاهب كما قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ (١) ، والأمر المريج هو الأمر الملتبس والمتناقض " (٢) .

<u>بابٌ آخرُ من أبواب الاختلاف :</u>

<u>قال تعالى</u> : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ يجوز أن يكون هذا فى محل جرٌ صفة ثابتة لــ " قول مختلف " ، ويجوز أن يكون مستأنفاً استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ ومن هنا تكون جملة ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ معترضة بين الجملة البيانية والجملة المبيَّن عنها والمراد يُصْرَفُ عن الإيمان بما كُلِّفوا الإيمان به لدلالة الكلام السابق عليه ، والضمير فى الجارّ والمجرور " عنه " إمَّا للرسول - ﷺ - وإمَّا للقرآن الكريم ، " وعن " فى هذا للمجاورة والتَّعدى على شأن الرسول - ﷺ - والقرآن الكريم ، وإن كان هدفهم عن الإيمان فتكون " عن " للتَّعليل .

<u>قال الألوسي</u> : " والكلام السَّابق - الآيات - مُشْعِرٌ بكلِّ مَنْ صُرِفَ الصَّرف الذى لا أشدَّ منه وأعظم ، ووجه المبالغة من إسناد الفعل إلى مَنْ وصف به فلولا غرض المبالغة لكان من توضيح الواضح فكأنه أُثْبِتَ للمصروف صَرْفُ آخر حيث ثيل : يُصْرَفُ عنه - المصروف فجاءت المبالغة فى المضاعفة من المضاعفة ثم الإطلاق فى المقام الخطابىٌ له مدخل فى تقوية أمر المضاعفة وكذلك الإيهام الذى فى الموصول ، وهو قريب من قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (٣) .

---

(١) ق / ٥ .

(٢) التبيان فى أقسام القرآن /١٨١ .

(٣) طه /٧٨ ، روح المعانى ٥/٢٧ .

ثم يقول أيضاً : " وقيل : المراد – يصرف عنه فى الوجود الخارجىّ من – صُرِفَ عنه – فى علم الله تعالى وقضائه سبحانه ، وتعقيب بأنه ليس فيه كثير فائدة لأنَّ كلَّ ما هو كائن معلوم أنه ثابت فى سابق علمه تعالى الأزلىّ وليس فيه المبالغة السَّابقة ، وأجيب عن الأول بأنَّ فيه الإشارة إلى أنَّ الحجَّة البالغة لله عزَّ وجلَّ فى صرفه وكفى بذلك فائدة وهو مبنىٌّ على أنَّ العلم تابع للمعلوم " (١) .

وحذف فاعل " يُؤْفَكُ " وأبهم مفعوله بالموصولية للاستيعاب – أى استيعاب جميع من وجب عليه الصَّرفُ – مع الإيجاز ، والإيجاز بلاغة ، وجاء تعريف المسند إليه بالاسم الموصول " مَنْ أُفِكَ " لتفخيم هذا الأمر وتهويله ، وفى قوله : " يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ " كناية عن موصوف ، والموصوف المراد هنا هو المكذِّب الجاحد للحقِّ ، وفائدة هذه الكناية أنه لمَّا خُصِّص هذا بأنه هو الذى صُرِفَ أفهم أنَّ غيره لم يُصْرَفْ فكأنه قال لا يثبت الصَّرف فى الحقيقة إلا لهذا ، وكلُّ صرف دونه يعتبر بمثابة المعدوم بالنسبة إليه .

وقيل : يجوز أن يكون الضَّمير فى " عنه " عائداً على قوله : " لما توعدون " أو على قوله " الدين " أقسم سبحانه بـ " الذاريات " على أن وقوع أمر القيامة حقٌّ ثم أقسم بـ " السَّماء " على أنهم فى " قول مختلف " فى وقوعه فمنهم شاكٌّ ومنهم جاحدٌ ثم قال جلَّ وعلا : " يُؤْفَكُ " عن الإقرار بأمر القيامة مَنْ هو المأفوك " (٢) .

---

(١) السابق نفسه .

(٢) الكشاف ١٤/٤ ، البحر المحيط ١٣٤/٨ ، ١٣٥ ، روح المعانى ٥/٢٧ ، ٦ ، إعراب القرآن وبيانه ٣٠٤/٩ ، ٣٠٥ .

قال العلاّمة الزمخشري " وقرأ سعيد بن جبير ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴾ على البناء للفاعل – أفَكَ – أى مَنْ أفَكَ الناسُ عنه وهم قريش ، وذلك أنَّ الحيَّ كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأى ليسأل عن رسول الله – ﷺ – فيقولون له احذره فيرجع فيخبرهم ، وعن زيد بن على يؤفك عنه مَنْ أفكَ – أى يصرف الناس عنه من هو مأفوك فى نفسه ، وعنه أيضاً : يأفك عنه مَنْ أفك – ببيناء الأول للفاعل – أى يصرف الناس عنه مَنْ هو أفَّاك كذَّاب ، وقرئ : يؤفن عنه مَنْ أفن – بالنون – أى يُحرِمه مَنْ حُرِمَ ، من أفن الضَّرع إذا نهكه حلباً " ([1]) .

فنراه سبحانه وتعالى قد حمَّلهم بهاتين الجملتين : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ تبعة أنفسهم وتبعة المغرورين بأقوالهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ ([2]) .

وقسم القرآن الكريم بـ ﴿ وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أى ذات الجمال والبهاء ، والحسن والاستواء يقسم على أن هؤلاء كاذبون فى زعمهم ، أى : إنكم أيُّها المشركون المكذِّبون للرسول – ﷺ – لفى قول مختلف مضطرب ، لا يلتئم ولا يجتمع ، ولا يروج إلا على مَنْ هو ضالٌ فى نفسه ، لأنه قول باطل يُصرَفُ بسببه مَنْ صرِفَ عن الإيمان برسول الله – ﷺ – وبما جاء به من الأخلاق والمبادئ الكريمة ما لا يتفقُ وما تهواه أنفسكم بالباطل .

يقول الشيخ المراغي – رحمه الله – : " والخلاصة : قسماً بالسَّماء وزينتها وجمالها ، إنَّ أمركم فى شأن محمد وكتابه لعجبٌ عاجب ، فهو متناقض مضطرب ، فحيناً تقولون هو شاعر ، وحيناً آخر تقولون هو

([1]) الكشاف ٤/١٤ ، البحر المحيط ٨/ ١٣٥ ، روح المعانى ٢٧/ ٦ .

([2]) العنكبوت / ١٣ .

ساحر ، ومرة ثالثة تقولون هو مجنون ، وبينا تقولون عن القرآن إنَّه سـحرٌ إذا بكم تقولون إنه شعر أو إنه كهانة " (١) .

وفى قوله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ تسلية للنبيِّ - ﷺ - أى فما من أحد كفر بك إلاَّ لسابق كفره أزلاً ، فلا تحزن واستمر على ما أنت فيه . فإن سأل سائل : لِمَ أقسم الله تعالى على صدق وعده ، ووقوع جزائه بالرِّياح الذاريات وما بعدها ، وأقسم على اختلافهم فى شأن الرسول ، أو القرآن ، أو شأن البعث والجزاء بالسَّماء ذات الحبك ؟ وهل بين المقسم والمقْسم عليه مناسبة ؟ والجواب : أن الله تعالى - وإن كان له أن يقسم بما شاء على ما شاء - فقد اختار لتأكيد المقسم عليه بأقسام مناسبة له فى بعض أوصافه وشئونه . فلَّما كان يوم القيامة يوماً تتقلَّب فيه القلوب والأبصار فيفرح فيه فريق ، ويحزن فريق ، وفريق يعذَّب ، وآخر ينعَّم . أن يؤكِّد مجيئه بالذاريات المتقلبه فى هبوبها وصعودها وهبوطها ، وهى إمَّا مبعث رحمة ، وإمَّا مصدر نقمة ، تحمل الخير كما تحمل الشرَّ ، وكذلك شأن السُّحب المحمَّلة بالأمطار ، والجاريات فى البحار ، والمقسِّمات أمور الخلق بأمر الواحد القهَّار ، وأما المناسبة بين السَّماء ذات الحبك ، والقول المختلف ، فإنها جُد قويِّة . فقد شبَّه الله تعالى الحقَّ فى وضوحه وإحكامه وحسنه ، وشدَّته بـ " السَّماء ذات الحبك " ، وشبَّه أقوالهم المتناقضة وآراءهم الفاسدة بالباطل فى تعدُّده ورخاوته .

---

(١) تفسير المراغى ٢٨٤/٩ .

دعاء بالهلاك على الكذّابين :

من المعلوم أنَّ الدعاء دائماً يكون بالخير والفلاح ، لكنه قد يـراد بـه غير ذلك فيكون دعاءً بالهلاك والشرّ إذا وصل مَنْ يستحقُّه منزلـة الشَّـقاء والكذب .

قال تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ ، وهذا القول جملة دعائيـة علـيهم يراد بها فى عرف التَّخاطب لعنهم ، لأنَّ مَنْ لعنه الله فهو بمنزلـة الهالـك المقتول ، فهو دعاء بالهلاك على أصحاب ذلك القول المختلف لأن المقصود بقتلهم أن يهلكهم الله ، ولذا يكثر أن يقال : قاتله الله ، ثم أجرى مجرى اللَّعن والتحقير والتَّعجُّب من سوء أحوال المدعوّ عليه بمثل هذا ، وقد فصلت هذه الجملة الدُّعائية عمَّا سبق لكونها إنشائية معنى لغرض الدُّعاء وما قبلها خبر وهو قوله : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ كما أنَّ تعقيب الجمل التى قبلها بها إيماء إلى أنَّ ما قبلها سبب للدُّعاء عليهم ، وهذا من بديع الإيجاز كما قيل ، ولفظ " قُتِلَ " مستعملٌ فى القتل حقيقة ثم استعمل فى اللَّعن على سبيل الاسـتعارة المكنية حيث شُبِّه مَنْ فاتته السعادة بالمقتول الذى فاتته الحياة وطوى ذكـر المشبَّه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو القتل فإثباته تخييل ، أو اسـتعارة تخييلية ، وإنما كان القتل بمعنى اللَّعن ، لأن مَنْ لعنه الله تعالى كان بمنزلـة المقتول الهالك فقوله : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ أسلوب دعاء وهو دعاء بسـوء يستعمل فى التَّعجب من فعل أو قول مكروه ، واستعمال ذلك فـى التَّعجُّـب مجاز مرسل للملازمة بين بلوغ الحال فى السُّوء وبين الدُّعاء على صـاحبه بالهلاك . إذا لا نفع للناس فى بقائه ثم الملازمة بين الدُّعاء بـالهلاك وبـين التَّعجُّب من سوء الحال فهى ملازمة بمرتبتين كناية رمزية (١) .

---

(١) من الأسماء المضمنَّة معنى الاستفهام فى القرآن /١٠١ د أحمد ناجى .

وبناء الفعل " قُتِلَ " للمجهول ، وحذف فاعله من باب حذف المسند إليه للإيجاز والاختصار ولكونه معلوماً للسَّامعين ، والمقام مقام ذمٍّ لهؤلاء الكذَّابين و " الخرَّاصون " هم الكذَّابون من أصحاب القول المختلف ، وأصل المادة الخَرْصُ ، وهو الظنُّ والتَّخمين ثم تُجوِّز به عن الكذب لأنه فى الغالب يكون منشأ له " (١) ، فقولهم إذاً ناشئ عن خواطر مزيفة وأفكار كاذبة ودعاوى باطلة لا دليل عليها .

قال الرَّاغب عن الآية : " قيل " لُعِنَ الكذَّابون ، وحقيقة ذلك أنَّ كلَّ قول مقول عن ظنٍّ وتخمين يقال خَرْصٌ سواء كان مطابقاً للشئ أو مخالفاً له من حيث إنَّ صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظنٍّ ولا سماع بل اعتمد فيه على الظنِّ والتَّخمين كفعل الخارص فى خرصه ، وكلُّ مَنْ قال قولاً على هذا النحو قد يُسمَّى كاذباً وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر عنه " (٢) .

وتعريف " الخرَّاصون " باللام التى للعهد لأنَّ المراد بهم : الكذَّابون المعهودون بالكذب أصحاب القول المختلف فقد كانوا كذَّابين فيما يقولونه ، وكان المعنى لُعِنَ الكذَّابون فيما يقولونه ، واللام مشيرة إليهم بذلك كأنه قيل : قُتِلَ هؤلاء الخرَّاصون ، وقرئ : قتل الخراصين ، أى قتل الله الخراصين ، وحذف الفاعل للعلم به مع عدم إجراء اسمه الكريم فى مقام اللَّعن والذمِّ – كما هو معلوم .

بيان وصف الخرَّاصين الكذَّابين :

ذكر سبحانه بعد ذلك صفة هؤلاء الخرَّاصين بقوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ فهذه الآية صفة لهم ، وهى مبدلة منها ، ومن هنا فصلت

---

(١) روح المعانى ٦/٢٧ .

(٢) المفردات /١٤٦ مادة " خرص " .

عنها لكونها أدلَّ على الغرض ، وأمضى بالمطلوب من جهة ، وبيان حالهم من جهة أخرى ، ففى الآية على هذا كمال اتصال ، أو أن قوله : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ قد آثار سؤالاً فى نفس السامع مِنْ هؤلاء الخرَّاصون ؟ فقيل : " الذين هم .... إلخ " على أن يكون قوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ استئنافاً بيانياً ، ومن هنا فُصِلَ عمَّا سبق لشبه كمال الاتصال وتعريف المسند إليه بالاسم الموصول " الذين " لزيادة تقرير الغرض الذى سيق الكلام من أجله ، وهو بيان حال هؤلاء الكذَّابين أصحاب القول المختلف وما هم فيه من جهل وضلال وسوء مصير ، ومن هنا وصفهم بأنهم فى جهالة تغمرهم ساهون لاهون ، ثم مجئ الضَّمير " هم " للغائب ، وهم مَنْ تحدَّث عنهم بصفة الكذب فسبق لهم ذكر ، وكان من الممكن الاستغناء عن مجئ هذا الضَّمير إلا أنه قد بولغ فى ذمَّهم فكأنه يخصُّهم هم دون سواهم حتى يرتبط الكلام والنَّظم ويأخذ بعضه بحجر بعض وتلتئم جوانبه .

والتعبير بحرف الجرّ " فى " الدَّالّ على الظرفية دلالة على تمكنُّهم فى الغواية والضَّلال والجهل الشامل لهم المحيط بهم من كلِّ جانب فهم متمكنُّون فيه تمكُّن الظَّرف من المظروف وتلبسَّه به فصاروا متلَّبسين بالغواية وتلبَّست بهم .

وقوله : " غمرة " وهى المرَّة من الغمر ، والمراد بها الجهل العظيم والضلالة المهلكة ، ويفسِّر هذه الكلمة ما تضاف إليه كما فى قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ (١) ، وإن لم تقيَّد بإضافة فإن تعيينها يكون بحسب المقام كما فى قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى

---

(١) الأنعام /٩٣ .

حِينٍ ﴾ (١) ، والمعنى أنهم فى شغل يشغلهم من معاداة الإسلام شغلاً لا يستطيعون معه أن يتدَّبروا فى دعوة النبىِّ - ﷺ - ، فهؤلاء ، لمَّا بلغوا فى ضلالهم وغوايتهم وجهلهم مبلغاً صاروا كأنهم متمكنُون فى هذا الضَّلال وتلك الغواية . والغمرة فى الآية استعارة من غَمَرَ الماءُ المكانَ أى ملأه وغطَّاه وتمكَّن منه تمكُناً شديداً للغواية والضَّلال الذين يغمران أهلها غمراً يُغْلِقُ عليهم عقولهم وقلوبهم ويعمى بصائرهم عن الحقِّ الصُّراح ، وعن دعوة مَنْ يدعوهم إليه .

قال الإمام الفخر - رحمه الله - : " قوله - فى غمرة - استعمل هنا لبيان ظرف السهو الذى يصحِّح وصف المعرفة بالجملة ، ولولاها لما جاز وصف المعرفة بالجملة - هذا من ناحية اللفظ - ، أمَّا من ناحية المعنى : فهى أنَّ وصف الخرَّاص بالسهو والانهماك فى الباطل ، يحقِّق ذلك كون الخرَّاص صفة ذمٍّ ، وذلك لأن ما لا سبيل إليه إلا الظن إذا خرص الخارص وأطلق عليه الخرَّاص لا يكون ذلك مفيدَ نقص ، كما يقال فى خرَّاص الفواكه والعساكر وغير ذلك ، وأمَّا الخَرْصُ فى محلِّ المعرفة اليقين فهو ذمٌّ فقال : - قُتِلَ الخرَّاصون - الذين هم - جاهلون ساهون لا الذين تعيَّن طريقهم فى التَّخمين والحزر ، وقوله تعالى : ﴿ سَاهُونَ ﴾ بعد قوله ﴿ فِي غَمْرَةٍ ﴾ يفيد أنهم وقعوا فى جهل وباطل ونسوا أنفسهم فيه فلم يرجعوا عنه " (٢) والسهو هو الغفلة ، والمراد أنهم معرضون إعراضاً كإعراض الغافل وما هم بغافلين فإن دعوة القرآن تقرع أسماعهم كلَّ حين ، فهم غافلون عمَّا أُمروا به ،

---

(١) المؤمنون /٥٤ .

(٢) التفسير الكبير ٢٨/١٩٩ .

والتعبير باسم الفاعل للدلالة على دوامهم وثبوتهم واستمراريتهم علـــى هــذه الحالة كأنها صارت صفة ثابتة لا تنفكُّ عنهم .

الاستكبارُ والعنادُ دَيْدَنُ المشركين :

بعد أن بيَّن الله تعالى صفة الكفرة فى افتراءاتهم ومــزاعمهم الكاذبــة انتقل إلى صورة أخرى من استكبارهم وصَلَفهم ســخريةً واسـتهزاءً بــأمر البعث ، واستعجالهم وقوعه فحكى عنهم قولهم : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ وهذه الجملة يجوز أن تكون حالاً من ضمير " الخرَّاصون " ، وهى على هذا لا تحتاج إلى الواو لربط الفعل " يسئلون " بالفعل فى جملة " قُتِلَ الخرَّاصون" قال الإمام عبد القاهر – رحمه الله (١) – " اعلم أنَّ كلَّ جملة وقعت حــالاً ، ثم امتنعت من الواو ، فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع فى صــدرها فضممته إلى الفعل الأول فى إثبات واحد " .

ويجوز أن تكون جملة " يسئلون " مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشــئاً عــن جملة " قُتِلَ الخرَّاصون " لأن هذه الجملة أفادت تعجيباً من ســوء عقــولهم وأحوالهم فهو مثار سؤال فى نفس السامع يتطلَّب البيــان ، فأجيــب بــأنهم يسألون عن يوم الدِّين سؤال متهكِّمين ، يعنون لا وقوع ليوم الدِّين " (٢) .

وقد بيَّن الإمام عبد القاهر سرُّ ترك العطف فى الاســتئناف بقولــه : " وههنا أمرٌ يوجب الاستئناف وترك العطف ، وهو أنَّ الحكاية عنهم بأنهم – يسئلون – تُحرِّك السامعين لأن يعلموا مصير أمرهم وما يصنع بهم ، وأتنزل بهم النِّقمة عاجلاً أم لا تنزل ويُمْهلون ، وتُوقِع فى أنفسهم التَّمنى لأن يتبــيَّن لهم ذلك ، وإذا كان كذلك ، كان هذا الكلام – يسئلون – فى معنى ما صــدر

---

(١) دلائل الإعجاز /٢١٣ ت الشيخ شاكر .

(٢) التحرير والتنوير ٣٤٤/٢٦ بتصرُّف .

جواباً عن هذا المقدَّر وقوعه فى أنفس السَّامعين ، وإذا كان مصدره كذلك ، كان حقُّه أن يؤتى به مبتدأ غيرَ معطوف ، ليكون فى صورته إذا قيل : فما حال هؤلاء الخراصين . قيل : - يسئلون - إلخ " (١) .

والسؤال هنا : ليس على طريق الاستعلام حقيقة بل على سبيل الاستعجال يقولونه استهزاءً وتكذيباً متى يوم الحساب والجزاء ؟ والتعبير بالفعل المضارع فى قوله : يسئلون " دلالة على تحدُّد السؤال منهم وحدوثه شيئاً فشيئاً ووقوعه الفينة بعد الأخرى ، إذ كانوا يسئلون عن ذلك تهكُّماً وسخرية .

وقوله : ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ معمول لقوله : " يَسْأَلُونَ " على أنه جارٍ مجرى يقولون ، لما فيه من معنى القول ، أو لقول مقدَّر . أى فيقولون : متى وقوع يوم الجزاء ، وقُدِّر الوقوع ليكون السؤال عن الحدث كما هو المعروف فى - أيَّان - " (٢) . و " أيَّان " يسأل بها عن الزمان وهى فيه بمنزلة " متى " إلا أن الأخيرة أشهر منها ، وفى " أيَّان " تعظيم ، وهى هنا للاستفهام الذى أريد به الاستبعاد لا التفخيم ، لأن هؤلاء سألوا عن " يوم الدِّين " على سبيل التكذيب والاستهزاء ، ولا يكون سؤالهم كذلك إلا إذا كانوا مستبعدين وقوعه .

---

(١) دلائل الإعجاز /٢٣٥ بتصرف ت شاكر .

(٢) من الأسماء المضمنَّة معنى الاستفهام /١٤٨ د أحمد ناجى .

وذكر العلاَّمة أبو السعود : " أنَّ – أيَّان – ظرف زمان متضمِّن لمعنى الاستفهام ، ويليه المبتدأ والفعل المضارع دون الماضى بخلاف – متى – حيث يليها كلاهما " (1) .

وهو رأىٌ قوىٌّ يسانده استعمال القرآن الكريم ، وآراء العلماء فيها وفى تركيبها " (2) .

وقد جعل الدكتور صبَّاح دراز : الاستفهام هنا من قبيل الإنكار بغير الهمزة لمجيئه بأيَّان بعد الفعل " يسأل " الحالى عرضاً وتعجيباً من هذا السؤال ، وأنها تفيد التفخيم فى أساليب قوّية غاضبة ، وأنها جاءت فى سُّور مكيَّة وجاء كثيراً فى الأساليب القصيرة أو الجمل القصيرة المحتدمة المشعَّة بعديد من الانفعالات – كما هنا – ثم إن إنكار الوقت فى – أيَّان – يعنى على طريق الكناية إنكار الحدث الواقع فيه وهو البعث يستوى فى ذلك السؤال بأيَّان أو متى ، وهى أسئلة تمثِّل نهاية الاستبعاد والسخرية الهازئة والإنكار العنيد والاستعجال الهازل " (3) ثم يقول أيضاً : " وفى آيات الذاريات سبقها بدء السورة أربعة أقسام ببعض مخلوقاته البديعة المدبَّرة بقدرة وعلم ، وعلى وقوع يوم الدِّين ، وقد بدأ بالدُّعاء عليهم – على النَّهج العربىِّ – ووصفهم بالخرص كناية عن الكذب اللازم لهم ، ثم بيَّن أنهم فى غمرة الجهل

---

(1) تفسير أبى السعود ٣/٣٠٠ .

(2) ينظر البرهان فى علوم القرآن ٤/٢٥١ ، تأويل مشكل القرآن /٥٢٢ ، مفتاح العلوم /١٤٨ ، الكشاف ٢/١٣٤ ، شروح التلخيص ٢/٢٨٧ ، بغية الإيضاح ٢/٤٣ .

(3) الأساليب الإنشائية /١٧٠ وما بعدها بتصرُّف .

والضّلال ساهون غافلون وقولهم أيّان ليس ظرفاً لليوم بل هو ظرف للحدث عن السؤال يوم هم على النّار يفتنون : أى يحرقون ويعذّبون " (١) .

ويجوز أن تكون جملة " أيّان يوم الدّين " بدلاً من جملة " يسـألون " ، والغرض من ذلك تفصيل إجماله وهو من نوع البدل المطابق – بدل الكلّ من الكلّ – ويراد به البدلُ المطابقُ للمبدل منه المساوى له فى المعنى " (٢) .

و " أيّان " كما هو معلوم ممّا سبق اسم استفهام عـن زمـان الفعـل مع التفخيم والتّعظيم ، وهى هنا فى محل نصب على الفتح ، أى متى يـوم الدّين ؟

و " يوم الدّين " زمان فالسؤال عن زمانه آيل إلى السـؤال باعتبـار وقوعه فالتقدير : أيّان وقوع يوم الدّين أو حلوله ؟ كما يقـال : متـى يـوم رمضان ؟ أى متى ثبوته ؟ لأنَّ أسماء الزمان حقُّها أن تقع ظروفاً للأحـداث لا للأزمنة " (٣) .

ويرى الألوسي أنه : " لا ضير فى جعل الزمان زمانياً فإن اليوم لمّـا جعل موعوداً منتظماً صار ملحقاً بالزمانيات ، وهذا جارٍ فى عرف العـرب والعجم " (٤) . والتعبير بـ " يوم الدّين " دون يوم القيامة . كأنّهم لمّا أخبروا أنّ الجزاء والحساب ، والثواب والعقاب لمّا كان فى هذا اليوم ، وما الدّين إلا قائم على هذه الأسس من حيث العبادات والمعاملات ، وهى ما يترتّب عليها الجزاء والحساب والثواب والعقاب فى هذا اليوم صحّ أن يعبّر عنه بهذا ردّاً

---

(١) السابق /١٧٤ .

(٢) شرح ابن عقيل ٢/٢٢٧ ت الشيخ محمد محيى الدّين ، التحرير والتنوير ٢٦/٣٤٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/٣٤٥ .

(٤) روح المعانى ٢٧/٦ ، ٧ .

على استهزائهم بهذا الدِّين فى الدُّنيا ، وتعريض بحالهم وأمرهم الذى كانوا عليه .

جواب سؤالهم والردُّ على صلفهم وتهكُّمهم :

لمَّا سألوا عن زمن وقوع الجزاء متى يحل بساحتهم ؟ فأجيبوا بقوله تعالى ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ جواباً لسؤالهم ، أى : يقع يومَ هم على النَّار يحرقون ويعذَّبون ، وهذا من قبيل الأسلوب الحكيم " وهو تلقِّى السائل بغير ما يتطلُّب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله والمهمُّ له " (١) . وقد أراد هؤلاء الخرَّاصون التهكُّم والتَّكذيب والإحالة فتُلُقِّى كلامهم بغير مرادهم لأن فى الجواب ما يشفى وقع تهكُّمهم ، والمعنى : يوم الدِّين يقع يوم تَصْلَوْن النَّار ويقال لكم : ذوقوا فتنتكم ، " ويومَ " منصوب على الظرفية لمحذوف دلَّ عليه وقوع الكلام جواباً لسؤال مضاف للجملة الإسمية بعده أى يقع يومَ الدِّين يومَ هم على النَّار " (٢) .

قال الشيخ زاده موضِّحاً كون قوله تعالى : ﴿ يومَ هم ﴾ إلخ جوابَ سؤالهم : " أى جواب على منوال سؤالهم فكما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب للعلم كذلك لم يجابوا جواب معلم مبين لأنَّ جهلهم باليوم الذى يحرقون فيه بالنَّار أقوى من جهلهم بيوم الدِّين ، وما هو أخفى من المسؤول عنه ، كيف يصحُّ أن يكون جواباً عنه فإنهم لمَّا قصدوا بما ذكروه فى صورة

---

(١) المفتاح /١٥٥ ، ١٥٦ ، الإيضاح ٩٤/٢ ت د خفاجى ، بغية الإيضاح ١٨٦/١ ، ١٨٧ ، المطول /١٣٦ .

(٢) روح المعانى ٧/٢٧ .

الاستفهام الاستهزاء بما أوعدوا به قوبلوا بما هو فى صورة الجزاء إهانة لهم وتحقيراً " (١) .

ومن النحاة مَنْ يرى أنَّ قوله : " يومَ هم " بدل من قوله : " يوم الدِّين " فيكون هذا حكاية من كلامهم على المعنى ، ويقولون ذلك على سبيل الاستهزاء ، ولو حكى لفظ قولهم لكان التركيب : يوم نحن على النَّار نفتن ذوقوا فتنتكم ، أى يقال لهم ذوقوا " (٢) ، وقد وسم الألوسى رأى النحاة وتقديرهم السَّابق بالبعد (٣) .

قال – رحمه الله – : " وقال الزَّجاج : " يوم " ظرف لمحذوف وقع خبراً لمبتدأ كذلك أى هو واقع ، أو كائن يوم إلخ ، وجُوِّز أن يكون هو نفسه خبر مبتدأ محذوف ، والفتحة فتحة بناء لإضافته إلى غيره ، وهى الجملة الإسمية فإن الجمل بحسب الأصل ، أى – هو يوم هم – إلخ فالضَّمير قيل : راجع إلى وقت الوقوع فيكون هذا الكلام قائماً مقام الجواب ، لأن تقدير السؤال فى أىِّ وقت يقع ؟ وجواب الأصلى . فى يوم كذا ، وإذا قلت : وقت وقوعه يوم كذا كان قائماً مقامُه ، ويجوز أن يكون الضَّمير لليوم والكلام جواب بحسب المعنى ، فالتقدير : يوم الجزاء يوم تعذيب الكُفَّار ، ويؤيِّد كونه مرفوع المحلِّ خبراً لمبتدأ محذوف قراءةُ ابن أبى عبلة ، والزَّعفرانى – يومُ هم – بالرفع " (٤) .

---

(١) حاشية الشيخ زاده ٣٩٢/٤ .

(٢) البحر المحيط ١٣٥/٨ ، شروح التلخيص ٤٨٢/٢ .

(٣) روح المعانى ٧/٢٧ .

(٤) السابق نفسه .

والتَّعريف بضمير الغائب " هم " لسبق الحديث عنهم فى قوله : " الذين هم فى غمرة ساهون " فكأنه " يريد أن يقصر الحديث عليهم ومَنْ ينهج نهجهم فهؤلاء هم المختصُّون بالعذاب والإحراق ، والتَّعبير بحرف الجرّ " على " لاعتلائهم النَّار حتى صارت من العلوّ بمكان فهم يعتلونها حتى صارت مطيّة لهم ، إذ القياس أن يقال : - يوم هم فى النَّار - ، ولكن لما اعتلوا النَّار وأصبحت مطيّة لهم عُبِّر عن ذلك بحرف الجرّ " على " على سبيل الاستعارة التَّصريحية التبعية ، أو أن الفعل " يفتنون " عُدِّى بـ " على " لتضمنُه معنى يعرضون كما قال تعالى فى حقّ آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ([1]) .

و " يفتنون من - الفتن - ، وأصله إذابة الجوهر ليظهر غشُّه ثم استعمل فى الإحراق والتَّعذيب من قبيل الاستعارة فى الفعل .

قال الرَّاغب : " أصل الفتْن إدخال الذهب النَّار لتظهر جودته من رداءته واستعمل فى إدخال الإنسان النَّار ([2]) " ، وما تعذيبهم بالنَّار وإحراقهم فيها إلا لتكذيبهم واستهزائهم . وهذان هما السبب الرئيس فى تعذيبهم وإحراقهم .

ثم يقول الرَّاغب أيضاً : " وجُعلتْ الفتنة كالبلاء فى أنهما يستعملان فيما يُدْفَعُ إليه الإنسانُ من شدَّة ورخاء وهما فى الشدَّة أظهر معنى وأكثر استعمالاً " ([3]) . فعذابهم وإحراقهم بلاءٌ من الله لهم يبتليهم به نظير تكذيبهم واستهزائهم ، وشدَّةٌ تحيط بهم لقاءَ كفرهم وجهلهم ، وقد استعمل الفتن فى

([1]) غافر /٤٦ .

([2]) المفردات /٣٧١ مادة فتن .

([3]) السابق /٣٧٢ .

الآية كناية عن الإحراق الشديد والعذاب المهين نكالاً لهم وإهانة لكرامتهم المزعومة .

المبالغة فى الإهانة وإضاعة الكرامة :

قال تعالى موبِّخاً لهم ومقرِّعاً : " ذوقوا فتنتكم " ، وهذه الجملة مقول قول محذوف دلَّ عليه الخطاب ، أى يقال لهم حينئذ ، أو قولاً لهم ذوقوا فتنتكم أى عذابكم ، والأمر فى قوله : " ذوقوا " مستعملٌ فى التنكيل والإهانة والتَّهكُّم كما قال تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (١) .

و – الذَّوق – فى الآية استعارة استعير للإحساس القوىِّ لأن اللسان أشد الأعضاء إحساساً وتأثُّراً ، وهو دائرة المرور لأعضاء الجسم كلها . وفى قوله : " ذوقوا فتنتكم " استعارة مكنية . شُبِّه العذابُ بطعام يؤكل ثم حذف المشبه به واستعير له شئٌ من لوازمه وهو الذَّوق . " والمراد بالذَّوق هنا ديمومته مع ما يصحبه من الاستكراه والألم الذى لا يوصف ، ولا مرية فى أنَّ استمرار ذوق العذاب مع بقاء الأبدان حيَّة ومصونة فيه ما فيه من استبعاد لكلٍّ ما قد يخطر على البال من توهُّم زوال العذاب وألمه ، ناهيك بما لحاسة الذَّوق من أثر فى نفس المحترق بالنَّار " (٢) .

قال الألوسي : " وقد يُسمَّى ما يحصل عنه العذاب – كالكفر – فتنة ، وجُوِّز أن يكون منه ما هنا كأنه قيل : ذوقوا كفركم – أى جزاء كفركم – أو يجعل الكفر نفس العذاب مجازاً " (٣) ، وجملة " هذا الذى " من مبتدأ وخبر

---

(١) الدُّخان / ٤٩ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٢٣٩/٢ .

(٣) روح المعانى ٧/٢٧ .

داخلة تحت القول المضمر – أى هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء .

وجوَّز العلاَّمةُ الزمخشريُّ كونه بدلاً من " فتنتكم " : أى ذوقوا هذا العذاب ([1]) "

وقدَّر الطبريُّ القول المحذوف فى الآية بقوله : " يعنى تعالى ذكره بقوله – ذوقوا فتنتكم – وترك يقال لهم لدلالة الكلام عليها ، ويعنى بقوله – فتنتكم – عذابكم وحريقكم ، يقال لهم هذا العذاب الذى توفونه اليوم هو العذاب الذى كنتم به تستعجلون فى الدُّنيا " ([2]) .

سرُّ إضافة الفتنة إليهم :

قال سماحة الشيخ الطَّاهر ابن عاشور : " وإضافة – فتنة – إلى ضمير المخاطبين يومئذ من إضافة المصدر إلى مفعوله ، وفى الإضافة دلالةٌ على اختصاصها لهم لأنهم استحقُّوها بكفرهم ، ويجوز أن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى فاعله ، والمعنى : – ذوقوا جزاء فتنتكم – قال ابن عبَّاس : أى تكذيبكم " ([3]) .

ثم يقول – رحمه الله – : " ويقوم من هذا الوجه أن يجعل الكلام موجَّهاً بتذكير المخاطبين فى ذلك اليوم ما كانوا يفتنون به المؤمنين من التَّعذيب مثل ما فتنوا بلالاً وخبَّاباً وعمَّاراً وسُميَّة وغيرهم ، أى هذا جزاء

([1]) الكشاف ١٥/٤ .

([2]) جامع البيان ١٢١/٢٦ .

([3]) التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٦ .

فتنتكم ، وجعل المذوق فتنتهم إظهاراً لكونه جزاءً عن فتنتهم المؤمنين ليزدادوا ندامة ، وإطلاقُ اسم العمل على جزائه واردٌ في القرآن كثيراً " (١).

مرجع الإشارة في " هذا " الإشارة فيه إلى جزاء الذين يكْذبون في أعمالهم لما يتداخلهم من الرياء ، ويكذبون في أحوالهم لما يتداخلهم من الإعجاب ، ويكذبون على الله فيما يدَّعونه من الأحوال . قُتِلوا ولُعِنوا ، وسيلقون غِبَّ تلبيسهم بما يحرمون من اشتمام رائحة الصِّدق " (٢) .

فالإشارة في قوله : " هذا الذى " إلى الشئ الحاضر نُصبَ أعينهم وهو العذاب والإحراق بالنَّار ، وتعريف المسند إليه بالاسم الموصول " الذى " للإيماء ، والإشارة إلى معرفة الخبر ، والتعبير بـ " كنتم " الماضي للحديث عنهم في الدنيا من حيث استعجالهم العذاب ولتحقُّق هذا الاستعجال منهم ووقوعه ، وفي التعبير بالفعل المضارع " تستعجلون " لاستحضار صورتهم العجيبة في استعجالهم ذلك ، وللدلالة على تجدُّد الاستعجال وحدوثه منهم إذ كان يقع منهم دائماً على سبيل الاستهزاء والاستكبار والتَّعنُّت .

قال الإمام الفخر – رحمه الله – : " فإن قيل : فإذا جعل – يوم هم على النَّار يفتنون – مقولاً لهم – ذوقوا فتنتكم – فما قوله : – ها الذى كنتم به تستعجلون – ؟ قلنا يحتمل أن يكون المراد كنتم تستعجلون بصريح القول كما في قوله تعالى حكاية عنهم ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (٣)، وقوله : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ (٤) إلى غير ذلك يدلُّه عليه ههنا قوله تعالى :

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٣٤٦ .

(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٣/٤٦٢ .

(٣) ص / ١٦ .

(٤) جزء آية /٣٢ سورة هود .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ فإنه نوع استعجال ، ويحتمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل وهو الإصرار على العناد وإظهار الفساد فإنه يعجِّل العقوبة " (١) ، والمراد من قوله تعالى : ﴿ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ كنتم تطلبون تعجيله فمجئ السِّين والتَّاء فى الفعل للطلَّب ، والمعنى كنتم فى الدُّنيا تسألون تعجيله ، وهو طلب يريدون به أنَّ ذلك محال غير واقع وبعيد لا يحصل وقد حكى القرآن فى مواطن كثيرة استبطاءهم العذاب ونزوله ، ولهذا كانت هذه الجملة استئنافاً مراداً به التَّوبيخ وتعديد المجارم ، وهى من مقول القول – كما ذكرنا سابقاً – ، ومن هنا فصلت عن قوله : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ لشبه كمال الاتِّصال كأنه قيل : لِمَ قيل لهم ذلك ؟ فقال: ﴿ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى إن استعجالكم سبب فى ذوقكم العذاب .

---

(١) التفسير الكبير ٢٠٠/٢٨ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٢/٤ .

المبحث الثانى

" جزاء المتَّقين ، وبيان آيات الله فى الأنفس والآفاق""

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ... * .... تَنطِقُونَ ﴾ الآيات / ١٥ – ٢٣ .

النظم البلاغي في الآيات : لمّا ذكر تعالى شأن الكفار في اختلافهم واستهزائهم وكذبهم وتكذيبهم للرسول والقرآن واستعجالهم العذاب ، وبيَّن حالهم وما أُعدَّ لهم في الآخرة ، أخذ يبيّن أحوال المتّقين وما أعد لهم ، ولذا قيل : وبضدّها تتميّز الأشياء – وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ إلخ جملة اعتراضية قابل بها الله تعالى حال المؤمنين في يوم الدّين جرياً على عادة القرآن في إتباع النِّذارة بالبشارة ، والتّرهيب بالتّرغيب .

ولمّا كان قوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ إلخ في مقابلة حال الكفّار وتعذيبهم بدأ الله تعالى الحديث عن حال المتّقين بحرف التوكيد " إنّ " حتى لا يشكُّ أحدٌ في جزاء هؤلاء المتّقين ، ولمّا كان المشركون يتهكّمون بالمؤمنين ويستهزأون بالجزاء المنتظر لهؤلاء المتّقين في قولهم : أين جنّتكم التي يعدكم محمد – ﷺ – بها ؟ كما كانوا يقولون كما حكى القرآن عنهم : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ (١) ؟ فأراد الله أن يبيّن لهؤلاء المنكرين على المؤمنين جزاءَ (٢) الله لهم حال (٣) ما يئول إليه المتّقون في الآخرة .

وتعريف المسند إليه " المتّقين " بأل الجنسية لإرادة استغراق جميع أفراد المتّقين ، فالتعريف إذاً يفيد العموم والشمول لجميع المتقين ، وقد أفادت " أل " في " المتّقين " القصر ، وذلك لأنه إن أريد بـ " أل " جميع أفراد الجنس كان المعنى : إنّ جميع الأفراد محصورون في ذلك الفرد بحيث لا

---

(١) يس / ٤٧ .

(٢) منصوب على المفعولية لقولنا المنكرين " اسم الفاعل " .

(٣) منصوب على المفعولية للفعل يبيّن .

يوجد منها شئ فى غيره ، وذلك هو القصر ، وإن أريد الحقيقة صار المعنى : إن حقيقة الجنس متحدة بذلك الفرد ، وذلك كالتعريف مع المعرَّف ، فلا توجد تلك الحقيقة فى غير هذا الفرد لعدم صحة وجودها فى فرد آخر فلا توجد بدونه ولا يوجد هو بدونها .

و " المتَّقين " جمع مُتَّقٍ اسم فاعل من : وقاه الله ، وهو فى اللغة من الوقاية وهى حفظ الشئ ممَّا يؤذيه ويضرُّه ، والتَّقوى جعل النفس فى وقاية ممَّا يُخَاف ، وفى عرف الشرع : حفظ النفس عمَّا يُؤْثِمُ وذلك بترك المحظور ، ويتمُّ ذلك بترك بعض المباحات " (١) .

والمادة تطلق على الصيانة والحجز بين الشيئين ، وهى هنا مرادٌ بها صيانةُ النفس عمَّا يضرُّها ، روى التِّرمذىُّ عن عطية السَّعدىِّ من صحابة رسول الله - ﷺ - قال ، قال رسول الله - ﷺ - : " لا يبلغ العبد أن يكون من المتَّقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس " (٢) .

وقيل : التَّقوى أن لا يراك مولاك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك . وقوله :﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ بحرف الجرّ "فى" للدلالة على تمكُّنهم فى هذه الجنَّات، واستقرارهم فيها ، وأنهم تمكنَّوا منها تمكُّن الظَّرف من المظروف ينعَّمون ويخلَّدون فيها وهذا جزاء ما قدَّموا لها من غالى المهور من الأموال والمهج.

قال الإمام الفخر : " قد ذكرنا أنَّ المتَّقى له مقامات أدناها أن يتَّقى الشِّرك ، وأعلاها أن يتَّقى ما سوى الله ، وأدنى درجات المتَّقى الجنَّة ، فما من مكلَّف اجتنب الكفر إلاَّ ويدخل الجنَّة فيرزق نعيمها " (٣) .

---

(١) المفردات / ٥٣٠ ، ٥٣١ مادة " وقى " بتصرُّف .

(٢) عارضة الأحوذى بشرح الترمذى ٢٧٨/٩ ك صفة القيامة .

(٣) التفسير الكبير ٢٠١/٢٨ .

وجاء قوله : " جنَّات " نكرة وجمعاً . أما مجيئها نكرة فللتفخيم والتعظيم ، والتَّشريف أى : جنَّات لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها أى فى بساتين وأنهار لا يحيط بوصفها واصف ، ولا محدِّث كاشف . " ويجوز أن يكون للتكثير كما فى قوله : – إنَّ له لإبلاً وإنَّ له لغنماً ، والعرب تُسمَّى النخيل جنَّة " (١) .

وأمَّا حكمة الجمع فلأنها بالنسبة إلى الدُّنيا ، وبالإضافة إلى جنَّاتها جنَّات لا يحصرها عدد ، وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أنَّ الزيادة فى الوعد موجودة ، والخلاف ما لو وعد بجنَّات ، ثم كان يقول إنه فى جنَّة لأنه دون الموعود " (٢) .

وقوله : " وعيون " معطوف على قوله : " جنَّات " والمراد : فى خلال الجنَّات عيون جارية تجرى فيها و " فيه إشارة إلى جواب ما يقال كيف قال : إن المتُقين فى عيون مع أنهم لم يكونوا فيها ؟ وإيضاح الجواب إنها تجرى فيها وتكون فى جهاتهم وأمكنتهم فيها " (٣) . فهؤلاء المتَّقون فى عاجلهم فى جنَّات وَصلِهم ، وفى آجلهم فى جنَّات فَضلِهم ، فغداً درجاتٌ ونجاةٌ ، واليوم قُرُباتٌ ومناجاةٌ فما هو مؤجَّلٌ حظُّ أنفسهم ، وما هو مُعجَّلٌ حقُّ ربِّهم .

وقوله : " فى عيون " يقتضى أن يكون المتَّقى فيها ولا لذَّة فى كون الإنسان فى ماءٍ أو غير ذلك من المائعات ، نقول معناه فى خلال العيون ، وذلك بين الأنهار بدليل أنَّ قوله تعالى : – فى جنَّات – ليس معناه إلاَّ بين

---

(١) تفسير روح البيان ١٥٣/٩ .

(٢) التفسير الكبير ٢٠١/٢٨ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٢٨٧/٧ .

جنَّات وفى خلالها لأنَّ الجنَّة هى الأشجار والأنهار والمنازل ، وإنما يكـون بينها كذلك القول فى العيون والتَّنكير مع أنَّها معرَّفة للتَّعظيم " (١) .

تشويق الأسماع وجذب الانتباه : قال تعالى فى حقِّ هؤلاء المتقـين : ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ والجملة حال من الضَّمير المستكِّن فى خبر " إنَّ " أى استقرُّوا راضين بما أعطاهم مسرورين به ، قابلين لما أعطاهم من النعيم الأخروى راضين به ، على معنى إنَّ كلَّ ما آتاهم حسنٌ مرضىٌّ يُتلقَّى بحسن القبول ، فهؤلاء المتَّقون كائنون فى جنَّات وعيون حال كونهم آخذين ما آتاهم ربُّهم أى : راضين به ومسرورين ومتلقِّين له بالقبول (٢) .

قال الشيخ الطَّاهر ابن عاشور : " ومعنى – آخذين ما آتاهم ربُّهم – : أنهم قابلون ما أعطاهم ، أى راضون به ، فالأخذ مستعمل فى صريحه وكنايته كنايةً رمزية عن كون ما يؤتونه أكمل فى جنسه لأنَّ مدارك الجماعات تختلف فى الاستجادة حتى تبلغ نهاية الجودة فيستوى النَّاس فى استجادته ، وهى كناية تلويحية " (٣) ثم يقول أيضاً : " فالأخذ مستعمل فى حقيقته ومجازه لأن ما يؤتيهم الله بعضهم ممَّا يتناول باليد كالفواكه والشراب والرياحين ، وبعضه لا يتناول باليد كالمناظر الجميلة والأصوات الرقيقة والكرامة والرضوان ، وذلك أكثر من الأول ، فإطلاق الأخذ على ذلك استعارة بتشبيه المعقول بالمحسوس ، فاجتمع فى لفظ – آخذين – كنايتان

---

(١) التفسير الكبير ٢٠١/٢٨ .

(٢) ينظر الكشاف ١٥/٤ ، تفسير البيضاوى ١٨١/٥ ، حاشية الجمل ٢٨٧/٧ ، روح المعانى ٧/٢٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٤٧/٢٦ بتصرُّف .

ومجاز " (1) . والمراد : الاستعارة المكنية بتشبيه الأخذ وهو معقول بشئ محسوس يؤخذ ، والكناية عن المنح إلخ .

والتعبير باسم الفاعل " آخذين " للدلالة على ثبوت الأخذ وديمومته فإعطاء الله لهم لا ينقطع فهو دائم متصلٌ لا يحول ولا يزول وهم يتلَّقون ذلك العطاء بالرضا و " ما " نكرة مرادٌ بها التَّعظيم والعموم والكثرة . إذ المراد هنا مدح هذا المأخوذ ، وإظهار منَّة الله تعالى على هؤلاء المتَّقين ، واعتبار الرِّضا لأن الأخذ قبول عن قصد ورغبة وحبٌ فى الزيادة مع الحمد والشُكر والذِّكر . والتعبير بلفظ " الرَّبِّ " فى قوله : " ما آتاهم ربُّهم " ولم يقل : – ما آتاهم الله – وإضافة الربِّ إلى ضمير " المتَّقين " للدلالة على اختصاصهم بالكرامة والإيماء إلى أن سبب ما آتاهم هو إيمانهم بربوبيته المختصَّة بهم وهى المطابقة لصفات الله تعالى فى نفس الأمر " (2) .

المهرُ الذى دفعه المتَّقون لنيل الجنَّات :

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ هذه الجملة تعليل لما ذكر من جزاءٌ هؤلاء المتَّقين . فكان قوله ذلك جزاء لاستحقاقهم الفوز بالجنة وعيونها ، فقد ذكرت الآية الثَّمن الذى دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم . قال سبحانه : " إنه " إلخ ، والمراد : إنَّهم كانوا فى دار الدُّنيا يفعلون صالح الأعمال خشيَّة من ربِّهم وطلباً لرضاه ، ومن ثمَّ نالوا هذا الفوز العظيم ، والمكرمة التى فاقت ما كانوا يؤمِّلون ويرجون " (3) .

---

(1) السابق نفسه .

(2) التحرير والتنوير ٣٤٨/٢٦ .

(3) تفسير المراغى ٢٨٦/٩ .

وفائدة مجئ الظَّرف فى قوله : " قبل ذلك " أن يؤتى بالإشارة إلى ما ذكر من الجنَّات والعيون وما آتاهم ربُّهم ممَّا لا عينُ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فيحصل بسبب تلك الإشارة تعظيم شأن المشار إليه ، ثم يفاد بقوله : " قبل ذلك " أى قبل التنُّعم به أنهم كانوا محسنين ، أى فاعلين للحسنات ، فالمعنى : إنهم كانوا فى الدُّنيا مطيعين لله تعالى واثقين بوعده ولم يروه " (1) .

والتعبير باسم الإشارة البعيد " ذلك " لبعد العهد بينهم وبين الدُّنيا التى كانوا يحسنون فيها ، لأن الجزاء الذى وعدوا به إنما هو فى الآخرة حيث الجنَّات والعيون ، والتَّعبير باسم الفاعل " محسنين " للدلالة على ثبوت صفة الإحسان ، وملازمتهم لها فى الدُّنيا واستمرارية ذلك منهم فى حياتهم الماضية.

وللإمام الفخر تناول حسن في الآية حيث قال : " وحينئذ فائدته بيان أن دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو ضعف يستردُّ منه ذلك ، بل هو ملكه الذى اشتراه بماله ونفسه من الله تعالى ، وقوله : آتاهم – يكون لبيان أنَّ أخذهم ذلك لم يكن عنوة وفتحاً ، وإنما كان بإعطاء الله تعالى ، وعلى هذا الوجه – ما – راجعة إلى الجنَّات والعيون ، وقوله : إنَّهم كانوا قبل ذلك محسنين – إشارة إلى ثمنها أى أخذوها وملكوها بالإحسان ، كما قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى ﴾ (2) بلام الملك وهى الجنَّة (3) " .

---

(1) التحرير والتنوير ٣٤٨/٢٦ .

(2) يونس /٢٦ .

(3) التفسير الكبير ٢٠١/٢٨ ، ٢٠٢ .

أوصاف الإحسان التى اتَّصفوا بها :

قال تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ، هذه الآية بدل من قوله : ﴿ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ ، ومن هنا فصلت عنها لكمال الاتِّصال " وذلك لكونها أدلُّ على الغرض ، وأوفى بالمطلوب من جهة ، وللعناية بشأنها من جهة أخرى (١) " ، والبدل فى الآية بدل بعض من كلٍّ لأن هذه الخصال هى بعض من الإحسان فى العمل ، وهذا كالمثال لأعظم إحسانهم فإنَّ ما ذكر من أعمالهم دالٌّ على شدَّة طاعتهم لله ابتغاءَ مرضاته ببذل أشدَّ ما يبذل على النفس وهو شيئان : أولهما : راحة النَّفس فى وقت اشتداد حاجتهم إلى الرَّاحة وهو الليل كلُّه وخاصةً آخره إذ يكون فيه قائمُ الليل قد تعبَ واشتدُّ طلبه للراحة . وثانيهما : المال الذى تشحُّ به النفوس غالباً ، وقد تضمنَّت هذه الأعمال الأربعة أصلىْ إصلاح النَّفس وإصلاح النَّاس ، وذلك جماعُ ما يرمى إليه التَّكليف من الأعمال فإن صلاح النفس فى تزكية الباطن والظَّاهر ففى قيام الليل إشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضا الله تعالى ، وفى الاستغفار تزكية الظَّاهر بالأقوال الطيبة الجالبة لمرضاة الله عزَّ وجلَّ ، وفى جعلهم الحقَّ فى أقوالهم للسائلين نفعٌ ظاهرٌ للمحتاج المظهر لحاجته ، وفى جعلهم الحقَّ للمحروم نفعُ المحتاج المتعفِّف عن إظهار حاجته الصَّابر على شدَّة الاحتياج (٢) " .

والتعبير بالفعل الماضى " وكانوا " للدلالة على تحقُّق وقوع ذلك منهم فى الدُّنيا . مع مضيِّهم على ذلك إذ كان عادة لهم وهذا دأبهم وما تعوَّدته نفوسهم . والتعبير بضمير الجمع دون ذكرهم بالصِّفة الظاهرة " المتَّقين "

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعانى /٤٠٨ د فضل عباس .

(٢) التحرير والتنوير ٣٤٨/٢٦ ، ٣٤٩ .

التى وصفوا بها فى أول الحديث عنهم من وضع المضمر موضع المظهر ليتمكَّن ما يعقب الضَّمير – أى يجئ على عقبه – فى ذهن السَّامع ، لأن السَّامع إذا لم يفهم من الضَّمير معنىً انتظر ما يعقب الضَّمير ليفهم منه معنىً ، فيتمكن بعد وروده فضلَ تمكُّن لأن الحاصل بعد الطَّلب أعزُّ من المنساق بلا تعب (١) " .

وجاءت هذه الآية تفضيلاً لإحسانهم فَبُيِّن هذا الإحسان بقيام الليل إلخ فقال تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً ﴾ إلخ .

والتَّعبير بلفظ القلَّة لبيان الحالة التى كان عليها هؤلاء المحسنون المتَّقون .

قال الطبرىُّ : " اختلف أهل التأويل فى قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ قال بعضهم : معناه كانوا قليلاً من الليل لا يهجعون ، وقالوا – ما – بمعنى الجحد ذكر مَنْ قال ذلك عن قتادة عن أنس بن مالك : كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون قال : يتيقظون يصلون ما بين هاتين الصَّلاتين ما بين المغرب والعشاء ، وقيل : كانوا لا ينامون حتى يصلُّوا العتمة ، وقد ذكرت فى ذلك أقوال كثيرة (٢) " .

و" قليلاً " ظرف زمان متعلّق بالفعل " يهجعون " أو هو صفة لمفعول مطلق محذوف أى : يهجعون هجوعاً قليلاً ، والمراد : يهجعون فى طائفة قليلة كائنة من الليل ، وهذا من باب المجاز العقلّى لعلاقة الزَّمانية على حدّ قوله : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (٣) وقوله : " من الليل " صفة لقوله :

---

(١) تهذيب السعد التفتازانى ١/١٤٩ ت الشيخ محمد محي الدين .

(٢) جامع البيان ٢٦/١٢٢ ، ١٢٣ بتصرُّف .

(٣) جزء آية ٣٣ سبأ .

" قليلاً " ، والتعبير بذلك " من الليل " للتذكير بأنهم تركوا النوم في الوقت الذى من شأنه استدعاء النفوس للنوم فيه زيادة في تصوير جلال قيامهم الليل وإلاَّ فإنَّ قوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ يفيد أنه من الليل (١) ".

فقوله : " من الليل " من باب ذكر العامّ وإرادة الخاصّ ، وذلك لأنَّ النوم القليل بالنَّهار قد يوجد من كلّ أحد ، وأمَّا الليل فهو زمان النوم لا يسهره في الطَّاعة إلاَّ متعبّدٌ مُقْبِلٌ ، فإن قيل : الهجوع لا يكون إلاَّ بالليل والنوم نهاراً لا يقال له الهجوع ، قلنا ذِكْرُ الأمر العامّ وإرادة التَّخصيص حسنٌ ، وذِكْرُ الخاصّ وإرادة العامّ لا يحسن إلا في بعض المواضع ، وعلى هذا كان قوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ من ذكر أمرٍ هو كالعامّ يحتمل أن يكون بعده : كانوا من الليل يُسبّحون ويستغفرون أو يسهرون أو غير ذلك ، فلذا قال : يهجعون فكأنَّه خصَّص ذلك الأمر العامَّ المحتمل له ولغيره فلا إشكال فيه " (٢) .

و " ما " زائدة لتأكيد القلَّة . لذلك وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجِّدين ، ويجوز أن تكون " ما " مصدرية في موضع رفع بـ " قليلاً " أى كانوا قليلاً هجوعهم ، ويجوز أن تكون " ما " موصولة وهى عبارة عن المقدار الذى يهجعونه أو فيه و " من " على الموصولية والمصدرية للابتداء " (٣) .

قال القاضي البيضاوى : " وفيه مبالغات لتقليل نومهم واستراحتهم . ذكر القليل والليل الذى هو وقت السُبات والهجوع الذى هو الفرار من النَّوم ،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٩/٢٦ .

(٢) التفسير الكبير ٢٠٤/٢٨ .

(٣) حاشية الشهاب ٩٦/٨ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٢/٤ ، إعراب القرآن وبيانه ٣٠٧/٩ .

وزيادة ما (١) " ووصف الليل بالقلة للإشارة إلى وجه المبالغة في ذكر الليل فإنه إذا قلّت استراحتهم فى وقت الاستراحة تكون استراحتهم فى غاية القلّة لأن النّهار ليس وقتاً لها ، وزيادة " ما " لتأكيد مضمون الجملة التى زيدت هى فيها ، وزيدت هنا فى الجملة للإخبار بها عن قلّة هجوعهم فهى تؤكّد تلك القلّة وتحققُّها فى مادتها ، فتكون من طرق المبالغة فى تقليل نومهم (٢)".

وقوله : " يهجعون " من الهجوع الذى هو الغِرار والإعجام – القليل من النّوم – . والعدول عن أن يقال : كانوا يقيمون الليل ، أو كانوا يُصلّون فى جوف الليل إلى قوله : " قليلاً من الليل ما يهجعون " لأنّ فى ذكر الهجوع تذكيراً بالحالة التى تميل إليها النفوس فتغلبها وتصرفها عن ذكر الله تعالى ، وهو من قبيل قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ (٣) فكان فى الآية إطنابٌ اقتضاه تصوير تلك الحالة ، والبليغ قد يورد فى كلامه ما لا تتوقّف عليه استفادة المعنى إذا كان يرمى بذلك إلى تحصيل صور الألفاظ المزيدة " (٤) ، والتعبير بالفعل المضارع " يهجعون " دلالةٌ على تجدُّد ذلك منهم وحدوثه شيئاً فشيئاً ، كذلك من بلاغة هذه الآية كون الهجوع مقيَّداً بلفظ " قليلاً " للإشارة إلى أن هؤلاء المحسنين لا يستكملون منتهى حقيقة الهجوع بل كانوا يأخذون منه قليلاً ، وفى هذا التعبير " قليلاً " مبالغة فى تقليل هجوعهم لإفادة أنه أقلُّ ما يُهْجَعُهُ الهاجعُ .

---

(١) تفسير البيضاوى ١٨١/٥ ، محاسن التأويل ٣٤٢/١٥ .

(٢) حاشية الشيخ زادة ٣٩٢/٤ .

(٣) السجدة / ١٦ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٤٩/٢٦ .

وبعد أن عرض الطبرىُّ المفسِّرُ – رحمه الله – لأقوال العلماء فى تأويل هجوع هؤلاء المحسنين قليل الليل . قال : " وأولى الأقوال بالصِّحة فى تأويل قوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ قولُ مَنْ قال : كانوا قليلاً من الليل هجوعهم لأنَّ الله تبارك وتعالى وصفهم بذلك مدحاً لهم وأثنى عليهم به ، فوصفهم بكثرة العمل وسهر الليل ومكابدته فيما يقرِّبهم منه ويرضيه عنهم أولى وأشبه من وصفهم من قلَّة العمل وكثرة النَّوم (١) " .

وقد دلَّت الآية على أنهم كانوا يهجعون قليلاً من الليل وذلك إقتداءً بأمر الله تعالى نبيه – عليه السلام – بقوله : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴾ إلخ (٢) .

انتقال إلى وصف آخر من أوصاف المحسنين :

قال تعالى : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ بعد أن ذكر قلَّة هجوعهم من الليل عاد فذكر وصفاً آخر وهو استغفارهم وقت السَّحر ، وهذه الآية معطوفة على قوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ موصولة به مناسبة له من عطف الجمل على الجمل لاشتراك الجملتين فى الخبرية أو الإخبار عن هؤلاء المتَّقين المحسنين . فكما أخبر عن قلَّة هجوعهم أخبر عن هيئة استغفارهم هنا .

وقوله : " وبالأسحار " جارٌ ومجرور متعلِّق بالفعل " يستغفرون " المعطوف على قوله : " ما يهجعون " ، والباء بمعنى " فى " إذا الاستغفار إنما يكون فى هذا الوقت ، ولكن لمَّا كانوا متلبِّسين بالاستغفار فى وقت السَّحر ومصاحبين له عبِّر بالباء التى للملابسة لهذا ، وحروف الجرِّ ينوب

---

(١) جامع البيان ١٢٣/٢٦ ، ١٢٤ .

(٢) المزّمل /٢ ، ٣ .

بعضها مناب بعض إذا أفادت معنى وغرضاً بلاغياً يكون أقوى في أداء المراد منه ، وقُدِّم متعلَّق الخبر على المبتدأ لجواز تقديم العامل ، وقيل : " تقديم الظَّرف – الأسحار – للاهتمام ورعاية الفاصلة (١) " ، و " الأسحار " جمع سحر وهو السدس الأخير من الليل ، وتخصيص هذا الوقت لكونه يكثر فيه أن يغلب النَّوم الإنسان فصلاتهم ، واستغفارهم فيه أعجب من صلاتهم فى أجزاء الليل الأخرى ، وهو وقت الخلوة والصفاء والتقاء الأرض بالسَّماء، وفيه راحة الصَّالحين ودأبهم .

وجمع الأسحار باعتبار تكرار قيامهم فى كلِّ سحر ، ولمَّا ذكر هجوعهم " أتبع ذلك بأنهم يستغفرون فى السَّحر ، أى فإذا آذن الليل بالانصرام سألوا الله أن يغفر لهم بعد أن قدَّموا من التَّهجُّد ما يرجون أن يزلفهم إلى رضا الله تعالى ، وهذا دالٌّ على أن هجوعهم الذى يكون فى خلال الليل قبل السَّحر . فأمَّا فى السَّحر فهم يتهجدُّون ، ولذلك فسَّر ابن عمر ومجاهد الاستغفار بالصلاة فى السَّحر ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (٢) وليس المقصود طلب الغفران بمجرَّد اللسان ولو كان المستغفر فى مضجعه إذ لا تظهر حينئذ مزيَّة لتقييد هذا الاستغفار بالكون فى الأسحار (٣) " .

واختلفت تأويلات المفسِّرين فى معنى استغفارهم بالأسحار ، وخلاصة ما قيل : ما ذكر عن الحسن – رضى الله عنه – أنه قال : " لا ينامون من الليل إلاَّ أقلَّة وربمَّا نشطوا فمدُّوا إلى السَّحر ثم أخذوا فى الأسحار بالاستغفار

---

(١) تفسير روح البيان ١٥٤/٩ .

(٢) آل عمران / ١٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٥٠/٢٦ .

وقال الكلبيُّ ومجاهد ومقاتل : وبالأسحار يُصَلُّون وذلك أنَّ صلاتهم بالأسحار لطلب المغفرة (١) " .

وفي تفسير البيضاوى ما نصُّه : " أى أنهُم مع قلَّة هجوعهم وكثرة تهجُّدهم إذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنَّهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم (٢) ".

وتقديم الضمير " هم " وجعل الفعل " يستغفرون " خبراً عنه يفيد حصر الكلام أى هم الكاملون فى الاستغفار دون غيرهم ، وذلك إنما يكون لوفور علمهم بالله وكمال خشيتهم منه واستغفارهم إمَّا قولىٌّ وإمَّا فعلىٌّ بأن يأتوا بعبادة تؤدى إلى المغفرة .

أو كما قال المفسِّرون : " إنهم هم المستغفرون الأحقَّاء بالاستغفار دون المُصرِّين . فكأنهم المختَصُّون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه ، فتقديم الضمير ، والإخبار عنه بالفعل المفيد للقصر ، فالحصر باعتبار الكمال والأحقِّية لا على طريق الحقيقة (٣) " .

والتعبير عنهم بقوله : " هم يستغفرون " دون أن يقال : وبالأسحار يستغفرون فصيغ استغفارهم بأسلوب إظهار اسم المسند إليه دون ضميره لقصد إظهار الاعتناء بهم وليقع الإخبار عن المسند إليه بالمسند الفعلىِّ فيفيد تقوِّى الخبر لأنه من الندرة بحيث يقتضى التقوية لأن الاستغفار فى السَّحر يشقُّ على مَنْ يقوم الليل لأن ذلك وقت إعيائه ، فكأن الاستغفار كان دأبهم وعادتهم ، وأنهم متمكِّنون منه متلبِّسون به على حدِّ قولهم : " هو يعطى

---

(١) تفسير الخازن وبهامشه البغوى ٢٤٢/٦ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٦/١٧ ، تفسير روح البيان ١٥٤/٩ ، فتح القدير ١٠٤/٥ .

(٢) تفسير البيضاوى ١٨١/٥ .

(٣) الكشاف ١٦/٤ ، تفسير البيضاوى ١٨١/٥ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٢/٤ ، حاشية الشهاب ٩٦/٨ ، تفسير روح البيان ١٥٤/٩ .

الجزيل ، فتُقدّم المسند إليه من أجل تقوية الحكم ، وزيادة تأكيده – كما ذكر الإمام عبد القاهر – رحمه الله – " ، والسين والتاء فى قوله : " يستغفرون " للطلب فكانوا يقولون : اللهم اغفر لنا . أى تقصيرنا فى حقك فإنه لا يقدرك أحدٌ حقّ قدْرك (١) .

والتعبير بالفعل المضارع " يستغفرون " للدلالة على تجدُد الاستغفار منهم ، وإحداثه شيئاً فشيئاً فهو متجدّد مهم دائماً ، ولاستحضار صورتهم وحالتهم العجيبة الماضية ففيها العبرة وحسنُ التأسّى لمن أراد أن ينهج نهجهم ويقتضى آثارهم .

قال القاسميُّ – رحمه الله – " وفيه لطيفة أخرى ، وهو أنه تعالى مدحهم بقلّة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السَّهر ، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون ، فما الحكم فيه ؟ مع أنَّ السَّهر هو الكلفة والاجتهاد ، لا الهجوع نقول : إشارة إلى أنَّ نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلاً وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار ، وفى وجوه الأسحار ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار على خلقه(٢)".

مع الوصف الأخير من أوصاف المحسنين :

قال تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ، وهذا القول معطوف على ما سبق دلالة على شرفهم وتنويهاً بشأنهم ورفعة لقدرهم .

و " فى " للظرفية كأن أموالهم صارت ظرفاً للحقوق فهم لا يطلبون المال ولا يجمعونه إلا وقد جعلوه ظرفاً لهذا الحقّ ، والمطلوب من الظَّرف هو المظروف فجعل مالهم كذلك قال الإمام الفخر – رحمه الله – : " قوله –

---

(١) دلائل الإعجاز /١٢٩ ت الشيخ شاكر ، البلاغة فنونها وأفنانها /٢١٢ .

(٢) محاسن التأويل ١٥/٣٤٣ .

وفى أموالهم حقٌ للسائل – أى ما لهم ظرفٌ لحقوقهم فإنَّ كلمة – فى للظَّرفية لكنَّ الظَّرف لا يطلب إلاَّ للمظروف فكأنه تعالى قال هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه إلا ويجعلونه ظرفاً للحقِّ ، ولاشكُ أنَّ المطلوب من الظَّـرف هـو المظروف ، والظَّرف ما لهُم فجعل ما لهُم ظرفاً للحقِّ ، ولا يكون فوق هذا مدحٌ فإن قيل : ما لهُم للسائل هل كان أبلغ ؟ قلنا لا وذلك لأن مَنْ يكون لـه أربعون ديناراً فتصدَّق بها لا تكون صدقته دائمة لكن إذا اجتهد واتَّجر وعاش سنين ، وأدَّى الزكاة والصَّدقة يكون مقدار المؤدَّى أكثر ، وهـذا كمـا فـى الصَّلاة والصَّوم ، ولم أضعف واحد نفسه بهما حتى عجز عنهما لا يكـون مثل مَنْ اقتصد فيهما (١) " .

والظَّرفية على هذا ظرفية مجازية شُبِّهت الحقوق بالأوعية التى تحفظ الأشياء حتى تؤدَّى وتفرغ فى أوقاتها ، وحذف المشبَّه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو " فى " الظَّرفية للدلالة على تمكُّن حقوق الله تعـالى فـى هـذه الأموال واستقرارها فيها مع حفظها وآدابها وتقديم الجارّ والمجرور " وفـى أموالهم " وهو الخبر على مبتدأه " حقٌ " للاختصاص أو فى أموال هـؤلاء المحسنين لا فى أموال غيرهم لطهارة هذه الأموال ونقائها.

والتعبير بـ " أموالهم " بالإضافة إليهم نظراً لتكسُّبهم وكدحهم وكـدِّهم مع رفعة أمرهم وتملكُّهم لها وحسن تصرُّفهم فيها ، وجعلها الله أموالاً لهم ، ولم يصفها بالاستخلاف ، أو ماله تعالى كما ذكر سبحانه فى غير موطن من القرآن (٢) .

---

(١) التفسير الكبير ٢٠٧/٢٨ .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ النور / ٣٣ وقال تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ الحديد / ٧ .

قال المفسِّرون : " حقٌّ – أى نصيب يستوجبونه على أنفسهم ويعدُّونه حقّاً واجباً عليهم ويشبهُّونه به فى صدق عزيمتهم على إيصاله لهم تقرُّباً إلى الله وإشفاقاً على النَّاس كما يقال يستكثرونه لما يعدُّونه كثيراً ، والمقصود من توصيف الحقِّ بذلك دفعُ ما يقال كيف يمدح المرء بأن يُثْبَتَ فى ماله حـــقٌ الفقراء أى نصيب أوجبه الله عليه فى ماله فإن أغنياء المسلمين كلهم كـــذلك حيث أوجب الله تعالى عليهم الزكاة والعشر ونحوهما ، بل وعلـــى الكـــافر أيضاً إن قلنا إنه مخاطب بفروع الإسلام إذ فى ماله حقٌّ معلوم للفقراء غير أنه إذا أسلم سقط عنه فإن مات عوقب على تركه الأداء فكيف يكـــون ذلـــك صفة مدح لهم ، ووجه الدَّفع أن ليس المراد بالحقِّ ما أوجبه الله تعالى عليهم فى أموالهم بل المراد ما يؤثرون به الفقراء على أنفسهم مع احتياجهم إليـــه شفقة على خلق الله تعالى ورغبة فيما عند الله من الأجر الباقى كأنَّهم يوجبون ذلك على أنفسهم ويجعلونه حقّاً ثابتاً فى مالهم (١) " .

ووهم ابن عطية فى تفسيره للآية بذكر الوصف للحقِّ بكونه معلوماً ، والتنصيص عليه هنا ، مع العلم بأنَّ الحقَّ المعلوم مذكور فى أمـــر الزَّكـــاة المفروضة فى سورة المعارج فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْـوَالِهِمْ حَـقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ (٢) . حيث قال – رحمه الله – : " و – معلوم – يراد به متعارف ، وكذلك قيام الليل الذى مدح به ليس من الفرائض ، وأكثر ما تقع الفريضـــة بفعل المندوبات " (٣) .

---

(١) ينظر فى هذا كله : تفسير البيضاوى ١٨١/٥ ، حاشية زادة عليـــه ٣٩٢/٤ ، ٣٩٣ ، حاشية الشهاب ٩٦/٨، ٩٧ ، التفسير الكبير ٢٠٦/٢٨ ، ٢٠٧ ، أبا السعود ١٣٨/٨ ، روح المعانى ٩/٢٧ ، تفسير روح البيان ١٥٦/٩ .

(٢) المعارج / ٢٤ .

(٣) المحرر الوجيز ١٧٥/٥ ، جواهر الحسان فى تفسير القرآن ٢٣٤/٣ للثعالبى .

ومعلوم أن الحديث عن الحقّ هنا من باب الإحسان والصَّدقة وليس من باب الزكاة المفروضة ، ومن هنا لم يوصف هذا الحقُّ بكونه معلوماً لأن هذا مقام الإحسان .

قال أبو حيَّان : " وقال القاضى منذر بن سعيد هذا الحقُّ هو الزكاة المفروضة ، وضُعِّفَ بأنَّ السُّورة مكية ، وفرض الزكاة بالمدينة ، وقيل : كان فرضاً ثم نسخ وضُعِّف بأنه تعالى لم يشرع شيئاً بمكَّة قبل الهجرة من أخذ الأموال (1) " .

ومن المفسِّرين مَنْ قال إنَّ هذا الحقُّ هو : " ما يصلون به رحماً أو يَقْرون به ضيفاً أو يحملون به كَلاً أو يعينون به محروماً وليس بالزَّكاة (2) ".

وتسمية ما يعطى من الأموال من الصَّدقات باسم " حقٌّ " للإشارة إلى أنهم جعلوا السَّائل والمحروم كالشُّركاء لهم فى أموالهم من فرط رغبتهم فى مواساة إخوانهم إذ لم تكن الصَّدقة يومئذٍ واجبة ، ولم تكن الزَّكاة قد فرضت.

و " السائل " هو الفقير المظْهِرُ فقرة فهو يسأل الناس ويتعرَّض لهم .
قال الرَّاغب : " السؤال استدعاء معرفة أو ما يؤدِّى إلى المعرفة ، واستدعاء مالٍ أو ما يؤدِّى إلى المال ، فاستدعاءُ المعرفة جوابه على اللِّسان واليدُ خليفة له بالكتابة أو الإشارة ، واستدعاءُ المال جوابه على اليد واللِّسان خليفة لها إمَّا بوعدٍ أو بردٍّ ، ويعبَّر عن الفقير إذا كان مستدعياً لشئ بالسَّائل كقوله : – للسَّائل والمحروم – " .

---

(1) البحر المحيط ١٣٦/٨ ، الصُّور البلاغية فى سورة المعارج /٥٠ د أحمد ناجى .

(2) تفسير الخازن ومعه البغوى ٢٤٣/٦ ، حاشية الصَّاوى ١١٨/٤ ، حاشية الجمل ٢٨٨/٧ ، زاد المسير ٢٥١/٧ .

و " المحروم " هو الفقير الذى لا يعطى الصَّدقة لظنّ الناس به أنه غير محتاج من تعففه عن إظهار الفقر ، وقد اختلفت كلمة أهل التأويل فى معنى " المحروم " يراجع فى ذلك كتب المفسّرين وهى كثيرة (١) . وهذا هو الصّنف الذى ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (٢) ، وروى أصحاب السنن : أن رسول الله – ﷺ – قال : " ليس المسكين الذى تردُّه التَّمرة والتَّمرتان واللُّقمةُ واللُّقمتان إنّ المسكين المتَّعفّف اقرؤوا إن شئتم – لا يسألون الناس إلحافاً " (٣) ، وفى رواية أخرى : " ليس المسكين الذى تردُّه الأكلة والأكلتان والتَّمرة والتَّمرتان . قالوا فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يجد غنى ، ولا يعلم النَّاس حاجته فيتصدَّق عليه " (٤) ، وفى رواية : " الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفْطَنُ له فيتصدَّق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس " (٥) .

وإطلاق اسم المحروم هنا ليس حقيقة وذلك أنه لم يسأل النَّاس ويحرموه ، ولكن لمَّا كان مآل أمره إلى ما يؤول إليه أمر المحروم أطلق عليه لفظ المحروم تشبيهاً به فى أنه لا تصل إليه ممكناتُ الرِّزق بعد قربها

---

(١) يراجع : جامع البيان ١٢٤/٢٦ ، ١٢٥ ، البحر المحيط ١٣٦/٨ ، المحرر الوجيز ١٧٥/٥ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٧/١٧ ، ٣٨ ، روح المعانى ٩/٢٧ ، زاد المسير ٢٥١/٧ ، ٢٥٢ .

(٢) البقرة /٢٧٣ .

(٣) صحيح مسلم ٧١٩/٢ ب المسكين الذى لا يجد غنى ح ١٠٣٩ ، سنن النسائى ٨٩/٥ من حديث أبى هريرة ح ٢٥٧٢ .

(٤) السابقان نفسهما .

(٥) السابقان نفسهما .

منه فكأنه ناله حرمانٌ ، وهذا هو باب الاستعارة التَّصريحية التبعية في المشتَّقات " اسم المفعول " والجامع المنعُ في كلٍّ ، والمقصود من هذه الاستعارة ترقيق النفوس عليه وحثُّ الناس على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم في موضع يحبُّ اللهُ وضعها فيه .

وقد بينّت الآية قُرْبَةً ثالثة لهؤلاء المحسنين ، وهو اقتطاع قسط من أموالهم للسَّائل والمحروم ، وهو لعمرى محكٌّ إخلاصهم وبرهان إيمانهم ، وبهذه الصَّدقات يشاركون الناس أفراحهم وأتراحهم ، ويساهمون في بناء مجتمع مسلم قويٍّ ، " ولمَّا كان الإنفاق برهاناً على صحَّة الإيمان قرنه الله سبحانه بالصَّلاة التى هى عماد الدِّين في اثنتين وثمانين آية من كتابه العزيز ، فالبِرُّ ليس فى الصَّلاة وحدها ، ولكنه جماع الفضائل كلِّها " ([1]) .

<u>السرُّ فى تقديم السَّائل على المحروم :</u>

قُدِّم " السائل " على " المحروم " هنا وفى آية المعارج ، وهذا فى غاية الحسن ، وذلك أنَّ دفع حاجة النَّاطق مُقدَّم على دفع حاجة غير النَّاطق ، كما أنَّ السائل يقع اندفاع حاجته قبل اندفاع حاجته المحروم فى الوجود لأنه يعرف حاله بمقاله ويطلب لقلَّة ماله فيُقدَّم بدفع حاجته ، والمحروم غير معلوم فلا تندفع حاجته إلا بعد الإطِّلاع عليه ، فكان الذِّكر على التَّرتيب الواقع ، كذلك يعدُّ ذلك إشارة إلى كثرة العطاء فيقول يعطى السَّائل وإذا لم يجدهم يسأل هو عن المحتاجين فيكون سائلاً ومسؤولاً ، ومن ذلك أيضاً مراعاة الفاصلة القرآنية سُنَّةٌ متبعة فى نظم الكلام الحكمى فقوله : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أحسنُ فى اللفظ والصِّياغة من قولنا : وفى أموالهم

([1]) تأمُّلات فى سورة الذاريات /٣٨ .

حقٌّ للمحروم والسَّائل " (١) ، وبينهما طباق لأن السائل هو الطَّالب للمـــال ، والمحروم هو المتعفِّف عن الطلب .

دلائل على قدرة الله تعالى :

بعد أن ذكر الله عزَّ وجلَّ أوصاف المتَّقين بيَّن أنه قـد لاحـت لهـم الأدلَّة الأرضية والسَّماوية التى بها أخبتوا إلى ربِّهم وأنابوا إليه فقال تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ . فقد أشار سبحانه وتعالى إلى أنه لا حاجة إلى الخرص والتَّخمين فى باب الاعتقادات لكثرة الآيات الواضحة .

قوله : ﴿ وَفِي الأَرْضِ ﴾ من باب تقديم الجارِّ والمجرور على مبتـداه للاهتمام والعناية بهذه الأرض باعتبارها آيات كثيرة وللتشويق إلـى ذكـر المبتدأ " آيات " ، وهو متَّصلٌ بالقسم وجوابه فى أول السُّورة مـن قولــه : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ فبعد أن حقَّق وقوع البعث بتأكيده بالقسم انتقل إلـى تقريبـه بالدَّليل لإبطال إحالتهم إيَّاه ، وما بين هاتين الجملتـين اعتـراضٌ ، فجملـة ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة جـواب القسم وهى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ ، والمعنى : وفى مـا يشـاهد مـن أحوال الأرض آيات للموقنين ، وهى الأحوال الدَّالة على إيجاد موجـودات بعد إعدام أمثالها وأصول مثل إنبات الزَّرع الجديد بعد أن بـاد الـذى قبلـه وصار هشيماً ، وهذه دلائل واضحة متكرِّرة لا تحتاج إلى غـوص الفكـر فلذلك لم تقرن هذه الآيات بما يدعو إلى التَّفكُّر " (٢) .

قال الشـيخ الجمل : " وفى الأرض آيات – إلخ كلام مبتدأ قُصدَ بـه

---

(١) التفسير الكبير ٢٠٧/٢٨ بتصرُّف .

(٢) تفسير البيضاوى ١٨٢/٥ ، التحرير والتنوير ٣٥٢/٢٦ ، تفسير المراغى ٢٨٧/٩ .

الاستدلال على قدرة الله تعالى ووحدانيته ، وقد اشتمل على دليلين الأرض والأنفس ([1]) " و " آيات " جمع آية ، وهى هنا نكرة للتّعظيم والتّكثير من باب مجئ المسند إليه نكرة فهى آياتٌ كثيرة متعدّدة من جهة ، وهى عظيمة لها قدرها من جهة أخرى ، أى دلائل واضحة على وجود الصّانع وعلمه وقدرته وإرادته ووحدانيته وفرط رحمته من حيث إنها مدحوّة كالبساط الممّهد وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين فى أقطارها والسّالكين فى مناكبها وفيها سهل وجبل وبَرٌّ وبحر وقطعٌ متجاورات وعيون متفجرة ومعادن متقنة وأنها تُلَقّح بألوان النبات وأنواع الأشجار وأصناف الثّمار المختلفة الألوان والطُّعوم والرّوائح وفيها دوّابٌ منبثّة قد رُتّب كلّها ودُبّر لمنافع ساكنيها ومصالحهم فى صحتهم واعتلالهم ، وقال الكلّبى عظاتٌ من آثار مَنْ تقدّم " ([2]) .

ولّما كانت الآيات دالّة على ما ذكرنا حُذِفَ تقييدها بمتعلّق ليعمّ كلّ ما تصلح الآيات التى فى الأرض أن تدلّ عليه وترشد إليه .

" والظّرفية فى قوله : ﴿ وَفِي الأَرْضِ ﴾ حقيقية والجمع على ظاهره إذا أريد بالآيات الدّلائل من أنواع المعادن والنباتات ، والجمع باعتباره وجوه الدّلالة وأحوالها إذا أريد وجوه الدّلالات من دحو الأرض وارتفاع بعضها عن الماء أى نفس الأرض ، والظّرفية من ظرفية الصّفة فى الموصوف والدلالة على وجود الصّانع جلّ شأنه ([3]) " وتعالى قدره ، صنع الله ومن أحسن من الله صنعاً .

([1]) حاشية الجمل ٢٨٨/٧ ، حاشية الصّاوى ١١٨/٤ .

([2]) أبو السعود ١٣٨/٨، ١٣٩ ، محاسن التأويل ٣٤٤/١٥ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٣/٤ ، حاشية الشهاب ٩٧/٨ ، تفسير روح البيان ١٥٧/٩ ، تفسير ابن كثير ٢٣٥/٤ ، التحرير والتنوير ٣٥٣/٢٦ .

([3]) روح المعانى ٩/٢٧ .

واللام فى ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ للاختصاص ، وقد اختصت هذه الآيات بالموقنين لأنَّهم هم الذين انتفعوا بدلالتها فأكسبتهم الإيقان بوقوع البعث ، فالموقنون كلَّما رأوا آية عرفوا وجه تأويلها فازدادوا إيقاناً ، وخصَّهم بالذِّكر لأنهم هم الذين يعترفون بذلك ، ويتدَّبرونه فينتفعون به فيرتفع شأنهم ويعلو قدرهم .

قال سماحة الشيخ الطَّاهر ابن عاشور : " وأوثر وصف الموقنين هنا دون الذين أيقنوا الإفادة أنهم عرفوا بالإيقان ، وهذا الوصف يقتضى مدحهم بثقوب الفهم لأن الإيقان لا يكون إلاَّ عن دليل ودلائل هذا الأمر نظرية ، ومدجهم أيضاً بالإنصاف وترك المكابرة لأن أكثر المنكرين للحقِّ تحملهم المكابرة أو الحسد على إنكار حقٍّ مَنْ يتوجَّسون منه أن يقضى على منافعهم (1) " .

والتَّعبير باسم الفاعل " الموقنين " دليل على ثبوت هذه الصِّفة لهم واستمرارهم عليها فهؤلاء الموقنون أهل اليقين وهم الذين يقودهم النَّظر إلى ما تطمئن به النفس ، وينثلج له الصَّدر فيرون هذه العبر والعظات فتوقن قلوبهم وعقولهم إلى معرفة الصَّانع المدبِّر ، ويقروُّن بجلاله ووحدانيته سبحانه وتعالى .

انتقال إلى الآيات فى النفوس :

قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ هذه آية أخرى من الآيات التى بثَّها الله تعالى فى الآفاق والأنفس جعلها موطناً للعبرة والاتِّعاظ للدلالة على قدرته وشمول إرادته من مبدأ خلقكم أيُّها النَّاس إلى منتهاه ، وما تركيب هذا الخلق إلاَّ عجيبة من العجائب الدَّالَّة على عظمته سبحانه وتعالى .

---

(1) التحرير والتنوير ٣٥٢/٢٦ ، ٣٥٣ .

وقوله : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ ﴾ إذ التقدير : وفى أنفسكم آياتٌ – ، " والآيات الثابتة فى الأنفس أيضاً إمَّا بمعنى الدَّليل إذ ما فى العالم شئٌ إلاَّ وفى الإنسان له نظير يدلُّ دلالته ، أو بمعنى وجوه الدلالات من الهيئات النافعة والمناظر البهيَّة كانتصاب قامته واعتدال رأسه ونحوه " (١) .

قال العلاَّمةُ الزمخشريُّ : " ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ﴾ فى حال ابتدائها وتنقُّلها من حال إلى حال ، وفى بواطنها وظواهرها من عجائب الفِطَر وبدائع الخلق ما تتحيرُ فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول ، وخُصَّت به من أصناف المعانى ، وبالألسن والنُّطق ومخارج الحروف وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات السَّاطعة والبيِّنات القاطعة على حكمة المدبِّر ، دع الأسماع والأبصار ، والأطراف وسائر الجوارح وتأتِّيها لما خلقت له وما سوِّى فى الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتَّثنِّى ، فإنه إذا جَسِي (٢) شئٌ منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذُّلُّ – فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ " (٣) .

ففى الأرض دلائل من أنواع الحيوان والأشجار والجبال والأنهار ، وفى أنفسكم آيات لها من عجائب الصُّنع الدَّالَّة على كمال الحكمة والقدرة والتدبير والإرادة ما يعلمها كلُّ واحد . فقوله : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ﴾ تخصيص بعد تعميم لأن أنفس الناس ممَّا فى الأرض كأنه قيل : فى الأرض آيات

---

(١) تفسير البيضاوى ١٨٢/٥ ، حاشية الشهاب عليه ٩٧/٨، حاشية الشيخ زادة ٣٩٣/٤ ، حاشية الجمل ٢٨٨/٧ ، ٢٨٩ .

(٢) جَسَا وجَسِي : يبس وصلب وغلظ وخشن المعجم الوسيط ١٢٣/١ مادة جسا .

(٣) المؤمنون /١٤ ، الكشاف ١٦/٤ ، ١٧ .

للموحِّدين العاقلين ، وفى أنفسكم خصوصاً آياتٌ لهم لأن أقرب المنظور فيه من كلٍّ عاقل نفسه ومن ولد منها وما فى بواطنها وظواهرها من الدَّلائل الواضحة على الصَّانع وفى نقلها من هيئة وحال إلى حال من وقت الميلاد إلى وقت الوفاة ، وذلك لأنَّ كلَّ شئ بجسمه واحد وكذا بروحه ولا عبرة بكثرة الأجزاء والأعضاء " (١) .

وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ على متعلَّقة للاهتمام والعناية بالنَّظر فى خلق أنفسهم ولرعاية الفاصلة ، والتقديم أبلغ فى أداء المراد من التأخير فى مثل هذا ، ولأن مراعاة الصَّناعة اللفظية مطلوبة فى تراكيب الجمل ، والمعنى عليه : ألا تتفكرون فى خلق أنفسكم : كيف أنشأكم الله من ماءٍ ؟ وكيف خلقكم أطواراً ؟ فلكلِّ طور هيئته وتكوينه الخاصُّ به .

فقوله سبحانه : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ﴾ مفرَّع على قوله : ﴿ وَفِي الأَرْضِ ﴾ وليس متعلِّقاً بالفعل " تبصرون " الآتى ولا متقدِّماً عليه ، وذلك لأنَّ وجود الفاء والاستفهام يمنع من ذلك حيث يصير الكلام معطوفاً بحرفين ، والخطاب فى الآية موجَّه إلى المشركين الذين سبق الحديث عنهم فى أول السُّورة فى قوله : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ والظرفية فى قوله ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ﴾ ظرفية حقيقية من ظرفية الصِّفة فى الموصوف للدلالة على وجود الصَّانع ودقَّة إرادته ومزيد قدرته . والاستفهام فى قوله : " أفلا " إنكارىٌّ جاء ينكر عليهم عدم الإبصار للآيات سواءً فى الأرض أو فى الأنفس فكلُّها آياتٌ دالَّةٌ على دقَّة الصُّنع وحكمة الصَّانع وقوله : " أَفَلا تُبْصِرُونَ " جملة مستأنفة قُصِد بها الحثُّ على النَّظر والتأمُّل ، والمراد " أفلا تنظرون نظرَ مَنْ يعتبر فى اختلاف الألسنة والألوان ، والتَّفاوت فى العقول والأفهام ، واختلاف

---

(١) تفسير روح البيان ١٥٨/٩ .

الأعضاء وتعدُّد وظائف كلٍّ منها على وجه يحار فيه اللُّبُ ، ويدهش منه العقل ؟ " (١) .

ومردُّ الإنكار هنا التَّعنيف والتَّوقيف والتَّوبيخ على ترك النَّظر في الآيات الأرضية والنفسية ، والفعل " تبصرون " استعارة تبعية من استعارة الإبصار للتدبُّر والتَّفكُّر ، ولمَّا كان الإنسان المتدبِّر للأمر المفكِّر فيه يعلم أساسياته ويحيط بجوانبه صار كالمبصر المتتَّبع له ببصره وبأمِّ عينيه ، والجامع الإحاطة والشمول والإدراك فى كلٍّ ، وهو من استعارة المحسوس للمعقول ، والمعنى : كيف تتركون النَّظر فى آيات كائنة فى أنفسكم تدلُّ على حكمة الصَّانع جلَّ جلاله .

وحذف المفعول للفعل " تبصرون " لقصد التعميم وللإيجاز والاختصار أى الآيات والتَّعبير بالفعل المضارع لاستحضار تلك الصورة الماضية ولتجدُّد الإبصار وحدوثه كلَّ وقت .

<u>ضمان الرِّزق على ربِّ الأرزاق :</u>

<u>قال تعالى</u> : ﴿ وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ هذا كلامٌ آخرُ قُصِدَ به الامتنان والوعد والوعيد ، وهو معطوف على ما سبق من عطف الجمل على الجمل موصولٌ كلٌّ بصاحبه لاتفاق الجمل فى الإخبار بنعم الله تعالى على عباده .

وقوله : ﴿ وَفِي السَّمَاء ﴾ مُقدَّمٌ على مبتدأه للاهتمام بهذا المكان ، والتشويق لذكر المبتدأ بعده ورعاية الفاصلة ، وللتنبيه من أول الأمر على خبريته لا كونه نعتاً ، فبعد أن ذكر سبحانه دلائل الآفاق والأنفس التى هى من متعلَّقات الأرض عطف على ذلك ذكر السَّماء لمناسبتها للأرض ، وليمهِّد

---

(١) تفسير المراغى ٢٨٧/٩ .

للقسم الآتي بعدُ في قوله : " فوربِّ السَّماء والأرض إنه لحقٌّ " ومعلوم أنَّ في السماء آية المطر الذى به تنبت الأرض بعد جفافها وإحيائها بعد موتها ، والمراد من الآية : وفي السَّماء آية المطر ، فعدل سبحانه عن ذكر المطر إلى المسبَّب عنه وهو الرِّزق إدماجاً للامتنان فى الاستدلال ، فإنَّ الدليل فى كونه مطراً يحيى الأرض بعد موتها ، وهذا قياس تمثيل للنَّبت ، أى فى السَّماء المطر الذى ترزقون بسببه .

والظَّرفية فى قوله : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ ﴾ ظرفية حقيقية من ظرفية الصِّفة فى الموصوف ، فإن السماء ظرفٌ حقيقيٌّ للمطر ومكان نزوله وهطوله ، وفى قوله : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ مجاز مرسل لعلاقة المسبَّبية أطلق المسبَّب وهو الرِّزق وأريد السبب وهو المطر النَّازل الذى تحمله سحب السَّماء ، والسَّماء هنا هى طبقات الجوّ العليا ، والكلام على حذف مضاف تقديره : وفى السَّماء سببُ رزقكم .

" وطريق المجاز أبلغ – هنا – لأنَّ المسبَّب يتضمَّن سبباً حتماً فلا مسبَّب دون سبب ولا ثمر دون شجر ، وهذا يتضمَّن فكراً وحسَّاً ، وأيضاً فإن هذه الكلمة على وجازتها تعطى من المعانى أكثر من أسلوب الحقيقة لأنها على زنة المصدر ، وهو يدلُّ على الكثرة ، والتنكير كذلك فيه معنى العموم والتكثير ، وأيضاً فإن الرِّزق يتَّسع ليشمل كلَّ ما يُرْزقه الإنسانُ من الطَّعام والشَّراب والكساء بطريق مباشر أو غير مباشر (١) " .

وقرأ ابن محيصن : " وفى السَّماء أرزاقكم " بالجمع نظراً لجمع المخاطبين بهذا ، وقرأ ابن مسعود والضَّحَّاك وأبو نهيك وابن محيصن

---

(١) المجاز اللغوى دراسة بلاغية /٣٥ ، ٣٦ د عبده هليل .

ومجاهد : " وفى السماء رازقكم " اسم فاعل ، والله تعالى متعالٍ عن الجهة والمكان .

وقوله : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ ﴾ ، وهو من " عطف العامِّ على الخاصِّ فما من شئ مقدَّر إلا وهو مكتوب ذلك فى السَّماء ، وهذا تفيسر لظرفية ما توعدون ف السَّماء ، وأمَّا ظرفية الرِّزق فيها فظاهرة ، إذ المطر كامنٌ فيها بنفسه حقيقة (١) " ، وقيل : إن قوله : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ مستأنف خبره قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاء ﴾ إلخ .

ومفعول " تُوعَدُونَ " محذوف قيل : إنَّه الخير والشرُّ كلاهما يأتى من السَّماء – كما روى عن ابن عباس ومجاهد ، وقيل : إنَّه الجنَّة – كما روى عن مجاهد – ، وقيل : إنَّه الثواب والعقاب فإنهما مقدَّران مُعْنيان فيها (٢) " فحذف المفعول أفاد التعميم والإيجاز والاختصار ، وفى قوله : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ إيماء إلى أنَّ ما أوعدوه إنَّما يأتيهم من قِبل السَّماء ، والتعبير بالفعل المضارع للتجدُّد والحدوث الفينة بعد الفينة .

قال الشيخ زادة : " ورتَّب الله تعالى الآيات الثلاث ترتيباً حسناً فإن الإنسان لابدَّ له من أمور تسبقه فى الوجود ومن أمور تقارنه فى الوجود ومن أمور تلحقه بعد وجوده . فالأرض التى هى المكان لأبدَّ من سبقها ليوجد الإنسان فيها فبدأ بذكرها فقال : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ ﴾ ثم ذكر من الآيات ما يقارنه فى الوجود من الأجزاء والأعراض فقال : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ﴾ ثم

---

(١) حاشية الجمل ٢٨٩/٧ ، حاشية الصَّاوى ١١٨/٤ .

(٢) البحر المحيط ١٣٦/٨ ، روح المعانى ١٠/٢٧ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٩/١٧ ، زاد المسير ٢٥٣/٧ .

ذكر ما يلحقه بعد وجوده ويحتاج إليه فى بقائه فقال : ﴿ وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الخير والشرّ فإن الثواب والعقاب والخير والشرّ كلٌ ذلك مكتوبٌ فى اللّوح وهو فى السَّماء وكتب فيه مَنْ للجنَّة ومَنْ للنَّار . فالمعنى أنَّ ما ترزقونه فى الدُّنيا وما توعدونه فى العقبى كلُّ ذلك مقدَّرٌ مكتوبٌ فى اللَّوح وهو فى السَّماء ([1]) " .

انتقال إلى القسم إلى أن القرآن أو الوعد أو الرسول أو الرِّزق حقٌّ :

قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ هذه جملة استئنافية أقسم فيها سبحانه وتعالى بنفسه على ما ذكر من الرِّزق وغيره ، أو عاطفة على معنى أنه لمَّا أكَّد الكلام بالقسم بـ " الذَّاريات " وما عطف عليها فرَّع على ذلك زيادة تأكيد القسم بخالق السَّماء والأرض على أنَّ ما يوعدون حقٌّ فهو عطف على الكلام السَّابق ومناسبته قوله : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ " ([2]) .

وذكر " الرَّبِّ " لأنه فى بيان التَّربية بالرِّزق ، وإظهار اسم السَّماء والأرض دون التعبير عنهما بضميرهما لإدخال المهابة فى نفوس السَّامعين بعظمة الربِّ سبحانه وتعالى .

وقيل : شُبِّه تحقُّق ما أخبر به عنه بتحقُّق نطق الآدمى ووجوده كما يقال : إنَّك ههنا وإنَّه لحقٌّ كما أنَّك تتكلَّم ، والمعنى ك أنه فى صدقه وتحققُه كالشئ الذى يعرف .

وفي حاشية الشيخ زادة ما نصُّه : " فإن قيل : الفاء تستدعى كون ما بعدها واقعاً عقيب أمر متقدِّم عليها كالأمر المتقدِّم فى قوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاء ﴾ أجيب عنه أولاً بأن الأمر المتقدِّم ههنا هى الآيات المذكورة كأنه

([1]) حاشية الشيخ زادة ٤/٣٩٣ .

([2]) التحرير والتنوير ٢٦/٣٥٥ .

قيل : إنَّ ما توعدون احقٌّ بالبرهان المبين ثم بالقسم واليمين ، وثانيـاً بـأنَّ الأمر المتقدّم هو القسم المذكور بقوله : ﴿ والذَّاريات ﴾ فالفاء ههنا هى الفاء العاطفة لوقوع الفصل بين القَسَمين . أقسم أولاً بالمخلوقات وههنا بربّها ترقّياً من الأدنى إلى الأعلى (١) " . وتعريف كلٍّ من السماء والأرض بأل للعهـد لتقدُّم الحديث عنهما صراحة فى كون كلٍّ منهما مشتملاً على الآيات والدلائل أى السّماء المعهودة لكم والأرض كذلك فلا ينكرون ، ولا يجحد أمرها جاحد أو مكابر .

مرجع الضمير فى قوله : " إنَّه لحقٌّ " :

قيل : إنَّ هذا الضمير راجع إلى القرآن أو إلى الدِّين فى قوله : ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أو إلى اليوم المذكور فى قوله : ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أو إلـى الرِّزق أو إلى الله تعالى أو إلى النبىِّ - ﷺ - ، وكلُّها أقوال منقولة ، والذى يظهر أنه عائد على الإخبار السَّابق من الله تعالى فيما تقدَّم فى هذه السّـورة من صدق الموعود ، ووقوع الجزاء ، وكونهم فى قـول مختلـف ، وقتـل الخرّاصين ، وكينونة المتَّقين فى الجنَّة على ما وصف وذكر أوصافهم ، وما ذكر بعد ذلك ، ولذلك شُبِّه فى الحقيقة بما يصدر من نطق الإنسان بجامع ما اشتركا فيه من الكلام " (٢) .

وقيل : إنَّ الضَّمير فى : " إنَّه لحقٌّ " عائد إلى " ما توعدون " وهـذا من ردِّ العجز على الصَّدر لأنه ردٌّ على قوله أول السُّورة فى قوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ وانتهى الغرض (٣) " ، ونجد هذه الجملة مؤكَّدة الخبـر

---

(١) حاشية الشيخ زادة ٣٩٣/٤ .

(٢) البحر المحيط ١٣٦/٨ ، روح المعانى ١٠/٢٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٥٥/٢٦ .

بإنَّ واللام ويُسمِّى البلاغيون هذا الضَّرب بالإنكارىّ لأنَّ المخاطبين الـذين تَقدَّم الحديث عنهم منكرون لأمر البعث فمن هنا جاء الكلام مؤكدًا لهم بأكثر من مؤكِّد ليتناسب وإنكارهم .

ويلمح فى قوله : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ والأَرْضِ ﴾ لفٌّ ونشرٌ أى السـماء بما فيها من آيةِ المطر الذى هو سبب الرِّزق النَّازل منها ، والأرض بما فيها من آيات للموقنين . وقوله : ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ ﴾ فى قراءة الجمهور بالنَّصـب على الحال من الضمير المستكِّن فى الحقِّ ، و " ما " واردة هنا للتأكيـد ، أو على الوصف لمصدر محذوف أى إنَّه لحقٌّ حقًّا مثلَ نطقكم ، وقيـل : إنَّـه مبنىٌّ على الفتح لإضافته إلى غير متمكِّن ، وقيل هو مبنىٌّ على الفتح لأن – مثلاً وما – رُكِّبا وجعلا بمنزلة خمسة عشر ، وقرأ حمزة والكسائىُّ وأبو بكر عن عاصم بالرَّفع على أنه صفة " لحقٌّ " لأنه نكرة ، لأنه لا يكتسى التعريف بالإضافة إلى المعرفة فلم يُكْسَ التعريف بإضافته إلى ﴿ أنكم ﴾ " (١) فمَـنْ نصب فعلى ضربين : أحدهما : أن يكون فى موضع رفع إلا أنَّه لمَّا أضيف إلى " أنَّ " فُتِحَ ، والثانى : أن يكون منصوباً على التأكيد على معنى : إنَّـه لحقٌّ حقًّا مثل نطقكم ، وهذا الكلام كما تقول : إنَّه لحقٌّ كما أنَّك تتكلَّم (٢) " .

و " ما " للتأكيد و " أنكم " فى محل جرٍّ بالإضافة لمَّا تقـدَّم ، وزيـادة " ما " – كما قيل – المفيدة للتأكيد تقوية لتحقيق حقيَّة ما يوعدون (٣) " .

وقوله تعالى : ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ مرادٌ به زيادة تقرير لوقوع ما

---

(١) البيان فى غريب إعراب القرآن ٢/٣٩١ ، إملاء ما مـنَّ بـه الـرحمن ٢/٢٤٤ ، تفسير البيضاوى ٥/١٨٢ .

(٢) زاد المسير ٧/٢٥٣ ، الدُّرُّ المصون ٦/١٨٦ – ١٨٨ .

(٣) مغنى اللبيب ٢/١٣ .

أوعدوه ، بأن شبَّه بشئ معلوم كالضَّرورة لا امتراء فى وقوعه وهو كون المخاطبين ينطقون ، وهذا من التمثيل بالأمور المحسوسة ، ومعنى هذه الجملة مثل نطقكم كما أنه لاشكَّ لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لا تشكُّوا فى تحقُّق ذلك وحقِّيته (١) " .

و " النُّطق " هنا هو الكلام بالحروف والأصوات فى ترتيب المعانى ، وهو مستعار لتحقُّق ما أخبر الله عنه بتحقُّق نطق الآدميِّ ، واختصَّ التمثيل بالنُّطق لأنه مخصوص بالإنسان وهو أخصُّ صفاته ، وفى الآية دليلٌ للتوكُّل على الله وحثٌّ على طلب الحوائج منه ، والتعبير بالفعل المضارع " تنطقون " دلالة على تجدُّد نطقهم وهو أقوى فى الوقوع لأنه محسوس ، ولاستحضار تلك الصُّورة العجيبة للسَّامعين .

وقد أدرج ابنُ النقيب هذه الآية تحت ما يُسمَّى بفنِّ القَسَم وهو : " أن يُقْسِمَ فى كلامه بشئ لم يرد به تأكيد كلامه ولا تصديقه ، وإنما يريد به – المتكلم – بيان شرف المقسم به وعلوّ قدره عنده ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (٢) ، فقد أقسم الله سبحانه وتعالى بقسم يوجب الفخر لتضمنُه المدح بأعظم قدرة وأجلِّ عظمة .

روى العلاَّمةُ الزمخشريُّ فى الكشاف ما نصُّه : " قال الأصمعيُّ : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابيٌّ على قعود له فقال : ممَّن الرَّجل ؟ قلت : من بنى أصمع ، قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يُتْلَى فيه

---

(١) تفسير البيضاوى ١٨٢/٥ ، تفسير أبى السعود ١٣٩/٨ ، حاشية الجمل ٢٨٩/٧ ، تفسير روح البيان ١٦٠/٩ .

(٢) مقدمة تفسير ابن النقيب /٢٣٨ ، تحرير التحبير لابن أبى الإصباع /٣٢٧ ، الفوائد المشوقة /١١٦ ، ١١٧ ، إعراب القرآن وبيانه ٣٠٩/٩ .

كلامُ الرحمن ، فقال : اتْلُ عليَّ فتلوتُ - والذاريات - فلَّما بلغت قوله : وفى السَّماء رزقكم - قال : حسبك ، فقام على ناقته فنحرها ووزَّعها علـــى مَـــنْ أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسَّرهما وولىَّ ، فلَّمــا حججــت مــع الرشيد طَفِقتُ أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت دقيق ، فالتفتُ فإذا أنا بالأعرابى قد نَحَل واصفَّر ، فسلَّم علَّى واستقرأ السُّورة فلَّما بلغت الآيـــة - وفى السَّماء رزقكم - صاح وقال : وقد وجدنا ما وعد ربنُا حقَّاً ، ثم قـــال : وهل غير هذا فقرأت - فوربِّ السَّماء والأرض إنَّه لحقٌّ - فصاح وقال : يا سبحان الله مَنْ ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف لم يُصدِّقوه بقولـــه حتـــى ألجئوه إلى اليمين ، قالها ثلاثاً وخرجت معها نَفْسُهُ (١) " . وقد روت كتـــبُ التفسير جلُّها هذه الرواية نقلاً عن العلاَّمـــة الزمخشـــرىِّ - رحمـــه الله - فلتراجع فى مظَّانها (٢) .

---

(١) الكشاف ١٧/٤ ، تفسير النَّسفى ١١٦٨/ ، الجامع لأحكام القـــرآن ٤٠/١٧ ، تفســـير البيضاوى ١٨٣/٥ .

(٢) ينظر فى ذلك روح المعانى ١٠/٢٧ ، ١١ ، حاشية الشـــيخ زادة ٣٩٤/٤ ، أضـــواء البيان ٦٦٧/٧ ، تفسير روح البيان ١٦٠/٩ ، البرهان فى علـــوم القـــرآن ٤١/٣ ، تفسير المراغى ٢٨٨/٩ ، إعراب القرآن وبيانه ٣١٠/٩ .

المبحث الثالث

" حديث ضيف إبراهيم — عليه السلام ""

والحوار الذى دار بينه وبينهم — عليهم السلام -

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ الآيات/ ٢٤ – ٣٧ .

النظم البلاغي في الآيات : بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة من الأدلة الشاهدة ، والشواهد الناطقة في الآفاق والأنفس بوحدانيته وكمال ذاته وصفاته منوّهاً بها ورافعاً لأمرها ، ساق في هذه الآيات أدلة أخرى من التاريخ والواقع تؤكِّد ما أكّدته الآيات السابقة ، فأشارت هذه الآيات إشارة خاطفة إلى حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، والحديث عن نبى الله الكريم إبراهيم – عليه السلام – له وقع طيب على نفس الرسول محمد – ﷺ – إذ هو الأبُ الأكبر له وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يعدُ – كما ذكرنا – انتقالاً من الإنذار والموعظة والاستدلال إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين من المشركين فى كفرهم وتكذيبهم للرسل ، والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً – وهو كلُّ كلام منقطع عن غيره ، أو هو ما كان مبتدأً به ، ونرى فى قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ مغايرة لأسلوب الكلام من خطاب المنذَرين مواجهة إلى أسلوب التَّعريض تفنُّناً بذكر قصَّة إبراهيم – عليه السلام – لتكون توطئة للمقصود من ذكر ما حلَّ بقوم لوط حين كذَّبوا رسولهم ، وهو ما بعد قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ؟ ، وتوجيه الخطاب إلى النبيِّ – ﷺ – فى قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ لبيان أنَّ المقصود الأسمى ، والغرض الأصلى هو تسليته – عليه الصَّلاة والسلام – على ما لقيه من تكذيب قومه ، ويتبع ذلك من باب أولى التَّعريض بالسَّامعين حين يقرأ عليهم القرآن ، أو يبلغهم بأنهم صائرون إلى مثل ذلك العذاب لاتحاد الأسباب ، وهذه الجملة مفصولة عمَّا سبق من الآيات لكونها مستأنفة – كما ذكرنا – استئنافاً

ابتدائياً ، و " هل " هنا بمعنى " قد " كما فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ (١) ، وحرف " قد " يدخل على الفعل الماضى إذا كان منتظراً وقوعه ، وكان – عليه الصَّلاة والسَّلام – يشتاق إلى سماع الكثير من أخبار أبيه إبراهيم – عليه السلام – وينتظر أن يُتلى عليه من أمره ذكرٌ .

وجاء الفعل مؤكَّداً بـ " هل " التى يصحُّ أن تكون – كما ذكرنا – بمعنى " قد " وهى فى هذا الموضع للتوكيد والتثبيت والتقرير ، والمراد : قد أتاك من ربِّك حقّاً حديث ضيف إبراهيم ، وفيه امتنان من ربِّه عليه إذا علَّمه ما لم يكن يعلم وأنزل عليه قرآناً فيه خبرُ مَنْ يشتاقُ إلى خبره (٢) " .

والاستفهام فى الآية مرادٌ به التَّشويق والتَّرويح ، وبيان عظم الحديث الذى سيتلى عليه – ﷺ – كأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول لرسوله – عليه الصَّلاة والسلام – سيتلى عليك الآن من حديث ضيف إبراهيم – عليه السَّلام – ما تشتاق إليه نفسك ، ويطمئن به قلبك وتجد فيه روحك وريحانك ، وأنسك وسلواك .

يقول الدكتور صبَّاح : " والتعبير " هل أتى " يفيد التَّشويق والإثارة والتَّمهيد لغريب الأنباء وهو بمثابة إعلان أو عنوان مثير جذَّاب يستولى على الاهتمام إصغاءً وإفادة ، وفيه لون من التَّسرية والتسلية والعبرة للنبىِّ الكريم – ﷺ – فكثيراً ما يدخل بدء قصَّة جليلة أو افتتاح حلقة مثيرة منها ن وفيها ما يعين الدَّعوة ويدفعها فى جهادها العاتى من ذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ

---

(١) الإنسان / ١ .

(٢) تأملات فى سورة الذاريات / ٥١ .

حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (١) ، ثم يقول : " ونلحظ إيثار الفعل أتى على الأفعال القريبة فى الدّلالة نحو جاء لأن الإتيان هو المجئ بسهولة ، والمجئ أعمُّ كما تلحظ إيثار لفظ حديث أو نبأ إشعاراً بأنه من الأحاديث البديعة التى يتناقلها الرُّواة ويتنافس فى حفظها الدعاة فى كل مجتمع ، ذلك أن لفظ الحديث وإن كان عامَّ الدّلالة لكنه جاء فيما له خطر (٢) " .

وقال المفسّرون : " وفى هذا الكلام – هل أتاك – إلخ تعظيمٌ لهذا الحديث المذكور بعده ، والتعظيم مأخوذ من الاستفهام لأنه للتعجيب وأنه ممَّا يسأل عنه ، وفيما ذكر تشويقٌ له ، وكلُّ ذلك إنما يكون فيما له شأن وفخامة وكونه موحياً إليه من قوله – أتاك – " (٣) .

و " الحديث " هنا معناه الخبر العظيم ، أو الأمر الغريب الذى يتناقله الرواة من الناس وغيرهم جيلاً بعد جيل ، وتتحادث به الرُّكبان فيقال هو حديث الناس وخبر الزّمان ، وهو هنا استعارة مكنية حيث شُبِّه الخبر العظيم بإنسان يأتى وتمَّ حذف المشبَّه به ودُلَّ عليه بشئ من خوّاصه وهو الإتيان ، وإثبات الإتيان للحديث تخييل .

و " الضّيف " فى الأصل الميل يقال : ضِفْتُ إلى كذا أى مِلْتُ وضاقت الشّمس للغروب وتضيَّفت ، والضّيف من مَالَ إليك نازلاً بك ، وصارت الضّيافة متعارفة فى القِرىَ ، وأصل الضّيف مصدره ، ولذلك استوى فيه

---

(١) الأساليب الإنشائية /٢٣٧ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) الكشاف ١٧/٤ ، تفسير البيضاوى ١٨٤/٥ ، أبو السعود ١٣٩/٨ ، حاشية الشهاب ٩٧/٨ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٤/٤ .

الواحد والجمع فى عامَّة كلامهم ، وقد يجمع فيقال : أضيافٌ وضيوفٌ وضيفان [١] " .

والمراد بهم هنا الملائكة الذين أرسلهم الله وأظهرهم لإبراهيم – عليه السلام – فأخبروه بأنهم مرسلون من الله تعالى لتنفيذ العذاب لقوم لوط ، وسمَّاهم الله ضيفاً نظراً لصورة مجيئهم فى هيئة الضَّيف كما سمَّى الملكَين الذين جاءا داود خصماً فى قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ [٢] ، " وذلك من الاستعارة الصُّورية ، وفى سفر التكوين من التوراة : أنهم كانوا ثلاثة ، وعن ابن عباس : أنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وعن عطاء : جبريل وميكائيل ومعهما ملَكٌ آخر ، وقيل : كانوا اثنى عشر ملكاً ، وقيل : كانوا عشرة ، ولعلَّ سبب إرسال ثلاثة ليقع تشكُّلهم فى شكل الرِّجال لما تعارفه الناسُ فى أسفارهم أن لا يقلَّ ركبُ المسافرين عن ثلاثة رفاق ، وذلك أصل جريان المخاطبة كما فى قوله – ﷺ – " الواحد شيطان والاثنان شيطانان والثلاثة ركب [٣] " ، وقد يكون سبب إرسالهم ثلاثة أنَّ عذاب قوم لوط كان بأصناف مختلفة لكل صنف منها ملكه الموكَّل به " [٤] .

وقال الشِّهاب الخفاجيُّ : " وسَمَّاهم ضيفاً أى مع أنهم ليسوا كذلك لأنهم كانوا فى صورة الضَّيف ، ولأن إبراهيم – عليه الصَّلاة والسلام – حسبهم

---

(١) المفردات / ٣٠٠ مادة ضيف .

(٢) ص / ٢١ .

(٣) المستدرك على الصحيحين ١٠٢/٢ من حديث أبى هريرة وهو صحيح الإسناد على شرط مسلم .

(٤) التحرير والتنوير ٣٥٧/٢٦ ، ٣٥٨ ، تفسير روح البيان ٣٦٠/٩ .

ضيوفاً ، فالتَّسمية على مقتضى الظَّاهر والحسبان " (١) .

وأضاف سبحانه وتعالى هؤلاء الملائكة ووصفهم بضيف إبراهيم لنزولهم عليه وإضافته – عليه السلام – لهم وتكريمهم كما يفعل المُضيِّفُ بمضيفه إكراماً وحبًّا . ووصف الضَّيف بـ " المكرمين " إمَّا لأنهم مكرمون عند الله تعالى بالعصمة والتأييد والاصطفاء والقربة والسفّارة بين الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ (٢) ، أو عند إبراهيم بالخدمة حيث خدمهم بنفسه وبزوجته ، وأيضاً بطلاقة الوجه وتعجيل الطَّعام وبأنهم ضيف كريم لأن إبراهيم أكرم الخليقة ، وضيف الكريم لا يكون إلا كريماً " (٣) .

وتعريف " المكرمين " بأل الجنسية ، وذلك لأن المقصود فردٌ غير معيَّن من أفراد الجنس أى جنس الملائكة ، وإنَّما المقصود بهم مَنْ جاءوا إبراهيم – عليه السلام – ممَّن ثبت لهم هذا الوصف " المكرمين " ، وبدأ سبحانه وتعالى بقصَّة إبراهيم وإن كانت متأخِّرة عن قصَّة عاد لأنها أقوى فى غرض التسلية لرسول الله – ﷺ – وقرأ عكرمة : " المكرَّمين " بالتشديد مبالغة فى كرمهم أو إكرامهم سواءٌ عند الله تعالى أو عند إبراهيم – عليه السَّلام – .

<u>بدء الحوار بين الضَّيف ومُضيفهم :</u>

قال تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا ﴾ . قوله : ﴿ إِذْ دَخَلُوا ﴾ ظرفٌ للحديث فالمعنى : هل أتاك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه ، فهو

---

(١) حاشية الشهاب ٩٧/٨ ، روح المعانى ١١/٢٧ .

(٢) الأنبياء /٢٦ .

(٣) تفسير الخازن ومعه البغوى ٢٤٤/٦ ، زاد المسير ٢٥٤/٧ ، تفسير روح البيان ١٦٠/٩ .

ظرفٌ للحديث لأنه صفة فى الأصل أو للضيّف ، أو لقوله : " المكرمين " إن أريد إكرام إبراهيم لأن إكرام الله تعالى إيَّاهم لا يتقيَّد ، أو منصوب بإضمار اذكر " (١) . ووضع المضمر فى " عليه " موضع المظهر " على إبـــراهيم ، أبلغ لتقدُّم الحديث عنه صراحة فلا داعى لذكره بالاسم الصَّريح حتى لا يعدَّ عبثاً ولكونه معلوماً وقوله : ﴿ فَقَالُوا سَلامًا ﴾ معطوف على قوله :﴿دخلوا﴾، ﴿ سلاماً ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره : نُسلَّم عليك سلاماً ، وهذا من باب الإيجاز بالحذف لدلالة الحال والمقال ، ومن قال بحذف الفعـــل : أبـــو حيَّان فى البحر لأن المصدر سادٌّ مسدَّه فهو من المصادر التى يجب حـــذف أفعالها (٢) " .

ويرى ابن عطيَّة : أن النَّاصب لـــ " سلاماً " هو الفعل " قالوا " حيـــث يقول : " ويتجه فيه – أى فى – سلاماً – أن يعمل فيه – قالوا – علـــى أن نجعل – سلاماً – بمنزلة قولاً ، ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا تحية وقـــولاً معناه : – سلاماً – ، وهذا قول مجاهد (٣) " .

وقيل إن : الفاء إشارة إلى أنهم لم يخلّوا بأدب الدُّخول بل جعلوا السلام عقيب الدُّخول (٤) " ، وقوله : " قال سلام " أى عليكم سلامٌ أو سلامٌ عليكم ، وسوّغ الابتداء بالنكرة لتضمنه معنى الدُّعاء ن وعدل إلـــى الرَّفـــع لقصـــد الثبات ، وديمومة السلام حتى تكون تحيته أحسن من تحيتهم .

قال ابنُ القيّم – رحمه الله – مبيّناً السِّر فى نصب سلام ضيف إبراهيم من الملائكة ورفع سلامه – عليه السلام – : " فالجواب أنك قد عرفت قـــول

---

(١) روح المعانى ١١/٢٧ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٤/٤ ، الدُّرُّ المصون ١٨٨/٦ .

(٢) البحر المحيط ١٣٨/٨ .

(٣) المحرر الوجيز ١٧٧/٥ .

(٤) تفسير روح البيان ١٦١/٩ .

النُّحاة فيه أنَّ سلام الملائكة تضمَّن جملة فعلية لأن نصب السلام يدلُّ على سلّمنا عليك سلاماً ، وسلام إبراهيم تضمّن جملة إسمية لأنَّ رفعه يدلُّ على أنَّ المعنى سلام عليكم ، والجملة الإسمية تدلُّ على الثُّبوت والتَّقرُّر ، والفعليه تدلُّ على الحدوث والتجدُّد . فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه ، وكان له من مقامات الرَّدِّ ما يليق بمنصبه – ﷺ – وهو مقام الفضل إذ حيَّاهم بأحسن من تحيتهم . هذا تقرير ما قالوه ([1]) " ، ثم يقول – رحمه الله – : " وعندى فيه جوابٌ أحسنُ من هذا وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة فنصب قوله : – سلاماً – انتصاب مفعول القول المفرد كأنه قيل : قالوا قولاً سلاماً وقالوا سداداً وصواباً ونحو ذلك فإن القول إنما تحكى به الجمل ، وأمَّا المفرد فلا يكون محكياً به بل منصوباً به انتصاب المفعول به ([2]) " .

وفصل قوله : " قال سلام " عن قولهم : " فقالوا سلاماً " وترك العطف قصداً إلى الاستئناف البيانىّ لأن قوله : " فقالوا سلاماً " أثار سؤالاً . كأنَّ قائلاً قال : فماذا قال إبراهيم ؟ أو ماذا كان ردُّه فى جواب سلامهم ؟ فقيل : قال سلام أى حيَّاهم تحية أحسن من تحيتهم ، ففصل قوله لاختلاف المتكلمين ، وتحيتهم كانت بالجملة الفعلية الدَّالَّة على الحدوث ، وتحيته بالجملة الإسمية الدَّالَّة على دوام السلام منه وثباته لهم دلالة على عظم التكريم وحسن الضِّيافة .

قال الإمام عبد القاهر – رحمه الله – : " واعلم أنَّ الذى تراه فى التنزيل من لفظ – قال – مفصولاً غير معطوف ، وهذا هو التَّقرير فيه ،

([1]) بدائع الفوائد ١٥٧/٢ .

([2]) بدائع الفوائد ١٥٨/٢ .

والله أعلم – وذكر الآيةَ – جاء على ما يقع فى أنفس المخلوقين من السؤال . فلما كان فى العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم : – دخل قومٌ على فلان فقالوا كذا – أن يقولوا : – فما قال هو – ؟ ويقول المجيب : – قال كذا – ، أُخْرِجَ الكلامُ ذلك المُخْرَج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه ، وسُلِكَ باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه ([١]) " ، وهنا تمَّ حذفُ المسند إيجازاً لدلالة الحال لفهمه من سياق الكلام .

وقيل : " سلام " خبر لمبتدأ محذوف أى أمرى سلام ، وقرئ : " سلاماً قال سِلْماً بكسر السين وإسكان اللام نصباً ورفعاً ، والسِّلْمُ هو السلام، وقدَّره فى البحر المحيط على معنى : نحن أو أنتم سِلْمٌ ([٢]) . نسبة إلى السلام فلا تقع منهم أذى أو مكروه فنسبهم إلى السلام فهم أنفسهم أو فى أنفسهم سلام .

وقوله : " قوم منكرون " خبر لمبتدأ محذوف تقديره : أنتم قومٌ ، وهو من حذف المسند إليه إيجازاً لدلالة الحال استغناء بفهمه من فحوى الكلام ومقتضى الخطاب أنكرهم – عليه السلام – للسلام الذى هو عَلَمُ الاسلام ، أو لأنهم – عليهم السلام – ليسوا ممَّن عهدهم من الناس ، أو لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس ([٣]) .

قال أبو حيَّان – رحمه الله – : " قال أبو العالية أنكر سلامهم فى تلك الأرض وذلك الزمن ، وقيل : لا نميِّزهم ولا عهد لنا بهم ، وقيل : كان هذا سؤالهم كأنه قال : أنتم قوم منكرون فعرِّفونى مَنْ أنتم ، و – قوم – خبر

([١]) دلائل الإعجاز /٢٤٠ ت الشيخ شاكر .

([٢]) البحر المحيط ١٣٩/٨ .

([٣]) روح المعانى ١١/٢٧ .

مبتدأ محذوف قدَّره أنتم والذى يناسب حال إبراهيم – عليه السلام – أنه لا يخاطبهم بذلك إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى بل يظهر أنه يكون التقدير : هؤلاء قوم منكرون ، وقال ذلك مع نفسه أو لمن كان معه من اتباعه وغلمانه بحيث لا يسمع ذلك الأضياف (١) " .

وقال الخازن : " – قوم منكرون – أى غرباء لا نعرفكم . قال ابن عبَّاس قال فى نفسه هؤلاء قوم لا نعرفهم ، وقيل : إنما أنكر أمرهم لأنهم دخلوا بغير استئذان ، وقيل : أنكر سلامهم فى ذلك الزمان وفى تلك الأرض (٢) " .

ويجوز أن يكون قوله – عليه السلام – : " قومٌ منكرون " للتَّعرُّف عن حالهم كأنه قال : أنتم قومٌ لا نعرفكم مَنْ أنتم ؟ كقولك لمن لقيك : أنا لا أعرفك تريد منه عرِّف لى نفسك وصِفْهَا .

كرم الضِّيافة :

قال تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ . الجملة هنا معطوفة على مقدَّر يقتضيه السياق . أى فبادر إلى إكرامهم دون أن يشعرهم لأنَّ من أدب الضِّيافة أن يباده – يفاجئ – المضيِفُ ضيوفه بالقِرى من غير أن يشعروا به حذراً من أن يكفُّوه (٣) " ، والفعل " راغ " من الرَّوغان وهو الميل إلى الشئ ونحوه .

---

(١) البحر المحيط ١٣٩/٨ .

(٢) تفسير الخازن وبهامشه البغوى ٢٤٥/٦ ، فتح القدير ١٠٨/٥ ، تفسير روح البيان ١٦١/٩ .

(٣) إعراب القرآن وبيانه ٣١٣/٩ .

قال الراغب : " الرَّوْغُ الميل على سبيل الاحتيال ، ومنه راغ الثَّعلب يروغ روغاناً ، وطريق رائغ إذا لم يكن مستقيماً كأنه يروغ " (١) .

والمراد به في الآية الميلُ سرَّاً . فالاختفاءُ معتبرٌ في مفهوم الرَّوْغ أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه لأنَّ هذا من أدب المُضيف مع ضيفه .

وهذا يفيد أنَّ إبراهيم – عليه السلام – مال عن المكان الذي حلَّ فيه هؤلاء الضيف إلى البيت الذي يستقرُّ فيه أهله وقيل إنه كان جالساً أمام باب خيمته تحت شجرة ، وأنه أنزل الضيوف تحت الشجرة .

ووضَّح العلاَّمةُ الزمخشريُّ هذا الروغان بقوله : " إنَّ إخفاء إبراهيم ميله إلى أهله من حُسْن الضِّيافة كيلا يوهم الضَّيف أنه يريد أن يحضر لهم شيئاً فلعلَّ الضَّيف أن يكفَّه عن ذلك ويعذره " (٢) .

والفاء في قوله : " فراغ " تشعر بأنه – عليه السلام – بادر بالذَّهاب ولم يمهل ، وللدلالة على أنَّ هذه الأفعال وقعت في سرعة ، والإسراع بالقرى من تمام الكرم وقوله : ﴿ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ الفاء فيه فصيحة أفصحت عن جمل محذوفة ، والباء للتَّعدية ، والعجل ولد البقرة لتصوُّر عجلته التي تعدم منه إذا صار ثوراً أو بقرة ، والسمن لكونه من جنس السمن وتولِّده عنه ، والمعنى فذبح عجلاً سميناً لأنه كان عامَّة ماله البقر ، واختار السمين زيادة في إكرامهم فحنذه أي شواه فجاء به " (٣) .

قال الألوسي : " والفاء فصيحة أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بكمال سرعة المجئ بالطَّعام أي فذبح عجلاً فحنذه فجاء

---

(١) المفردات /٢٠٨ مادة " روغ " .

(٢) الكشاف ١٨/٤ ، التحرير والتنوير ٣٥٩/٢٦ .

(٣) تفسير روح البيان ١٦٢/٩ .

به ، وقال بعضهم إنه كان معدًّا عنده حنيذاً قبل مجيئهم لمن يَرِدُ عليه من الضيوف فلا حاجة إلى تقدير ما ذكر ، والمشهور اليوم أنَّ الذَّبح للضَّيف إذا ورد أبلغ فى إكرامه من الإتيان بما هيئ من الطَّعام قبل وروده ، وكان كما روى عن قتادة عامَّة ماله – عليه السلام – البقر ولو كان عنده أطيب لحماً منها لأكرمهم به " (١) .

وقوله : " فقرَّبه إليهم " معطوف على ما تقدَّم ، والمراد منه : أنه – عليه السلام – وضعه لديهم حسبما هو المعتاد ليأكلوا فلم يأكلوا ولمَّا رأى منهم ترك الأكل أوجس منهم خيفة ، وقيل : وضعه قريباً منهم ، أى لم ينقلهم من مجلسهم إلى موضع آخر بل جعل الطَّعام بين أيديهم ، وهذا من تمام الإكرام للضَّيف بخلاف ما يطعمه العافى والسَّائل فإنه يُدْعى إلى مكان الطَّعام " (٢) .

وقول : " ألا تأكلون " بدل اشتمال من قوله : " فقرَّبه إليهم " ومن هنا فصل عنه لكمال الاتِّصال ، و " ألا " أداة استفهام و " لا " نافية ، والاستفهام هنا غرضه العرض أو الإنكار منه لعدم تعرُضهم للأكل مع حثِّه عليه ، ومعنى العرض هنا رغبته – عليه السلام – فى حصول الأكل منهم ، لأن معنى العرض هو الرَّغبة فى حصول الفعل الذى تدخل عليه ، وهى هنا متعينة للعرض لوقوع فعل القول بدلاً من فعل " قرَّبه إليهم " ، والعرض فى كلامه – عليه الصلاة السلام – عقب وضع الطَّعام بين أيديهم زيادة فى الإكرام بإظهار الحرص على ما ينفع هؤلاء الأضياف ، وإن كان وضع الطعام بين أيديهم كافياً فى تمكينهم منه .

---

(١) روح المعانى ١٢/٢٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٥٩/٢٦ .

قال الإمام عبد القاهر مبيِّناً سبب ترك العطف هنا : " وقوله : قال ألاَ تأكلون ، وذلك أن قوله – فجاء بعجل سمين . فقرَّبه إليهم – يقتضى أن يتبع هذا الفعل بقول ، فكأنه قيل والله أعلم : – فما قال حين وضع الطَّعام بين أيديهم – ؟ فأتى قوله : – قال ألاَ تأكلون – ؟ جواباً عن ذلك (١) " أى فمن هنا وجب الفصل .

وذكر المفسِّرون أنه قد ورد فى بعض الآثار أنهم قالوا : " إنَّا لا تأكل إلاَّ ما أدَّينا ثمنه فقال – عليه السلام – : إنى لا أبيحه لكم إلاَّ بثمن قالوا : وما هو ؟ قال : أن تُسمُّوا الله تعالى عند الابتداء وتحمدوه عزَّ وجلَّ عند الفراغ ، فقال بعضهم لبعض : بحقٍّ اتخذه الله تعالى خليلاً (٢) " .

خوفٌ وتوجُسٌ وعدمُ طمأنينة :

قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ جاء هذا القول مبيناً حاله – عليه السلام حين رآهم لا يأكلون ، والفاء فصيحة . أفصحت عن جملة مقدَّرة يقتضيها ربطُ المعنى ، أى فلَّما لم يأكلوا ورأى امتناعهم وإصرارهم على عدم الأكل أوجس منهم خيفة ، ظنَّاً منه أنهم يريدون إيقاع السُّوء به ، والوجس هو الصَّوت الخفيُّ كالإيجاس وذلك فى النفس أى اضمر فى نفسه خيفة متوهِّماً أنهم أعداء جاءوا بالشرِّ لأن من عادة مَنْ يجئ بالشرِّ والضَّر أن لا يتناول من طعام مَنْ يريد إضراره ، ولهذا قيل : مَنْ لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك .

وقيل : وقع فى نفسه – عليه السلام – أنهم ملائكة أرسلوا لعذاب ، فلَّما رأوا توجسَّه وخوفه منهم وفزعه من أمرهم طمأنوه وآنسوه بقولهم :

---

(١) دلائل الإعجاز / ٢٤٠ ت الشيخ شاكر .

(٢) المحرر الوجيز ١٧٨/٥ ، روح المعانى ١٢/٢٧ ، تفسير روح البيان ١٦٢/٩ .

﴿ قَالُوا لا تَخَفْ ﴾ بفصلها عمَّا سبق لأن الجملة الأولى أثارت سؤالاً وهو فما كان حالهم حين رأوا منه الهلع والخوف فجاءت هذه الجملة الثانية بالطمأنينة والآمان مظهرين له أنهم رسل الله تعالى ففصلت لشبه كمال الاتِّصال وهو من المواطن التى يجب فيها الفصل بين الجمل – كما هو معلوم – ثم لم ينتهِ أمرهم عند طمأنته وإعطائه أماناً بل عدوًا الأمر إلى أرفع من هذا فجاء قوله : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ ، والنهىُ فى قولهم : ﴿ لا تَخَفْ ﴾ مرادٌ به التَّسلية والتَّصبُّر والطمأنينة والآمان .

وقوله : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ معطوف على جملة النهىِّ فى قوله : ﴿ قَالُوا لا تَخَفْ ﴾ ولفظ البشارة محبَّبٌ إلى النفس لاسيما إذا كان من كرام إلى كريم فهؤلاء موصوفون بكونهم مكرمين ثم ما كان من إبراهيم فقد بالغ فى إكرامهم بما يليق به وبهم فلابدَّ أن ينال حظًّا وافراً من هذا فجاءت البشارة بلفظ الفعل الماضى هنا دلالة على تحقُّق وقوعها منهم فعلاً ، وهى جملة معطوفة على سابقتها ، إذ الأولى نفت الخوف ورفعت الحرج ، والثانية بشَّرت ، وليست بشارة عادية بطول وزيادة ثراء ونحوه بل بشارة بأغلى شئ وهو أملٌ طالما راود نفس إبراهيم – عليه السلام – وزوجه ، ولكن أنىَّ له ذلك مع هذا السنِّ الكبير والعمر المتقدِّم فى غابر الزمن ، ولكن ها هو ذا يتحقَّق مع هذه البشارة إنه الطِّفل أو الغلام الذى كان يتمنَّاه يتحقَّق الآن ، وليس غلاماً عادياً كسائر الغلمان بل هو العليم الذى سيصير أمره وشأنه إلى هذا على طريق المجاز المرسل باعتبار ما يصير إليه أمره ، ويكون عليه حاله ، وأنه سيكمل علمه إذا بلغ وهو إسحاق – عليه السلام – وَلَدُ سارة وقد وقعت قصَّة بشارته فى التَّوراة ، أمَّا الذى ذكرت البشارة بكونه حليماً فى سورة الصَّافات فى قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ (١) فهو إسماعيل – عليه

---

(١) الصَّافات /١٠١ .

السلام – ولدُ هاجر التى كانت فتيّة فى مقتبل عمرها ، أمّا سارة فقد كبر سنُّها ولم تلد إلاّ بعد أن أيست .

قال الإمام الفخر – رحمه الله – : " قوله ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ ﴾ حيث فهّموه أنهم ليسوا ممّن يأكلون ، ولم يقولوا لا يصلح لنا الطّعام والشّراب ، ثم أدب آخر فى البشارة أن لا يخبر الإنسان بما يسرُّه دفعة فإنه يورث مرضاً يدلُّ عله أنهم جلسوا واستأنس بهم إبراهيم – عليه السلام – ثم قالوا نبشّرك ثم ذكروا أشرف النّوعين وهو الذّكر ولم يقتنعوا به حتى وصفوه بأحسن الأوصاف فإن الابن يكون دون البنت إذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخُلق والابن بالضدّ ، ثم إنهم تركوا سائر الأوصاف من الحسن والجمال والقوّة والسّلامة واختاروا العلم إشارة إلى أنّ العلم رأس الأوصاف ورئيس النُّعوت " (١) .

وذكر المفسّرون : " عن يحيى بن شدّاد مسح جبريل – عليه السلام – العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمّه فعرفهم وأمن منهم ، وعلى ما روى عن ابن عباس أنّ هذا المجرّد تأمينه – عليه السلام – ، وقيل : مع تحقيق أنهم ملائكة وعلمهم لما أضمر فى نفسه إمّا بإطلاع الله تعالى إيّاهم عليه ، أو إطلاع ملائكته الكرام الكاتبين عليه وإخبارهم به ، أو بظهور أمارته فى وجهه الشريف . فاستدلوا بذلك على الباطن – وبشّروه – وفى سورة الصّافات – فبشّرناه – أى بواسطتهم – بغلام – هو عند الجمهور إسحاق بن سارة ، وهو الحقُّ للتنصيص على أنه المبشّر به فى سورة هود فى قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٢) والقصّة واحدة – عليم –

(١) التفسير الكبير ٢١٥/٢٨ .
(٢) هود / ٧١ .

عند بلوغه واستوائه ، وفيه تبشير بحياته وكانت البشارة بِذَكَر لأنـه أسـرُّ للنفس وأبهج ، ووصفه بالعلم لأنها الصِّفة التى يختصُّ بها الإنسان الكامل لا الصُّورة الجميلة والقوة ونحوهما ، وفى صيغة المبالغة - عليم - مع حـذف المعمول ما لا يخفى ممَّا يوجب السُّرور ، وعن الحسن - علـيم - نبـيٌّ ، ووقعت البشارة بعد التَّأنيس ، وفى ذلك إشارة إلى أنَّ درء المفسدة أهمُّ مـن جلب المصلحة " (١) .

حال سارة عند البشارة :

قال تعالى حاكياً حال سارة عندما سمعت بشارة الملائكة : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ وهو معطوف على مقدَّر لابدَّ منه ، وهو لمَّا سمعت سارة البشارة بالغلام أقبلت وهى تصيح . أى أقبلت على مجلس إبراهيم - عليه السلام - مع ضيفه المكرمين فى بيته حيث كانت فى زاوية تنظر إليهم .

قال الإمام الفخر : " أى أقبلت على أهلها ، وذلك لأنهـا كانـت فـى خدمتهم ، فلَّما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عـنهم فـذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل ، ولـم يـذكر بلفـظ الإدبـار عـن الملائكة " (٢) .

والتعبير بالفعل الماضى لتحقُّق وقوع هذا الإقبال منها وحكاية لحالتها الماضية ، ووضع المضمر موضع المظهر فى قوله : " امرأته " دون امرأة

---

(١) البحر المحيط ١٣٩/٨ ، جامع البيـان ١٢٨/٢٦ ، ١٢٩ ، أبـو السـعود ١٤٠/٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٣/١٧، روح المعانى ١٢/٢٧، ١٣ ، تفسير النسفى /١١٦٩ ، تفسير روح البيان ١٦٢/٩ .

(٢) التفسير الكبير ٢١٥/٢٨ ، تفسير روح البيان ١٦٢/٩ .

إبراهيم لسبق الحديث عنه وللإيجاز والاختصار للعلم بأنها زوجه – عليه السلام – .

وقوله : ﴿ فِي صَرَّةٍ ﴾ جارٌ ومجرور متعلِّقان بمحذوف وقع حالاً أى صرَّة ، " وفى " للظَّرفية المجازية ، وهى الملابسة أى متلبِّسة أو ملابسة لهذه الحال لإنكارها ذلك أو لتعجبُّها ممَّا بشَّروه وإيَّاها به ، و " صرَّة " هى الصيحة الشديدة ، أى صاحت صيحة شديدة كما هى عادة النِّساء حين يسمعن شيئاً من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهنَّ عند التَّعجُّب ، أو الاستحياء كقولها يا ويلتى أو أوهِ أو رنَّتها .

وقال الرَّاغب : " والصَّرَّة الجماعة المنظمُّ بعضهم إلى بعض كأنهم صُرُّوا أى جمعوا فى وعاء " (١) ،والمعنى على هذا : أقبلت فى جماعة من النساء كُنَّ عندها وهى واقفة متهيئة لخدمة هؤلاء الملائكة الذين نزلوا ضيوفاً عليهم . وقوله " فصكَّت وجهها " معطوف على قوله : " فأقبلت " من عطف الجمل على الحمل لاتفاقهما فى الخبرية ، ومن هنا وصلت إحدى الجملتين بالأخرى بالفاء العاطفة ، والصَّكُّ هو اللَّطم ، وصكُّ الوجه عند التعجبُ عادة للنساء فى أيامهم .

وقيل : إنها " لطمته من الحياء لما أنها وجدت حرارة دمِّ الحيض "(٢).

وقوله : ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ معطوف على ما سبق ، أى قالت : متعجِّبة من بشارته أنا عجوز مع حذفها المسند إليه لضيق المقام إمَّا تعجُّباً وإمَّا إنكاراً ، وحذف المسند إليه لوقوعه بعد القول ، والعجوز فعول بمعنى فاعل ممَّا يستوى فيه المذكَّر والمؤنَّث وهو هنا مشتَّقٌ من العجز ويطلق على

---

(١) المفردات /٢٧٩ مادة " صَرّ " .

(٢) تفسير روح البيان ١٦٣/٩ .

كبر السنّ لملازمة انعجز للكبر غالباً ، وسميّت عجوزاً لعجزها عن كثير من الأمور ، وصيغة المبالغة عجوز للدلالة على بلوغها فى السنّ مبلغاً عظيماً وطعنت فيه حتى ظنّت استحالة الحمل معه و " عقيم " أى عاقر لا تلد ، وهو صفة لقوله : " عجوز " ، وهو على زنة فعيل بمعنى مفعول مشتّق من عَقَمها الله إذا خلقها لا تحمل بجنين ، وكانت سارة كذلك ، فقد أرادت : أنا عجوز عاقر لم ألد قطُّ فى شبابى فكيف ألد الآن ولى تسع وتسعون سنة ، وكانت سارة عقيماً لم تلد قطُّ فلّما لم تلد فى صغرها ، وعنفوان شبابها ثم كَبُر سنُّها، وبلغت سنَّ الإياس استبعدت ذلك ، وتعجَّبت فهو استبعاد بحكم العادة لا تشكُّكُ فى قدرة الله سبحانه وتعالى .

والخلاصة : " أنها استبعدت الولادة لسببين : كِبَر السنّ والعقم ، وقد كانت لا تلد فى عنفوان شبابها والآن قد عجزت وأيست ، فأجدر بها الآن ألا تلد ، فكأنها قالت : ليتكم دعوتم دعاءً قريباً من الإجابة ، ظنّاً منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضّيف من الدّعوات الطيِّبات كما يقول الداعى : أعطاك الله مالاً ، ورزقك ولداً ، فردّوا عليها بأنَّ هذا ليس منّا بدعاء " (١) .

بين حذف المسند إليه وذكره فى هذه القصّة :

ورد المسند إليه فى هذه القصّة مذكوراً فى سورة هود ﴿ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ (٢) ؟ ، وورد هنا فى " الذاريات " محذوفاً " وقالت عجوز عقيم " ما السرُّ ؟

أول شئ يجب الاتفاق عليه أن القصّة واحدة والبشارة واحدة والمقام واحد ، والمتكلم واحد والمخاطب واحد ، واللحظة التى حدث فيها الحذف

---

(١) التفسير الكبير ٢١٦/٢٨ ، تفسير المراغى ٢٩١/٩ .

(٢) هود /٧٢ .

والذكر – على بعد ما بين العدم والوجود – واحدة ، واللسان الذى أورد الكلام على هيئة الحذف والذكر فى أفصح كلام فى كلام الله المعجز المبين .

لقد قالت " سارة " زوج إبراهيم – عليه السلام – للملائكة – ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ فحذفت المسند إليه . وقالت : " أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلى شيخاً " ؟ فذكرت المسند إليه ، ولم يقل واحد : إن الملائكة نزلت بالبشارة مرتين ولا فى مكانين ، ولا تكلمت سارة فى الموقف الواحد مرتين ، وإنما كان ذلك قطعاً من قصَّة واحدة حكاه القرآن حكايات عدَّة ، كل حكاية ناسبت سياقها أولاً ، وحكيت بدقَّة وترجمت بوضوح نبر صوت خفىٍّ للمشاعر الموارة فى نفس " سارة " ساعتئذٍ أمَّا ذكر المسند إليه فى سورة " هود " ﴿ وأنا عجوز ﴾ فكان دليل سرور " سارة " بالبشارة لها كأنها قالت مخبرة : سألد كالصبايا وأنا عجوز ، ولم يكن تعجُّبها إنكاراً بقدر ما كان رضاً وتقريراً وانبهاراً . ﴿ أألِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ ، كما أنَ ذكرها المسند إليه نصٌّ على معنى لا يصلح فيه المفهوم والإفادة العقلية كأنها أرادت إذا كانت البشارة للعجوز ، فإننى أنا تلك العجوز . ﴿ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ ، وكلُّ هذا تقرير منها لا إنكار ، وختمت الآية بالرحمة لأهل بيت إبراهيم إذ هو بيت نبوة ومعجزات .

وجاء الحذف فى آية سورة " الذاريات " ، ﴿ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ للدلالة على شعور بالضِّيق والأسى ، والكرب ، والألم ممَّا ضاق به صدرها ، فوقع الحذف ، ودلَّ السياق على ذلك وأعان عليه ، وتأكَّدت به – مع الحذف– الدلالة، وقد اختلف السياق هنا عنه فى سورتى هود والحجر(١)، فبنى كلامها هنا فى سورة الذاريات على الإيجاز إذ السورة موجزة سريعة الإيقاع ، وألفاظها أقصر من لفظ هذه الحادثة فى سورة " هود " وصياغة

(١) الحجر ٥١– ٥٨ .

جملها مختلفة التراكيب عن سورة " الحجر " ، وجاء فى " هود " كلامُ "سارة" وأما فى " الذاريات " هنا فجاء فعلها فهى فى " هود " قائمة لـم تتحـرك ، وضحكت لم تنفعل انفعال ضيق وكرب ثم هى مع هذا – قالت ولـم تفعـل شيئاً. ﴿ أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ إنَّ هذا الشئ عجيـب " ؟ أمـا الفعل هنا فى " الذاريات " فمناسب للحذف والإيجاز حيث أقبلت فـى صَـرة وصكَّت وجهها من فعل المباغته ، والمفاجأة التى حدثت لها . ثم جـاء دور القول فوقع الحذف واعتمدت على القرينة " امرأته " التى لم تعتمد عليها فى سورة " هود " ، الأحداث فى الذاريات صَوّرت الأحداث فيها بالفـاء الدالـة على السرعة والمفاجأة العنيفة التى لم تكن تتوقعها أبداً . أما فـى الحجـر فيختلف تركيب الجمل ، من المزاوجة بين الماضـى والمضـارع وإيـراد الأحداث فى صورة الجملة الإسمية ، أو تصدير كل حادثة بالفعـل " قـال " على سبيل الحكاية والحوار (١) .

وقوله : ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ ﴾ ردٌّ من الملائكة على سـارة حـين رأوا تعجُبها وإنكارها لمَّا بشَّروها وزوجها ، وقد فصلت هذه الجملـة عـن سابقتها لأنها منًزلة منها منزلة الاستئناف البيانىّ بإثارة سؤال ، وهو فمـاذا كان ردُّ الملائكة حين رأوا ذلك منها ؟ وما كان موقفهم تجاه إجابتها لهـم ؟ ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ ﴾ ، والكاف فى قوله " كذلك " للتشبيه أى مثل قولنا : قال ربُّك فما نحن إلاَّ بمنزلة المبلِّغ ، والإشارة إلى الحادث المذكور آنفـاً ، وهو التَّبشير بالغلام العليم ، وقوله : ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أى أمر ربُّك ، وكنى عن الأمر بالقول لأنه أطلق الملزوم وهو القول وأراد لازمه وهو الأمر " فكأنهم

---

(١) ينظر فى هذا كله محاضرات فى علـم المعـانى /٩٧ – ١٠٦ د . أحمـد نـاجى ، د٠على العطار ، فى ظلال القرآن ٣٣٨٣/٢٧ .

قالوا : نحن معبِّرون نخبرك به عنه تعالى لا أنَّا نقول من تلقـاء أنفسـنا ، فالكاف فى – كذلك – منصوب المحلِّ على أنه صفة لمصدر – قال – الثانية أى لا تستبعدى ما بشَّرناه به ولا تتعجبى منه فإنه تعالى قال مثل ما أخبرناك به " (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ تعليل لقوله ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّـكِ ﴾ المقتضى أنَّ الملائكة ما أخبروا إبراهيم إلا تبليغاً من الله ، وأنَّ الله صـادق فى وعده ، وأنَّه لا مكان لتَّعجُّب لأن الله حكيم يدِّبر الأمر حسـب مشـيئته وإرادته ، وعليم لا يخفى عليه حالها من العجز والعقـم ، ولهـذا روى " أن جبريل – عليه السلام – قال لها انظرى إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة فأيقنت ، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط بل مع إبراهيم أيضاً حسبما شرح فى سورة الحجر (٢) ، وإنما لم يذكر هنا اكتفاءً بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاءً بما ذكر هنا وفى سورة هـود (٣) ، وفى الآية إشارة إلى أنه لا يجوز اليأس من فضل الله تعالى فـإن المقـدور كائن ولو بعد حين " (٤) .

وقد جاءت الجملة مؤكَّدة بـ " إنَّ " وإسمية الجملة ، وتعريف المسـند إليه بالضَّمير ، والتعريف بأل ، والتعريف بضمير الغيبة لتقدُّم ذكر ما يـدلُّ عليه عزَّ وجلَّ صراحة " قال ربُّك " ولننظر إلى إضافة ضمير الرَّبِّ إليهـا لجذب انتباهها وردِّها إلى بؤرة الربوبية الحقَّة ويجعل فى نفسها وازعاً يردُّها

---

(١) روح المعانى ١٣/٢٧ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٥/٤ ، تفسير روح البيان ١٦٣/٩ .

(٢) الحجر /٥١–٥٨ .

(٣) هود / ٧١–٧٣ .

(٤) تفسير روح البيان ١٦٣/٩ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٥/٤ ، روح المعانى ١٣/٢٧ .

إليه تعالى فهو المربىّ فمن الواجب الإيمان بما أمر به بل من الواجب الإقرار له والإذعان بحبٍّ لما أمر وقال ، " و تقديم الحكمة على العلم في الآية لأنَّ سياق الآية الكريمة يقتضى ذلك ، لأن الأمور التى تحدَّثت عنها الآية تظهر فيها الحكمة جلية واضحة وذلك فى شأن إبراهيم وزوجه – عليه السلام – وهذا تقديم بالعلَّة والسببية " (¹) .

موازنة بين آيات القصَّة فى كلٍّ من الذاريات وهود :

اقتربت أطراف القصَّة فى هاتين الصورتين وتشابهت فى بعضها واختلفت فى البعض الآخر . فمثلاً هنا : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فقد أراد : أنتم قومٌ غرباء لا نعرف من أىّ بلدة كان مقدمكم ، أو لإنكار سلامهم فى ذلك الزمان وفى تلك الأرض ، وفى هود قال : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ فغرضه أن إنكارهم إنما حصل بعد مجيئه لهم بالعجل وامتناعهم من الأكل ، أمَّا ما جاء هنا فى الذاريات فكان قبل إحضار العجل والطَّعام " وحاصل الجمع بين الموضعين أن الإنكار هنا – فى الذاريات – غيره فيما تقدَّم – فى هود – فما معنا هنا – فى الذاريات – محمول على عدم العلم بأنهم من أىّ جهة ، وما تقدَّم – فى هود – محمول على عدم العلم بأنهم دخلوا عليه لقصد الخير أو الشرّ " (²) .

وقال الشيخ زادة – رحمه الله – (³) : " فإن قيل : قال تعالى فى سورة هود : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ فدلَّ ذلك على أنَّ إنكاره – عليه السلام – حصل بعد تقريب العجل إليهم ، وقال ههنا :

(¹) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعانى /٢٤١ .

(²) حاشية الصَّاوى ١١٩/٤ .

(³) حاشية الشيخ زادة ٣٩٤/٤ ، ٣٩٥ .

﴿ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ بفاء التَّعقيب وذلك يدلُّ على أنَّ تقريب الطَّعام إليهم كان بعد حصول إنكاره فما وجه التَّوفيق ؟ فالجواب أن الإنكار الذى كان قبل العلم بأنهم من أىِّ بلدة ومن أىِّ قوم ، والإنكار الحاصل بعده بمعنى عدم العلم بأنهم دخلوا عليه بقصد الخير أو الشرِّ فإنَّ من امتنع من تناول طَّعام أهل البيت يخاف من شرِّه ولم يؤمن ضرره فإن عادة مَنْ يجئ للشر والضَّرر أن لا يتناول من طعام مَنْ يريد إضراره " ، وقال هنا : ﴿ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ وهو ضدُّ الهزيل دلالة على مدى إكرامه لهم فجاء بما يتناسب مع كرمه ، فليس الأمر إظهار الكرم بأن يُقدِّم شيئاً وكفى بل دلَّ على أنه – عليه السلام – بالغ فى الإكرام فانتقى الشئ المناسب لهؤلاء الضَّيف المكرمين وقد أنضجه شيئاً أى طبخه طبخاً . وقال فى هود : ﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ وهو المشوىُّ على الرَّضَف أى شوى بين حجرين وإنما فعل ذلك لتتصبَّب عنه اللُّزوجة التى فيه ، وهو أجود فى الإطعام والتناول ، ولا يُقدَّم اللحم كذلك إلا للمبالغة فى الإكرام والتعظيم لأنه يحتاج إلى طهى أكثر ، كذلك لا يُقدَّم اللحم بهذه الطَّريقة إلا لكلِّ عزيز على النفس غالٍ عندها . وقال هنا : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ ﴾ حيث كانت فى زاوية من زوايا البيت تنظر حال إبراهيم مع ضيفه فلَّما سمعت بشارتهم أقبلت عليهم ، وهذا دليل الحركة والتَّهيؤ . وقال فى هود : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ أى كانت على خدمتهم واقفة متهيئة للخدمة ، فهى قائمة لم تتحرَّك ، وقال هنا : ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أى ضربت جبينها تعجُّباً أو إنكاراً من فعل المباغتة والمفاجأة التى حدثت لها وقال فى هود : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ لم تنفعل انفعال ضيق وكرب ثم هى مع هذا قالت ولم تفعل شيئاً .

وقال هنا : ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ ﴾ مراداً به أمر الله تعالى فى إنجاب العجوز ، وإعطاء الرجل المسنِّ قدرة على ذلك فلا إنكار إذاً على مراده

تعالى ، وفى هود ذكر تعجبُها فردَّت عليها الملائكة بعدم التعجُّب من قدرته وإرادته تعالى لأن ، أمره بين الكاف والنون وإذا أراد إنفاذ أمر هيأ له الأسباب ﴿ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ ﴾ وفى الذاريات هنا قال : ﴿ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أى الحكيم الذى يضع الأمر فى نصابه والذى يحكم لا رادُّ لحكمه . " العليم " بما يفعل ويهب ويدبِّر ويحكم ، وفى هود قال : ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ المحمود بحقٍّ على جميع الأحوال ، الذى تحمد أفعاله ، المجيد الماجد ذو الشَّرف والكرم فلا يمنع طالباً من مطلوبه .

وقد ذكر الفخر الرَّازى فى الآيات هنا وجوهاً كثيرة : منها أنها فرجت لإهلاك قوم لوط لمجاهرتهم بالفاحشة ، ومنها لبشارتها بإسحاق على التَّقديم والتَّأخير ، بمعنى أنها بُشِّرت أولاً ثم ضحكت ، ومنها ظهور علامة الطَّمث عليها .. إلخ (١) . وضحكها فى " هود " لاطمئنان قلبها إذ البشارة لها بذكر الولد إسحاق ومن ورائه يعقوب فلم يبق لها موضع شكٍّ بأنَّ الولد يكون منها ومن زوجها إبراهيم مع شيخوخته ، وجاء ذلك ماثلاً فى تقرير مضمون جملة التذييل بـ " إنَّ " المؤكِّدة فى قولها ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ .

انتقال الحوار بين إبراهيم والملائكة :

قال تعالى حكاية عن إبراهيم – عليه السلام – : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ، والآية جملة مستأنفة محكية بدون حرف العطف لمجيئها فى محاورة إبراهيم لهؤلاء الملائكة كأنه لمَّا علم أنهم ملائكة مرسلون من قبل الله تعالى سألهم عن الشأن أو السبب الذى أرسلوا من أجله ، وما سألهم – عليه السلام – إلا بعد أن قدَّم لهم القِرى وأحسن ضيافتهم ، وهذا من أدب المضيف أن لا يسأل ضيفه عن سبب نزوله عليه إلاَّ بعد أن ينال كرم

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/١٨ ، ٢٧ .

ضيافته ، وإبراهيم – عليه السلام – لمَّا رأى حالهم كـذلك بـدأ يحـاورهم ويستفهم أمرهم فهى جملة مفصولة عمَّا سبق للاستئناف مبنية علـى سـؤال تقديره : فماذا كان حال إبراهيم لمَّا رأى منهم ذلك فكان الجواب " قال " إلخ. والفاء فى قوله : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ فصيحة من كلامه – عليه السلام – مؤذنة بكلام محذوف نشأ عن مقاولة ومحاورة بينه وبين ضيفه ، وهو من عطـف كلام على كلام متكلم آخر ويقع هذا كثيراً فى العطف بالواو كما فـى قولـه حكاية عنه – عليه السلام – : ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ (١) بعد قوله تعالى﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، وهنا محذوف تقديره : إذا كنتم مرسلين من قبل الله عزَّ وجلَّ فما شأنكم وما خطبكم الذى أرسلتم لأجله وبسـببه ؟ إذ لـيس الأمر مجرَّد بشارة بمولود يولد له . فمن الممكن أن يحدث هذا عن طريـق الوحى فالأمر أبعدُ .

قال الشيخ زادة معلِّقاً على كلام البيضاوى حول الآية (٢) : " لمَّا علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم سأل عن هـذا الأمـر العظيم الذى كان سبباً لنزولهم مجتمعين فإن الخطب يسـتعمل فـى الأمـر العظيم ، والفاء فيه للتَّعقيب أى بعدما علمت أنكم ملائكة ، وأن الملائكـة لا ينزلون إلا لأمر عظيم لأنهم عباد مكرمون عند الله تعالى فـلا يرسـلهم إلاَّ لأمر عظيم فما ذلك الأمر ؟ " .

والخطب : هو الأمر العظيم والحدث الجسيم والشَّأن المهمُّ الذى يكثـر فيه التَّخاطب وأضافه إليهم لملابستهم له وملابسته له ، وهو هنـا اسـتعارة للحالة التى جاءوا بها أو عليها ، فقد علم من حال نزول الملائكـة أنهـم لا

---

(١) البقرة /١٢٤ .

(٢) حاشية الشيخ زادة ٣٩٥/٤ .

ينزلون إلا لأمر جسيم وحدث جلل ، والاستفهام هنا مـــرادٌ بـــه الاســـتعلام والاستيضاح والتَّعجُّب من نزولهم بهذه الحالة وبهذا الاجتماع ، وقد ناداهم – عليه السلام – بصفة : " المرسلون " لأنه لا يعرف ما يسمّيهم به إلاَّ وصف أنهم المرسلون ، وهذا الوصف من أوصافهم – كما هو معلوم – ، ولهذا قيل إنه – عليه السلام : " قد ترفَّق فى خطابهم وتلطَّف بهم ، إذ نـــاداهم بأحـــبِّ صفاتهم وهى الرسالة نداءً يشعر بقربه وحبّه لهم ، يدلُّ على ذلـــك حـــذف حرف النِّداء ، ولا حرج على المضيف أن يسأل ضيفه عن أسباب ســـفره ، وعن الأعمال التى ينوى القيام بها وعن المصالح التى يسعى فى تحقيقهـــا ، فربَّما يعينه على ما يحتاج فيه إلى عون ، وربَّما يدلُّه على خير ، أو يحذِّره من الوقوع فى شرٍّ (1) " ، وتعريف المسند إليه " المرسلون " بأل التى للعهد لتقدُّم ذكرهم فهم معهودون بالرِّسالة والتَّشريف بها ، والتعبير باسم المفعـــول " المرسلون " إذ المرسل لهم معلوم وهو الله فهم مرسلون لغرض ومقصد .

جواب الملائكة إبراهيم وبيان علَّة نزولهم :

قال تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ ، وهذا القول جواب عن سؤال إبراهيم – عليه السلام – فى قوله : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ ، وهى جملة مفصولة عن سؤال إبراهيم لهؤلاء الملائكة ، و " إنَّا " ضمير متكلم واسمه ، وجملة " أرسلنا " فى محل رفع خبر للمبتدأ ، وتعريف المسند إليه بضـــمير التَّكلُّم لأن المقام يقتضى ذلك فهو حديث بينهم وبـــين إبـــراهيم كـــانوا هـــم المجيبين عنه فى هذه المرَّة ، وبناء الفعل " أرسلنا " للمجهول للعلم بالمرْسِل وهو الله تعالى فحذف إيجازاً واختصاراً للعلم به ، وتوكيد الجواب لأنهم رأوا الإنكار فى خطابه من مجيئهم ونزولهم فخبروه عن سِّر هذا المجـــئ وذلـــك

---

(1) تأملات فى سورة الذاريات /٥٩ .

النزول ، و " إلى قوم " جارٌ ومجرور متعلِّقان بالفعل " أرسلنا " والمراد بهم قرى قوم لوط ، ولم يتقدَّم لهم ذكر إلاَّ أنَّ السياق قد دلَّ عليه ، والمراد بكونهم " مجرمين " أنهم عاصون لله كافرون لنعمته فاستحقُّوا العذاب والهلاك ، وأصل الجرم هو القطع . فالمجرم هو القاطع للواجب بالباطل فهؤلاء قد أجرموا بأن قطعوا آصرة الإيمان بالكفر ، وارتكبوا أفحش الجرائم وأفظعها وأشدَّها وهو " اللِّواط " وهى قرى " سدوم " و " عمورية " وكلُّها قرى قوم لوط – عليه السلام – . فكأنَّ هؤلاء الضَّيف من الملائكة نزلوا إليه لأداء مهمة أرسلوا من أجلها إذاً .

بدء الهلاك لقوم لوط :

قال تعالى : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ هذا تعليل لقوله : ﴿ أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ والإرسال فى الآية مجازٌ عن الرَّمى على سبيل الاستعارة التبعية والجامع الإهلاك والإصابة فى كلٍّ ، وقيل : إنَّ هذا الإرسال بعد أن أصعدوا الحجارة إلى الجوِّ ، وأرسلت عليهم كما سمَّاه القرآن مطراً فى بعض آياته (1) . وبين " أرسلنا " و " لنرسل " جناس الاشتقاق لاختلاف معنى الفعلين ، فالأول بمعنى البعث بالأمر أو بالشئ ، والثانى بمعنى الرَّمى والإهلاك . وقُدِّم الجارّ والمجرور " عليهم " على المفعول للاختصاص أى على هؤلاء المجرمين لا على غيرهم فهى خاصَّة بهم فإن هذه الحجارة كان مكتوباً على كلٍّ واحد منها اسم صاحبه كما سنعرف فى قوله : ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ الآتى ، فهى مرسلة عليهم هم خصوصاً بدليل نجاة من آمن مع لوط – عليه السلام – . وقوله : " حجارة

(1) الأعراف /٨٤ ، هود /٨٢ ، الحجر ٧٤ ، الفرقان /٤٠ ، الشعراء /١٧٣ ، النمل /٥٨ .

من طين " الحجارة اسم جمع للحجر ، ومعنى كون الحجارة من طـين : أنَّ أصلها طينٌ تحجرَّ بصهر النَّار ، وهى حجارة بركانية من كبريـت قـذفتها الأرض من الجهة التى صارت بحيرة تدعى اليوم بحيـرة لـوط أصـعدها ناموس إلهىٌّ بضغط جعله الله يرفع الخارج من البركان إلى الجوّ فنزلت على قرى قوم لوط فأهلكتهم (١) " .

والإهلاك بالحجارة أشدُّ هلاكاً لاسيما إذا كان من طين محمَّاة لمَّا أهلك الله أبرهة عام الفيل ، وكما يكون يوم القيامة فى قوله : ﴿ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِـي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (٢) ، وفى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (٣) .

وقوله : " من طين " نعت للحجارة أى من طين مطبوخ كالآجر وهى من الصَّلابة كالحجارة ، وفيها علامات أُعدَّت لهلاك المسـرفين ، وقولـه : " من طين " فيه تعريض بأصل الخلقة التى خلقوا منها ، وأن الإهلاك سيكون بما خُلِقُوا منه زيادة فى الإهانة والنَّكال . فما خلقوا منه أهلكوا به .

وقوله : " من حجارة " كما يقول المفسِّرون : " استُدِلَّ بـه علـى أنَّ اللائط يرجم بالأحجار ، وكان فى تلك المدائن ستمائة ألف فأدخـل جبريـل جناحه تحت الأرض فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السَّماء أصواتهم ثم قلبها ثم أرسل الحجارة على مَنْ كان خارجاً عنها فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشذَّاذهم فلم يفلت منهم أحد " (٤) ، ولو لم يقل : " من طـين " لتـوّهم أنَّ

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٧ .

(٢) البقرة /٢٤ .

(٣) التحريم /٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤٥/١٧ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٥/٤ ، حاشية الجمل ٢٩٢/٧ ، حاشية الصاوى ١٢٠/٤ .

المراد من الحجارة البَرَدُ بقرينة إرسالها من السَّماء فلَّما قيل : " من طـــين " اندفع ذلك التَّوهُّم ، ولله أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غيـــر نار ولا غبار ، ومعلوم أنَّ الحجارة التى من طين نزولها من السماء أغرب وأعجب من غيرها ، لأنها فى العادة لابدَّ لها من مكث فى النَّار .

<u>حجارة لا تخطئ أصحابها :</u>

قال تعالى : ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ هذه الآية صـــفة ثانيـــة للحجارة ، أو حال منها لأنها وصفت بالجارِّ والمجرور ، والمســوَّمة هـــى المعلَّمة ، ومنها الخيل المسوَّمة ، ونصبها على الحال أى حال كونها مرسلة من خزانة الله تعالى أو معلَّمة قيل : مكتوبٌ على كلِّ حجر منها اسم صاحبه فلا يفوته أبداً ولا يخطئه ، وكانوا أشدَّ الأقوام طغياناً وأكثرهم صدوداً عـــن سبيل الله ، أو أنها خلقت باسمهم ولتعذيبهم بخلاف ســـائر الأحجـــار فإنهـــا مخلوقة للانتفاع فى الأبنية وغيرها ، وقوله : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ المراد بالظَّرفية فيه خزائن الله تعالى ، أو لأنها عُلِّمت عند الله تعالى فلا تخطئ صاحبها كما أنه لا يفرُّ منها فهى ظرفية لهذه الحجارة أى " الخـــزائن " ، والكـــاف هنـــا خطابٌ لإبراهيم – عليه السلام – . و " المسرفين " هـــم المُفْرِطـــون فـــى العصيان ، وذلك بكفرهم وشيوع الفاحشة فـــيهم ، فالمســـرفون هـــم القـــوم المجرمون ، عدل عن ضميرهم إلى الوصف الظَّاهر لتسجيل إفراطهم فـــى الإجرام ، واللام فيها للعهد أى مسوَّمة لهؤلاء المســـرفين لا لكـــلِّ مســـرف فيكون من وضع الظَّاهر موضع الضَّمير للإشارة إلى علَّـــة إعـــدادها لهـــم وإسرافهم فى الفاحشة التى قال الله تعالى فى حقِّها : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

---

(١) الأعراف /٨٠، العنكبوت /٢٨، حاشية الشيخ زادة ٣٩٥/٤، التحرير والتنوير ٧/٢٧.

قال الإمام الفخر : " فإن قيل : إذا كانت الحجارة مسوَّمة للمسرفين فكيف قالوا ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ مع أنَّ المسرف غير المجرم فى اللغة ؟ نقول : المجرم هو الآتى بالذَّنب العظيم لأن الجرم فيه دلالة على العظم ، ومنه جِرْمُ الشئ لعظمة مقداره ، والمسرف هو الآتى بالكبيرة ، ومَنْ أسرف ولو فى الصَّغائر يصير مجرماً لأن الصَّغير إلى الصَّغير إذا انضمَّ صار كبيراً ، ومَنْ أجرم فقد أسرف لأنه أتى بالكبيرة ولو دفعة واحدة فالوصفان اجتمعا فيهم . لكن فيه لطيفة معنوية ، وهى أنَّ الله تعالى سوَّمها للمسرف المصرّ الذى لا يترك الجرم والعلم بالأمور المستقبلية عند الله تعالى وهو يعلم أنهم مسرفون فأمر الملائكة بإرسالها عليهم ، وأمَّا الملائكة فعلمهم تعلَّق بالحاضر ، وهم كانوا مجرمين فقالوا : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ ﴾ نعلمهم – مجرمين – لنرسل عليهم حجارة خلقت لمن لا يؤمن ويُصرُّ ويسرف ولزم من هذا علمنا بأنهم لو عاشوا سنين لتمادوا فى الإجرام ، وكانوا كذلك فلم يبلغ أحدٌ مبلغهم فى ارتكاب الفاحشة ([1]) .

تمييز الخبيث من الطيِّب :

قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الفاء فى الآية فصيحة أفصحت عن جمل محذوفة ، وهى مجئ الملائكة إلى لوط – عليه السلام – وما حدث بينه وبين قومه إذ التقدير : فحلُّوا بقريته فأمرناهم بإخراج مَنْ كان فيها من المؤمنين فأخرجوهم ، وهذه الجملة تذييل لقصَّة المحاورة بين الملائكة وإبراهيم – عليه الصَّلاة والسلام – ، وليست من حكاية كلام الملائكة .

([1]) التفسير الكبير ٢٨/٢١٩ .

وإسناد ضمير " أخرجنا " إلى الله سبحانه وتعالى لأنه هو الآمر به للملائكة أن يبلغوه لوطاً – عليه السَّلام – ، ولأنَّ الله تعالى يسَّر إخراج المؤمنين ونجاتهم إذ أخَّر نزول الحجارة إلى أن أخرج المؤمنون وهم لوط وأهله إلاَّ امرأته " (١) .

فلمَّا أراد الله سبحانه أن يهلك المجرمين ميزَّ عنهم المؤمنين وأبعدهم منهم فَأُخْرِجَ المؤمنون تخليصاً لهم من العذاب ، ولم تجد الملائكة في هذه القرى إلاَّ بيتاً واحداً أسلم وجهه لله ظاهراً وباطناً ، وإنقاد لأوامره واجتنب نواهيه ، وهو بيت لوط والضَّمير في " فيها " يعود على قرى لوط ، والتعبير بالمضمر دون المظهر وإن كان لم يجر لها ذكرٌ لكونها معلومة مشهورة كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جملة حالية أي مَنْ كان منهم مؤمناً ، والتعريف فيه للعهد والمراد هنا المؤمنون الذين عُرِفَ منهم الإيمان وعَهِدوا به كما في قوله تعالى أمراً له – عليه الصلاة والسلام – ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ (٣) ، وذلك أنَّ الله تعالى أمر لوطاً بأن يخرج هو ومَنْ معه من المؤمنين لئلا يصيبهم العذاب ، والتعبير عنهم بـ " المؤمنين " للإشارة إلى أنَّ إيمانهم هو سبب نجاتهم أي إيمانهم بلوط – عليه السلام – وقوله : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ تفريع خبر على خبر فهي جملة موصولة بسابقتها لاتفاقهما في الخبرية ، من جملة إخبار الملائكة لإبراهيم –

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٧ بتصرُّف .

(٢) الفرقان /٤٠ .

(٣) هود /٨١ ، الحجر /٦٥ .

عليه السلام – ووجد هنا بمعنى علم أى ما علمنا فى هذه القــرى – قــرى قوم لوط – عليه السلام – لمن استقرَّ فى هذه القرى وأقاموا فيها وكانوا من أهلها ، والتعبير بقوله " بيتٍ " من باب المجاز المرسل لعلاقة المحلية فأطلق المحلُّ وهو البيت ، وأريد الحالُّ فيه وهم أهله الذين يقطنون فيه ، وهم لوط وابنتاه ، وقيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر ، وقوله : " غير" أداة استثناء من قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إذ ليس كلهم كانوا كذلك مؤمنين ، فجاء هذا الاستثناء ليعلن عــدم وجــود الكثيــر مــن المؤمنين فليس فى هذه القرى إلا هذا البيت الذى أســلم طويتــه لله وأقبــل بوجهته إليه تعالى ، و " من " " واردة لتأكيد النَّفى " نفى وجود الكثير مــن المسلمين المؤمنين ، والجارُّ والمجرور " فيها " واقع فى محلٍّ المفعول الثانى للفعل " وجد " .

قال سماحة الشيخ الطَّاهر ابنُ عاشور : " وإنَّما قال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَــن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين " دون أن يقول : فأخرجنا لوطاً وأهل بيته قصداً للتنويه بشأن الإيمان والإســلام ، أى أن الله نجَّاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنهم أهل لوط ، وأنَّ كونهم أهل بيت لوط لأنهم انحصر فيهم وصف – المؤمنين – فى تلك القرية ، فكان كالكليِّ الذى انحصر فى فرد معين (1) " . ثــم يقــول – رحمه الله – : " والمؤمن : هو المصدِّق بما يجب التَّصديق بــه ، والمســلم المنقاد إلى مقتضى الإيمان ولا نجاة إلا بمجموع الأمرين ، فحصل فى الكلام مع التَّفنُّن فى الألفاظ الإشارة إلــى التنويــه بكليهمــا ، وإلــى أنَّ النجــاة باجتماعهما، والآية تشير إلى أنَّ امرأة لوط كانت تظهر الانقيــاد لزوجهــا

---

(1) التحرير والتنوير ٨/٢٧ .

وتضمر الكفر وممالأة أهل القرية على فسادهم كما حكت ذلك عنها سورة التَّحريم (١) ، فبيت لوط كان كلّه من المسلمين ولم يكن كلّه من المؤمنين ، فلذلك لم ينج منهم إلاّ الذين اتَّصفوا بالإيمان والإسلام معاً (٢) " .

والتَّعبير هنا بـ " المسلمين " وفي الآية السابقة بـ " المؤمنين " من باب إطلاق العامّ على الخاصّ ، وهو لا يدلُّ أيضاً على اتحاد مفهومهما إذ المسلم أعمُّ من المؤمن فكلُّ مؤمن مسلم وليس العكس ، وذلك لأن المنافق مسلم وليس بمؤمن ، وقد عاب الله تعالى على الأعراب زعمهم الإيمان في قوله : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ (٣) ، ففي الآية " إشارة إلى أنّ المسلم والمؤمن متحدان صدقاً وذاتاً لا مفهوماً ، والمسلم أعمُّ من المؤمن فإنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم من غير العكس ، والعامُّ والخاصُّ قد يتصادقان في مادة واحدة (٤) " .

فالتعريف في " المسلمين " للعهد الكنائي كما هو ظاهر إذ مَنْ اتَّصف بالإيمان من باب أولى أن يوصف بالإسلام فالإيمان مرتبة أعلى من الإسلام – كما ذكرنا سابقاً – .

<u>إبقاء هذه القرى آية دالَّة على هلاك الظالمين :</u>

<u>قال تعالى</u> : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ ، هذه الجملة أو الآية معطوفة على ما سبق من عطف الخبر على الخبر ، ووصلت هذه الجملة بسابقتها ، لاتفاقهما في الخبر لفظاً ومعنى ، والتَّرك في الحقيقة

---

(١) التحريم /١٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٨/٢٧ .

(٣) الحجرات /١٤ .

(٤) تفسير روح البيان ١٦٥/٩ .

مفارقة شخص شيئاً حصل معه فى مكان ففارق ذلك المكان وأبقى منه ما كان معه ، والتَّرك هنا كناية عن إبقاء الشئ فى موضع دون مفارقة التَّارك ، أو هو مجاز مرسل لعلاقة السببية حيث عُبِّر بالتَّرك عن المسبَّب عنه وهو إيجاد حالة تطول ، أو هو استعارة بتشبيه إبقاء تلك الحالة فيه بالشئ المتروك فى مكان ، والجامع عدم التَّغيُّر فى كلٍّ ، والجارُّ والمجرور " فيها " عائدٌ على القرية أو القرى التى صارت خراباً لا عمران لها ، فكان ما فيها من آثار الخراب آية للذين يخافون عذاب الله تعالى ، وقيل : إنَّ الضَّمير عائدٌ على ما يؤخذ من مجموع قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ على تأويل الكلام بالقصَّة والمراد تركنا فى قصَّتهم .

و " آية " أى علامة دالَّة على إهلاكهم ، " واختلف فى أنَّ الآية ما هى فقيل : هى ماءٌ أسودُ مُنْتِنٌ انشقَّت أرضهم وخرج منها ذلك ، وقيل : هى ما فيها من الحجارة الملقاة المنضودة التى رجموا بها ، وقيل : الآية نفس القرية وجعل أعلاها أسفلها " (١) ، ومجئ " آية " نكرة للدلالة على عظم شأن هذه الآية وأنها صارت علامة لخراب دار كلِّ ظالم وهلاك كلِّ فاسق جبَّار مخالف للمنهج وقوله : " للذين يخافون " تعليل لتخصيص الخائفين بكون تلك الآية عبرة لهم ، فإن تلك الآية دالَّة على أنه تعالى أهلك أهلها بشؤم كفرهم ومعصيتهم ، فيخافون مثل عذابهم فيجتنبون ما هو سبب هلاكهم ، والذين يخافون العذاب هم المؤمنون بالبعث والجزاء من أهل الإسلام وأهل الكتاب دون المشركين فإنه لمَّا لم ينتفعوا بدلالة مواقع الاستئصال على أسباب ذلك الاستئصال نُزِّلت دلالة آياته بالنسبة إليهم منزلة ما ليس بآية (٢) " ، والتعبير

---

(١) حاشية الشيخ زادة ٣٩٥/٤ ، ٣٩٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٩/٢٧ .

عنهم أو تعريفهم بالاسم الموصول لتقرير الغرض المسوق له الكلام وهو بيان نجاة المؤمنين المسلمين لخوفهم من الله تعالى ، وعلى أمثالهم من أصحاب هذه الصفات أن يتعظوا بذلك ، أو تعظيم لشأن الخائفين عذابه تعالى وأنهم ممن يعتبر بالآيات وينتفع بها .

والتعبير بالفعل المضارع " يخافون " للدلالة على تجدد الخوف وحدوثه منهم شيئاً فشيئاً وحصوله الفينة بعد الفينة ، أو لاستحضار صورتهم العجيبة أمام السامعين ووصف " العذاب " بـ " الأليم " للمبالغة في شدة هذا العذاب ومدى أثره على هؤلاء . والمراد المؤلم الذى لا يفارق صاحبه أبداً على المجاز العقلي لعلاقة المفعولية . فالعذاب مؤلم لصاحبه شديد عليه ، وفي الآية إيماء إلى أن الكفر متى غلب ، والفسق إذا انتشر لا تنفع معه عبادة المؤمنين فلابدَّ من تدخل والذى تولى الأمر بنفسه هو الله تعالى . فهلاك المكذبين وجدع أنوفهم وكسر جبروتهم لا يقدر عليه أحدٌ إلا الملك الجبار سبحانه وتعالى ، فهؤلاء قوم لوط صارت قريتهم بحيرة منتنة خبيثة وهي بحيرة طبرية ، لتكون عبرة وآية لمن يخشى الله فيخاف عذابه .

المبحث الرابع

" هلاك الأمم المكذّبه "

بين جبروت البشر وانتقام السماء :

قال الله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * .... وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ الآيات/ ٣٨ – ٤٠ .

النظم البلاغي : بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ما كان من قوم لوط من الفسوق والعصيان ، وما أصابهم من الهلاك جزاء ما اجترحوا من السيئات وما ارتكبوا من الفواحش تسلية لرسول الله – ﷺ – على ما يرى من قومه – عطف على ذلك قصص جمع آخرين من الأنبياء أصابهم من أقوامهم من الأهوال والشدائد مثل ما أصاب هذا الرسول الكريم فحقَّت على هؤلاء الأقوام كلمة الله ونزل بهم عذاب الاستئصال وصاروا كأمس الدَّابرة عبرة ونكالاً لغيرهم ، فذكر سبحانه قصَّة موسى ، وما كان منه مع فرعون وما حاق بالأخير من الهوان والنَّكال قوله : ﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فِيهَا آيَةً ﴾ بإعادة الجارِّ لأن المعطوف عليه ضمير مجرور متعلِّق بالفعل " تركنا " من حيث المعنى ، والتَّقدير عليه : وتركنا في قصَّة موسى آية ومن هنا عطف عليه من عطف الخبر على الخبر والقصَّة على القصَّة وقيل : يجوز أن يتعلَّق بجعلنا مقدَّرة لدلالة " وتركنا " و أجاز ذلك الزمخشري في كشَّافه (١) ، واعترض أبو حيَّان في البحر على تقدير – جعلنا – فقال : " وقال الزمخشريُّ : يكون عطفاً على قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ على معنى : " وجعلنا في موسى آية " كقوله (٢) : علفتها تبناً وماءً

(١) الكشاف ١٩/٤ .

(٢) نسبه الأستاذ أبو الفضل في برهان الزركشي إلى ذي الرمَّة ١٢٥/٣ وقبله : لمَّا حططتُ الرَّحل عنها واردا ، الخزانة ٢٩٩/١ ، شرح ابن عقيل ٥٤١/١ بدون نسبة بتحقيق الشيخ محمد محي الدين .

بارداً . أ.هـ ولا حاجة إلى إضمار وتركنا لأنه قد أمكن أن يكون العام فى المجرور – وتركنا ([1]) " .

وأُتبِعتْ قصَّة قوم لوط بقصَّة موسى وفرعون لشهرة أمر موسى – عليه السلام – وشريعته فالترْك فى الآية إمَّا مجازٌ مرسلٌ لعلاقة السببية ، وإمَّا استعارة تبعية فى الفعل – كما ذكرنا سابقاً – ، والواو فى قوله : ﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ استخدام ([2]) كاستخدام الضَّمير فى قول معاوية بن مالك " معوِّد الحكماء " ([3]) :

إذا نَزَلَ السَّماءُ بأرض قوم ∴ رعيناه وإنْ كانوا غِضابَا

فقد أراد بـ " السَّماء " الغيث على المجاز المرسل لعلاقة السببية لأنه ينتج عنه النَّبات الذى يُرْعَى ، ولمَّا الاستخدام ففى رجوع الضمَّير فى " رعيناه " العائد على مطر السَّماء كذلك ما هنا فقد استخدمت الواو الدالة على كون قصَّة موسى آية دائمة ، وعُقِّبت قصَّة قوم لوط بقصَّة موسى وفرعون لما بينهما من تناسب فى أنَّ العذاب الذى عُذِّب به الأُمَّتَانِ عذابٌ أرْضِيٌّ . إذ عُذِّب قَومُ لوط بالحجارة التى هى من طين ، وعُذِّب قوم فرعون بالغرق فى البحر " ([4]) .

([1]) الكشاف ١٩/٤ ، البحر المحيط ١٤٠/٨ ، إعراب القرآن وبيانه ٣١٧/٩ .

([2]) الاستخدام هو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة ضمير أو إشارة عليه بمعنى آخر ، أو إعادة ضميرين عليه نريد تباينهما غير ما نريد بأولهما . الإيضاح ٤١/٦ ت د. خفاجى ، البديع فى ضوء أساليب القرآن /١١٢ ، د. لاشين جواهر البلاغة /٣٠١ للهاشمىّ .

([3]) المفضليات /٣٥٩ ، ويروى السحاب .

([4]) التحرير والتنوير ٩/٢٧ ، ١٠ بتصرُّف .

واستخدام " فى " الدلّة على الظّرفية حتى كأن قصّة موسى – عليه السلام – صارت ظرفاً للعبرة والآية دلالة على التمكُّن والاستمرار فليس موسى نفسه ظرفاً للآية والعبرة بل قصّته ، و " إذ " ظرفٌ لما مضى من الزمان متعلّق بمحذوف نعت لـ " آية " والمراد آية كائنة فى وقت إرسالنا ، أو متعلّق بالفعل " تركنا " أى اذكر وقت تركنا ، والمعنى : وفى موسى آياتٌ كافية للاعتبار فى وقت إرسالنا إيَّاه ، وقوله : " أرسلناه " بيان منه تعالى أنّ موسى لم يأت فرعون من تلقاء نفسه ولكنه بأمر منه تعالى كما نصّ القرآن على ذلك فى غير موطن ، فالمرسَلُ موسى – عليه السلام – والمرْسِلُ هو الله تعالى لمهمّة البلاغ والدّعوة وكون المرسل الله تعالى دلالة على عظم الرسالة وشرفها ونبل مغزاها وقوله : " إلى فرعون " للتخصيص أى إليه لا إلى غيره لأن القوم تبعٌ له إذ كان هو فيهم الإله والرّبُّ ، فدعوة قومه من باطن دعوته وهدايتهم فى هدايته .

وقوله : " بسلطان مبين " الباء فيه للملابسة ، وهو فى محلٍّ نصب حال أى مؤيَّداً بسلطان ، والسُّلطان المبين هو الحجُّة الواضحة ، والمراد بها المعجزات التى ظهرت على يديه كانقلاب العصا حيَّة وغيرها من الآيات المذكورة فى القرآن الكريم . و " مبين " نعت للسُّلطان فهو سلطان بيِّن لا ينكره أحدٌ ، ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١) ، وللطُّغيان سلطانه وللكبر جبروته ، كما أن لليقين عند أصحابه سلطانه الذى لا يقهر لكونه حقّاً وبرهاناً .

---

(١) الأنعام جزء آية /٣٣ .

الصَّلف والعناد والزَّيف :

قال تعالى حاكياً حال الطَّاغية " فرعون " : ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾ والآية معطوفة على ما سبق من عطف جمل الخبر على بعض لبيان الحالة التى كان عليها فرعون حينما جاءته رسالتنا ودعوتنا على يد نبيِّ الله موسى – عليه السلام – ، والتَّولِّى هنا استعارة تبعية للإعراض عن الإيمان مع حذف المشبَّه وإبقاء المشبَّه به ، واشتقاق الفعل ، والجامع النفور وعدم الالتفات فى كلٍّ ، أو هو استعارة تمثيلية شُبِّهت هيئة رفض فرعون دعوة موسى بهيئة المنصرف عن شخص ، والجامع الهيئة الحاصلة من عدم القبول برفض الشئ ، والانصراف عنه كلية ، ومجئ قوله : " بركنه " تمَّ التمثيل واكتمل ولولاه لكان قوله : " تولَّى " مجرَّد استعارة فقط ، وقوله : " بركنه " الباء فيه للتَّعدية والرُّكن بمعنى الطرَّف والجانب ، والمراد به نفسه إذ إنه كثيراً ما يعبَّر بطرف الشئ وجانبه عن نفسه ، وعلى هذا يكون التَّولِّى كناية عن الإعراض ، لأنَّ معناه ثنى عطفه استكباراً واستهزاءً ، أو أنَّ الباء للملابسة ، قال قتادة : تولَّى بقومه على أن الرُّكن بمعنى القوم لأنه يركن إليهم ويتقوَّى بهم ، وعلى هذا يكون الرُّكن مستعاراً لجنوده تشبيهاً لهم بركن البناء من حيث إنَّ كلَّ واحد منهما يعتمد عليه ويتقوَّى به على سبيل الاستعارة التَّصريحية الأصلية ، فعلى هذا تكون الباء للسببية أو المصاحبة أى فأعرض بسبب مَنْ كان يتقوَّى بهم من جنوده فى ملكه أو فأعرض ومعه أركان ملكه " (1) .

---

(1) حاشية الشيخ زادة ٣٩٦/٤ ، حاشية الشهاب ٩٨/٨ ، روح المعانى ١٥/٢٧ ، تفسير روح البيان ١٦٦/٩ ، حاشية الصاوى ١٢٠/٤ .

وقرئ : " برْكُنه " بضمّ الكاف إتباعاً للراء مثل حُمُر على وزن فُعُل .

وقوله : ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ معطوف على قوله : " فتولّى بركنه " والفاعل مقدَّر بضمير عائد على فرعون ، و " ساحر " خبر لمبتدأ محذوف أى هو ساحر إن كان موسى ليس موجوداً حين قوله ذلك ، أو أنت ساحر إذا كان يخاطبه مشافهة ، وعلى كلٍّ فحذف المسند إليه لوقوعه بعد القول ، ولعدم فائدة فى ذكره للعلم به ، وقوله : " مجنون " كأنه جعل ما ظهر عليه من الخوارق منسوباً إلى الجنّ ، وهذا مبنىٌّ على أن يكون ما ظهر على يد السَّاحر أيضاً من آثار الجنّ وأفعالهم كما أنَّ ما ظهر على يد المجنون كذلك ، والفرق بينهما أنَّ السَّاحر يقصد الجنَّ ويأتيهم باختياره بخلاف المجنون فإنَّ الجنَّ يأتونه من مشيئته واختياره ، وقيل : إنَّ كلمة – أو – ههنا بمعنى الواو لأنه قالهما جميعاً . قال تعالى حكاية عنه : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) ، وقال فى موضع آخر : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (2) ، وقيل إنَّ : " أو " حرف عطف للإبهام على السَّامع أو للشكّ نزّل نفسه منزلة الشّاكّ مع أنه يعرفه نبيًّا حقًّا تمويهاً على قومه ، ولا ضرورة تدعو إلى جعل – أو – بمعنى الواو إذ يكون قالهما وأبهم على السَّامع فأو للإبهام (3) " .

قال الطبرسي : " وفى ذلك دلالة على جهل فرعون لأنَّ السَّاحر هو اللَّطيف الحيلة وذلك ينافى صفة المجنون المختلط العقل فكيف يوصف

---

(1) الأعراف /١٠٩ ، الشعراء /٣٤ .

(2) الشعراء /٢٧ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٦/٤ ، روح المعانى ١٥/٢٧ .

(3) البحر المحيط ١٤٠/٨ ، حاشية الجمل ٢٩٤/٧ ، إعراب القرآن وبيانه ٣١٧/٩ .

شخص واحد بهاتين الصفتين ؟ (١) " . فدعواه إذاً دعوى باطلة لا دليل عليها وإنما هو الصلف والعناد .

<u>الجزاء المنتظر من الله لهذا الطاغية وأمثاله :</u>

<u>قال تعالى</u> : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ " عطفت هذه الآية على ما سبق ورتِّبت عليها ترتيب الشرط على جزائه – كما يقال – جزاء جهل فرعون وكفره ، ووصفه نبيَّ الله موسى – عليه السلام – بكونه ساحراً أو مجنوناً ، صلفاً وعناداً واستكباراً ، والأخذُ معناه في اللغة المجازاة والمعاقبة وهو هنا استعارة تبعية في الفعل مرادٌ بها جازيناه بالإعراض والهلاك ، واشتقاق " أخذناه " أي عاقبناه وجازيناه ، وفي الاستعارة دلالة على القدرة منه تعالى في العقوبة ، والتعبير بالأخذ دليل على شدَّة التمكُّن والغلبة حتى إنَّه مع قوَّته وسلطانه لم يستطع الفكاك والخلاص من مصيره ، وأنَّ زعمه كان زعماً فاسداً أو رَدَهُ المهالكَ ، والآخذ هو الله تعالى الذي نصَّب نفسه " هو " بدلاً عنه في الأرض كما حكى عنه القرآن الكريم ، والتعبير بضمير التكلُّم " نا " للدلالة على العظمة والقوة التي لا تغلب وسُخِّرت له السموات والأرض مع عدم تأبيِّها لما أُمِرتْ به ، فهل قاوم فرعون هذا الإله القادر أو حاول ، إنه لم يستطع ذلك بل نجده نفسه يعلن إيمانه بموسى وربِّ موسى لمَّا رأى أجله ومصيره المحتوم رأى العيان ولكن أنىَّ له ذلك ، والهاء في " فأخذناه " للمفعول عائدة على فرعون دون إعادة لذكره باسمه الصريح استهجاناً ولصيانة اللسان عن النَّطق أو التلفُّظ به ولقباحة ذكره .

---

(١) مجمع البيان ١٩/٢٧ .

وقوله : " وجنوده " إمَّا أن يكون معطوفاً على المفعول " الهاء " في "فأخذناه" وهو الأولى ، وإمَّا أن يكون مفعولاً معه (١) نحو سِرْتُ والنيلَ ، وسهرتُ والفجرَ . وقوله : فنبذناهم " أي طرحناهم أو ألقيناهم ، والنَّبذ استعارة للإلقاء والرَّمي ، والمراد طرحناهم غير معتدِّين بهم على سبيل الاستعارة التبعية ، والجامع الإهمال والإهانة في كلٍّ لما في التعبير بالفعل " نبذ " من شدَّة الإهانة وعدم الاعتداد بهم إذ إنَّ الشئ المنبوذ هو المطروح لعدم قيمته . وقوله : " في اليم " هو البحر ، و " في " للظرفية لأنهم استقرُّوا فيه فكان " اليَّم " ظرفاً لهلاكهم واستقرار أجسادهم فيه ، و " اليم " هو بحر القلزم طرحوا فيه لقلَّة الاعتداد بهم مع كثرتهم ، وإن كان جسدُ فرعون قد نجيِّ ليكون عبرة .

وقوله : " وهو مليم " جملة حالية ، فإن كانت حالاً من مفعول – نبذناهم – فالواو لازمة إذ ليس فيها ذكر ضمير يعود على صاحب الحال ، وإن كانت حالاً من مفعول – أخذناه – فالواو ليست واجبة إذ في الجملة ذكر ضمير يعود عليه (٢) " .

واستعمال ضمير الغيبة في الآيات لتقدُّم ذكره صراحة في قوله : " إلى فرعون " وليس هناك داعٍ لذكره مرَّة أخرى باسمه الصريح لأنه مما يستقبح التلفُّظ باسمه لعناده وجبروته فكأنه مهانٌ مكروه .

و " مليم " اسم فاعل من لام يلوم ، وهو الذى أتى ما يلام عليه من الكفر والطغيان من تكذيب الرسل ودعوى الربوبية وهذا مناسب لحاله وما

---

(١) المفعول معه : هو الاسم المنتصب بعد واوٍ بمعنى " مع " شرح ابن عقيل ٥٣٦/١ ت الشيخ محي الدين .

(٢) الدر الموصون ١٩١/٦ ، حاشية الجمل ٢٩٤/٧ .

هو عليه ، وقيل : هو المنسوب للوم لفعل هذا الذى يلام عليه ، وقيل : أتى شيئاً يلام بسببه عليه ، وفى " مليم " مجازٌ عقليٌّ لعلاقة المفعولية لأنه ملوم على فعاله فإسناد الملام إليه مجازٌ كما فى قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (١) ، والعيشة مرضيٌّ عنها لرضا صاحبها فهو عنها راضٍ ، ولا يقال : إن الله تعالى ذكر فى حقّ ذى النون : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (٢) ، وقال هنا فى حقّ فرعون : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ فإن ما أتى به ذو النون هو غضبه من قومه لعدم قبولهم دعوته وعدم صبره عليهم فتركهم وذهب مغضباً فليم على تصرفه هذا لعدم صبره ، أمَّا الطَّاغية فرعون فإن ما ليم عليه هو طغيانه وكفره وعناده ، فاللوم " مختلف حاله باعتبار مَنْ وصف به فلا يتوهم أنه كيف وصف فرعون بما وصف به ذو النون (٣) ، وفى الآية إيماءٌ إلى عظمة القدرة على إذلال الجبابرة وسوء عاقبتهم جزاء عتوهم واستكبارهم ، وعصيانهم أمر خالقهم ، ففيها بيان بنهاية وقاحة فرعون وذلته هو وقومه ، ومَنْ ينهج نهجهم ويتقبّل مذهبهم ما لا يخفى على ذى لبٍّ وصاحب قلب .

منهجٌ متشابه ومصير واحد :

قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ انتقال إلى قصة أخرى من قصص الأمم المكذِّبة ، وهى قصَّة عاد قوم هود – عليه السلام – ، وقد أتبع قصة موسى بقصة قوم هود وقوم صالح " الآتى ذكرهم بعد " الأولى قصة عاد ، والثانية قصة ثمود ، وكان عذابهما سماوياً إذ عُذِّبت عادٌ بالرِّيح الدَّبور ، وثمود بالصَّاعقة .

---

(١) الحاقة/٢١ ، القارعة/٧ .

(٢) الصافات /١٤٢ .

(٣) حاشية الشهاب ٩٩/٨ ، حاشية الجمل ٢٩٤/٧ .

وقوله : " وفى عاد " معطوف على قوله " وفى ثمود " من عطف الخبر على الخبر والقصة على القصة لتنزيلها منزلتها ومشابهتها إيَّاها وحذوها لها ، و " عاد " قوم كانوا باليمن بالأحقاف رملٌ بين عُمان إلى حضرموت ، وقوله : " وفى عاد " أى وجعلنا فى إهلاك عادٍ آية ، وقوله : " إذ أرسلنا " يجوز فى هذا الظرف ثلاثة أوجه : أحدها : أن يكون منصوباً بـ " آية " على الوجه الأول أى تركنا فى قصة عاد علامة فى وقت إرسالنا عليهم ، والثانى : أنه متعلِّق بمحذوف لأنه نعت لآية المقدَّرة أى : آية كائنة فى إرسالنا عليهم ، والثالث : أنَّه منصوب بتركنا المقدَّر (١) " .

وفى التعبير بقوله : " أرسلنا " دليل على أنَّ الريح لم تأت من تلقاء نفسها بل هى مرسلة من قبل الله تعالى لأنها من مخلوقاته المؤتمرة بأوامره ، والتعبير بنون العظمة فى " أرسلنا " دليل على عظم القدرة الإلهية يرسل الله الريح متى شاء وأنىَّ شاء ، وقد تضمَّن الفعل " أرسلنا " ثلاثة أركان مُرْسِلٌ وهو الله تعالى " ومُرْسَلٌ وهى الرِّيح ، ومُرْسَلٌ عليهم وهم عاد للدلالة على سعته اللُّغوية ، وتقديم الجارِّ والمجرور " عليهم " للاختصاص فهى مرسلة عليهم وعلى ما يمتلكون فلم تهلك جبلاً ولا بحراً ولا وادياً ، بل هى مهلكة لهم ولأشجارهم ودورهم ودوَّابهم ، ممَّا يدلُّ على القدرة وحسن التصرُّف وبراعة المقصد والمغزى لهلاكهم .

وقوله : ﴿ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ مفعول به للفعل أرسل ، و " الريح العقيم " هى الشديدة التى لا تلقِّح شيئاً أو التى لا بركة فيها ولا منفعة تترتَّب عليها ، ولا ينزل منها غيث ولا يلقَّح بها شجر ، وهى هنا استعارة مكنية شُبِّهت هذه الرِّيح فيما ذكرنا من وصفها بالمرأة العقيم التى لا تلد أو التى لا تقبل لقاح

---

(١) حاشية الجمل ٢٩٤/٧ بتصرُّف .

الذكر ثم حذف المشبَّه به ودلَّ عليه بشئ من لوازمه وهو العقم ، وسُميت عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم . وقيل : إنَّ الاستعارة تبعية في المشتقات شُبِّه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء ، وعدم حملهن لما فيه من إذهاب النَّسل ثم أطلق المشبَّه به على المشبَّه واشتُق منه العقيم والطَّرفان حسيّان والجامع عقليٌّ وهو عدم النَّفع ، والقرينة ، عقلية لاستحالة أن تكون الريح عقيماً على الحقيقة ، والاستعارة هنا مجرَّدة لذكر ما يلائم المستعار له " المشبَّه الرِّيح " وهو قوله بعد ذلك : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ ﴾ الآية " والاستعارة فى الآية من ألطف الاستعارات فقد حملت إلى النفس معنى الإجداب الذى تحمله الرِّيح معها " (١) .

وقد وسم العلاَّمة الرُماني الاستعارة فى الآية بأنها أبلغ من الحقيقة فقال " العقيم مستعارٌ للرِّيح ، وحقيقته ريحٌ لا يأتى بها سحابٌ غيث ، والاستعارة أبلغ لأنَّ حال العقيم أظهر من حال الرِّيح التى لا تأتى بمطر ، لأنَّ ما لا يقع من أجل حال منافية أوكد ممَّا يقع من غير حال منافية وأظهر " (٢) .

وهذه الرِّيح كما روى عن مقاتل عن ابن عبَّاس هى الدَّبور ، روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – عن النبىِّ – ﷺ – أنه قال : " نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأُهلِكتْ عادٌ بالدَّبور " (٣) .

---

(١) روح المعانى ١٥/٢٧ ، ١٦ ، حاشية الشهاب ٩٩/٨، إعراب القرآن وبيانه ٣١٨/٩ ، البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان /١٦٣ ، ٢١٠ ، ٢٢١ .

(٢) النكت ضمن ثلاث رسائل /٩٣ ، من بلاغة القرآن /٢١٩ .

(٣) صحيح مسم ٦١٧/٢ باب فى ريح الصَّبا والدَّبور ،الجامع لأحكام القرآن ٤٧/١٧، ٤٦.

قال النووى في شرحه على صحيح مسلم : " بالصَّبا – ريحٌ ، ومهبُّها المستوى أن تهبَّ من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنَّهار ، و " الـدَّبور " الرِّيح التى تقابل الصَّبا ، وهى الرِّيح الغربية (١)"، وقيل:إنها – أى الرِّيح–:" النَّكباء وهى ، كلُّ ريح هبَّت بين ريحين لتنكُّبها ، وانحرافهـا عـن مهَّـابِّ الرِّياح المعروفة وهى رياح متعدِّدة لا ريح واحدة (٢) " .

وقوله : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ إلخ صفة ثانية للرِّيح أو حال منها ، ومن هنا فُصِلَتْ عنها ، إذ من جمل الحال ما لا يعطف على سـابقه بالواو لربطه بالجملة السابقة ، و " ما " نافية لبقاء أى شئ تأتى عليـه هـذه الرِّيح ، والآية من باب التَّرقِّى من الأدنى إلى الأعلى حيث وصفت الـرِّيح بكونها عقيماً ثم تُرقِّى إلى ما هو أعلى من ذلك بأنها لا تبقى شيئاً أتت عليه إلاَّ دمَّرته لبيان مضرَّة هذه الرِّيح إذ لا نفع فيها ، وليس هذا فحسب بل إنها تضرُّ أضراراً عظيمة .

والتعبير بالفعل المضارع " تذر " دلالة على استحضار تلـك الحالـة العجيبة التى كانت عليها هذه الرِّيح ، وللدلالة على تجدُّدها وحدوثها حتى لا يظنَّ واحدٌ منهم أنها قد دوَّمت وانتهت خبراً بعد عين ، وأثراً بعـد أمـر . وقوله : " من شئ " فيه " من " واردة لتأكيد النفى ، و " شئ " نكرة فى سياق النَّفى فكانت عامَّة لنفى جنس الشئ ونصٌّ فى هذا النَّفى كأنه قال : ما تـذر من بداية ما يُسمَّى شيئاً قد ترك ، وهذا العموم الذى أفادته النكرة مخصـصٌ بدليل العقل ، وهو أنَّ الرِّيح لا تفنى – كما ذكرنا – الجبال ولا البحـار ولا الأودية وهى تمرُّ عليها ، وإنما تهلك وتُبلى الأشياء الأخرى التى تمرُّ عليها

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم ٦١٧/٢ .

(٢) حاشية الشهاب ٩٩/٨ .

من الناس والدَّوَّاب والدور والأشجار ، ولذلك وصفها فى سورة الأحقاف بقوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (١) ، وقوله : " أتت عليه " صفة أخرى للرِّيح ، والتعبير بالفعل الماضى دلالة على تحقُّقها ووقوعها ومرورها ، ويعدُّ هذا أيضاً – كما ذكرنا آنفاً – تجريداً للاستعارة لأنه من ملائمات المستعار له " الرِّيح " .

و " عليه " جارٌ ومجرور متعلِّق بالفعل " أتت " ومرجع الضَّمير فيه عائد على الشئ ، والتعبير بالجارّ والمجرور " عليه " دليلُ على علُوها إيَّاه كأنها علته فلم يستطع الخلاص منها كما يعتلى الرُّجلُ دابتَه على سبيل الاستعارة التبعية فى الحروف ، وفى ذلك من المبالغة فى الهلاك ما لو جئ بغير الجارّ والمجرور " عليه " وقوله : " إلاَّ جعلته كالرَّميم " أسلوب قصر طريقه النَّفىُ والاستثناء من قصر الموصوف على الصِّفة قصراً إضافياً ، حيث قصرت الآية عدم ترك الرِّيح شيئاً مرَّت عليه . على جعل هذا الشئ كالرَّميم مع تعيين وظيفة هذه الرِّيح حتى لا يشكَّ واحدُ منهم أنها ريحٌ عادية تمرُّ هكذا دون أن يكون لها أدنى أثر أو مؤثِّر .

وقوله : " إلاَ جعلته كالرَّميم " فى محلِّ المفعول الثانى للفعل " تذر " كأنه قال : ما تترك شيئاً إلا مجعولاً كالرَّميم ، و " الرميم " وهو الهشيم المتفتِّت البالى الذى لا يبقى ، شُبهِّت آثارهم وأحوالهم من بشر وشجر وحجر فى تفتِّتهم وذهابهم بالكلية بالرميم الذى لا يبقى منه أثر ، والوجه الهلاك والفناء فى كلٍّ لهوانهم وعدم قيمتهم وحقارتهم .

---

(١) الأحقاف /٢٥ .

قال القرطبي : " أى كالشئ الهشيم ، يقال للنَّبت إذا يبس وتفتَّت : رميم وهشيم ، قال ابن عبَّاس : كالشئ الهالك البالى ، وقاله مجاهد ومنه قول الشاعر جرير : (١)

تركتَنى حين كفَّ الدَّهرُ من بَصَرى ∴ وإذْ بقيتُ كعظم الرِّمة البالى

وقال قتادة : إنه الذى دِيسَ من يابس النبات ، وقال أبو العالية والسُّدِّى: كالتُّراب المدقوق ، وقال قُطْرب : الرَّميم الرَّماد (٢) " .

وقد ذكر المفسِّرون : أنَّ الريح التى أرسلها الله عليهم ريحٌ صَرْصَرٌ عاتيه – كما أشار إليها القرآن الكريم – (٣) استمرَّت عليهم ثمانية أيام متتابعة ، فكانت تهدم البنيان ، وتنتزع الرِّجال فترفعهم إلى السماء حتى يُرى الواحد منهم كالطَّير ثم ترمى به إلى الأرض جثَّة هامدة فصاروا كجذوع النخل الخاوية (٤) " .

وخلاصة القول والعبرة في الآية : وفى عادٍ قوم هودٍ آيةٌ للذين يخافون العذاب الأليم إذ أرسل الله عليهم الرِّيح ، وهذه الآية كائنة فى أسباب إرسال الرِّيح عليهم وهى أسباب تكذيبهم هوداً وإشراكهم بالله وقولهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ (٥) فيحذِّر من مثل ما أحلَّ بهم أهلُ الإيمان ، وأما الذين لا

---

(١) ديوانه ٥٨٤/٢ ت د. نعمان أمين طه . ط دار المعارف سنة ١٩٨٦م وروايته : وحين صرت كعظم الرمة البالى .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤٧/١٧ ، حاشية الجمل ٢٩٥/٧ .

(٣) فُصِّلت /١٦ ، الحاقة /٦ .

(٤) صفوة التفاسير ٢٥٦/١٧ ، ٢٥٧ .

(٥) فُصِّلت /١٥ .

يخافون العذاب الأليم من أهل الشِّرك فهم مُصرّون على كفرهم كما أصَرَّت عادٌ فيوشك أن يحل بهم من جنس ما حلَّ بعادٍ من العذاب (١) " .

<u>منزع الكفر واحد وطريق الهلاك كذلك :</u>

جاء الحديث عن قصَّة أخرى مقترنة فى سور القرآن بقصَّة عاد إنهـا قصَّة ثمود قوم صالح – عليه السلام – . قال تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴾ وهى أيضاً معطوفة على صاحبتها السابقة عطف القصَّة على القصَّة والخبر على الخبر ، فقد " أُتْبِعَتْ قصَّةُ عاد بقصَّة ثمود لتقارنهما غالباً فى القرآن من أجل أن ثمود قد عاصرت عاداً وخلفتها فى عظمة الأمم كما حكى عنها فى سورة الأعراف فى قوله على لسان صالح – عليه السلام – ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ ... ﴾ إلخ (٢) ، ولاشتهارهما بين العرب " (٣) .

فقوله : ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ إخبار عن هلاك ثمود ، والمعنى : وجعلنا فى ثمود أيضاً آية وعبرة و " ثمود " هم قوم صالح ، و " سُمِّيت ثموداً لقلَّة مائها من الثَمَدِ وهو الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشَّام ، وإلى وادى القرى ، وقيل : سُمِّيت ثمود لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح – عليه السلام – لمَّا أهلك الله عاداً قام ثمود مقامهم ، وطال عمرهم وكثر تنعمُّهم ، ثم عصوا الله ، وعبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم صالحاً وكان منهم (٤) " .

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٢٧ .

(٢) الأعراف /٧٤ .

(٣) التحرير والتنوير ١٢/٢٧ .

(٤) التفسير الكبير ١٦٨/١٤ ، ١٦٩ .

و " فى " هنا للظَّرفية المجازية إذ المراد وفى قصَّة ثموداً آية لما فعلوا من ارتكاب الفواحش ، ولما وصل إليه حالهم من الهلاك والفناء فاستقرَّت العبرة فى قصَّتهم وتمكَّن خبرها فيها .

وقوله : ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ ﴾ ظرفٌ لما مضى من الزمان ، والتقدير : جعلنا فى زمان قولنا ذلك لثمود آية ، أو وفى زمان قولنا ذلك لثمود آية ، وبناء الفعل " قيل " للمجهول وفاعله إمَّا الله سبحانه وتعالى ، وإمَّا صالح – عليه السلام – ، والجارُّ والمجرور " لهم " متعلِّق بالفعل " قيل " دلالة على الاختصاص لهم لا لغيرهم لتسجيل الأمر عليهم . وقوله : ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ أسلوب أمر أمرهم به نبيُّهم صالح – عليه السلام – قال لهم : عيشوا إلى منتهى آجالكم ولا تعصوا أمر الله تعالى فعتوا عن أمر ربِّهم أى تركوا طاعة الله فأخذتهم صيحة العذاب .

وقد وصف الدكتور صبَّاح الأمر فى الآية : بأنه ممَّا جاء فى القرآن بأسلوب الخطاب للتهكُّم والإهانة والتوبيخ والزَّجر ، وأن دلالة التمتُّع على صيغة الأمر جاءت فى خطابات شديدة متوعِّدة فى إهانة وتبكيت ، كذلك مجئ الفعل – تمتَّع – فى صيغة الماضى الخبرى أو المضارع فهو وسيع الدلالة متنوعها تشريعاً وترغيباً وترهيباً (١) " .

وقد اعترض على الرَّازى حمله الأمر فى الآية على معنى النَّهى فقال : قال الرازى : " وهذا وإن كان فى اللفظ أمراً إلا أنه فى المعنى نهى بليغ وزجر عظيم ومنع فى غاية المبالغة (٢) " فاعترض بقوله : " ولا نحسُّ ما أحسَّه إذ الآية على الأمر تهديداً رهيباً وإهانة مبكته (٣) .

---

(١) الأساليب الإنشائية /٣٧ ، ٣٨ بتصرُّف .

(٢) التفسير الكبير ٢٨٤/٣ .

(٣) الأساليب الإنشائية /٣٧ ، ٣٨ .

و " حتَّى " حرف يفيد الغاية وانتهاء هذه الغاية بمعنى إلى و " حِـينٍ " مجرور بـ " حتى " وهما متعلّقان بالفعل " تَمَتَّعُـوا " أى إن غايـة التمتـع محدود بزمن معين وليست مطلقة .

هل الحين المذكور في الآية هو الأيام الثلاثة المذكورة فى آية هود فى قوله : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (١) ؟

قال المفسِّرون استشكل بأن هذا المتُع مؤخَّر عن العتوّ لقوله تعـالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ ﴾ إلخ ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ (٢) يدلُّ على أنَّ العتوَّ مؤخَّر ، وأجيب بأن هذا مرتَّبُ على تمام القصَّـة كأنـه قيل : وجعلنا فى زمان قولنا ذلك لثمود آية أو فى زمان قولنا ذلك لثمود آية، ثم أخذ فى بيان كونه آية فقيل : فعتوا عن أمر ربِّهم ، أى فاسـتكبروا عـن الامتثال به إلى آخره فالفاء للتفصيل ، وقال الحسن هـذا أى : القـول لهـم تمتعُّوا حتى حين " حين بعث إليهم صالح أمروا بالإيمان بما جاء به والتمتُّع إلى أن تأتى آجالهم " ثم عتوا بعد ذلك " ، ولذلك جاء العطف بالفاء المقتضية تأخُّر العتوّ عمَّا أمروا به فهو مطابق لفظاً ووجوداً ، وكون المراد بـالحين الأيام الثلاثة التى أمهلوها بعد عقر النّاقة ضعيف لأن ترتُّب – فعتوا – بالفاء دليل على أنَّ العتوَّ كان بعد القول المذكور ، فالظّاهر أنَّه ما قدَّر الله تعـالى من الآجال فما من أحد إلا وهو ممهل مدَّة الأجل كأنه يقول له : تمتَّع إلـى

---

(١) هود /٦٥ .

(٢) الذاريات /٤٤ .

آخر أجلك فإن أحسنت فقد حصل لك المتَّع فى الدارين وإلاَّ فما لك فى الآخرة من نصيب (١) " .

وخلاصة القول : أن الحين المذكور فى الآية لا يراد به الأيام الثلاثة التى وعدهم نبىُّ الله صالح – عليه السلام – بل المراد به ما قدَّره الله تعالى من الآجال على سبيل الإرسال وقوله : " تمتَّعوا " أسلوب أمر مستعمل فى إباحة المتاع ، وقد جعل المتاع بمعنى النَّعمة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، والمراد بـ " حين " زمن مبهم ، وقد جعل هنا نهاية لما مُتِّعوا به من النِّعم وذاك أنَّ نِعَمَ الدُّنيا زائلة ، وذلك الأجل إمَّا أن يراد به أجلُ كلٍّ واحد منهم الذى تنتهى إليه حياته ، وإمَّا أن يراد به أجل الأمة الذى ينتهى إليه بقاؤها " (٢) .

وقوله : ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ الفاء فيه للتَّعقيب ، لأن هذا التَّعقيب أو الترتيب الذى تفيده هذه الفاء يقتضى أنَّ ما بعدها مرتَّبٌ فى الوجود على ما قبلها ، وهو ترتيبٌ إخبارىٌّ وإلاَّ كان عتوهُم قبل وعدهم بالهلاك فى الحقيقة الذى هو المراد من قوله تعالى : ﴿ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴾ ، والعتوُّ فى أصل اللُّغة يعنى الكِبْرَ والشدَّة ، أو التنبوً عن الطَّاعة " البعد عنها " ، وهو هنا مضمَّنٌ معنى الإعراض والاستكبار عليه فقد عُدِّى بـ " عن " المفيدة للمجاورة ، والمراد : فأعرضوا عمَّا أمرهم الله تعالى به على لسان رسوله صالح – عليه السلام – واستكبروا عن الامتثال لأوامره .

---

(١) البحر المحيط ١٤١/٨ ، التفسير الكبير ٢٥٥/٢٨ ، روح المعانى ١٦/٢٧ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٧/٤ ، حاشية الشهاب ٩٩/٨ ، حاشية الجمل ٢٩٥/٧ ، ٢٩٦ ، التحرير والتنوير ١٣/٢٧ ، حاشية الصاوى ١٢١/٤ .

(٢) التحرير والتنوير ١٣/٢٧ .

و " أمر ربِّهم " هو ما أمروا به على لسان صالح – عليه السلام – من قوله : ﴿ اعْبُدُواْ اللّهَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ ﴾ (٢) ، أو شأن ربِّهم وهو دينه ، أو عتوّهم عن أمر ربِّهم وبسببه كان أمر ربِّهم بعبادته وترك النَّاقة كان هو السبب فى عتوّهم " (٣) ، وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ مرتَّبٌ عليه ، والأخذ هنا مرادٌ به الإصابة إلاَّ أنَّ الأخذ أبلغ لما فيه من معنى الشدَّة والقهر والغلبة ، وهو استعارة تبعية فى الفعل شُبِّهت إصابتهم وهلاكهم بالصَّيحة بأخذ الشئ بقوة وقهر فاستعير المشبَّه به للمشبَّه ثم اشتُق منه أخذ ، والجامع الهلاك والفناء مع القهر والإهانة فى كلٍّ .

و ﴿ الصَّاعِقَةُ ﴾ هى الصَّيحة المهلكة لا حقيقتها بل جاءت نارٌ من السَّماء فأهلكتهم جميعاً .

قال الشيخ الجمل : " وهذا التفسير إنما يلائم قراءة الكسائى – فأخذتهم الصَّعقة – إذ هى المرَّة من الصَّعق الذى هو الصِّياح ، وأمَّا الصَّاعقة فهى نارٌ تنزل من السَّماء فيها رعدٌ شديد ، فكان عليه أن يُفسَّر به إذ هو المناسب لقوله – وهم ينظرون – إذ الذى يُنْظَرُ ويُبْصَرُ إنما هو الصَّاعقة لا الصَّيحة لأنها صوت ، وقد صاح عليهم جبريل فهلكوا جميعاً " (٤) .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ جملة حالية من ضمير "أخذتهم" والمعنى : أخذتهم فى حال نظرهم إلى نزولها ، وذلك لأنهم لمَّا رأوا بوارقها الشديدة

---

(١) الأعراف /٧٣ ، هود /٦١ .

(٢) الأعراف /٧٣ ، هود /٦٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٩/١٦٩ .

(٤) حاشية الجمل ٧/٢٩٦ ، حاشية الصَّاوى ٤/١٢١ .

علموا أنها غير معتادة فاستشرفوا ينظرون إلى السَّحاب فنزلت عليهم الصَّاعقة وهم ينظرون وذلك هول عظيم زيادة فى العذاب فإنَّ النَّظر إلى النقمة يزيد صاحبها ألماً كما أنَّ النظر إلى النعمة يزيد المنْعَم عليه مسرَّة " ([١]).

وتعريف المسند إليه بضمير الغائب " هم " لتقدُّم ما يدلُّ عليهم فلا داعى لذكرهم ، أو لصون اللسان عن ذكرهم إهانة لهم وتحقيراً لشأنهم ، ومجئ الفعل " ينظرون " مضارعاً لاستحضار تلك الحالة العجيبة التى كانوا عليها أمام النَّظارة والمشاهدين للحكم عليهم ولتجدُّد النَّظر وحدوثه منهم شيئاً فشيئاً دلالة على المهانة وزيادة العذاب والنَّكال .

قال الألوسي : " روى أن صالحاً – عليه السلام – وعدهم الهلاك بعد ثلاثة أيام ، وقال لهم : تصبح وجوهكم غداً مصفَّرة ، وبعد غدٍ محمرَّة ، واليوم الثالث مسودَّة ثم يُصبِّحكم العذاب ، ولمَّا رأوا الآيات التى بيَّنها – عليه السلام – عمدوا إلى قتله فنجَّاه الله تعالى فذهب إلى أرض فلسطين ، ولمَّا كان ضحوة اليوم الرابع تحنطُّوا وتكفَّنوا بالأنطاع ([٢]) فأتتهم الصَّاعقة وهى نارٌ من السَّماء ، وقيل : صيحة منها فهلكوا ([٣]) وفائدة التعبير بقوله : ينظرون " بيان عدم قدرتهم على دفع هذه الصَّاعقة ، ويجوز أن يكون النَّظر بمعنى الانتظار فالمعنى أنَّ العذاب أتاهم لا على غفلة بل أنذروا من قبل ثلاثة أيام وانتظروه ولم يؤخذوا على غفلة أخذ العاجز المحتال " ([٤]) .

([١]) التحرير والتنوير ١٤/٢٧ .

([٢]) جمع نطع وهو بساط من الجلد كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل والجمع أنطاع ونُطُوع وأنْطُع . المعجم الوسيط ٩٣٠/٢ مادة " نطع " .

([٣]) روح المعانى ١٦/٢٧ ، التفسير الكبير ٢١/١٨ ، تفسير روح البيان ١٦٩/٩ .

([٤]) حاشية الشيخ زادة ٣٩٧/٤ .

وصف حالهم عند نزول الصَّاعقة عليهم :

قال تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ ﴾ هذه الجملة تفريع وعطف على قوله : ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ ، و " ما " نافية لاستطاعة القيام ، والتعبير بالفعل الماضي هنا " استطاعوا " لتحقُّق وقوع هذا الفعل منهم ولو استطاعوا لفعلوا ، وأوثر التعبير بالاستطاعة دون القيام بمعنى : فما قاموا مثلاً لنفي القوَّة والحول منهم عند نزول هذه الصَّاعقة ، وفي الاستطاعة محاولة لكنَّ اليأس تملكَّهم والهول ركبهم فمكثوا في أماكنهم فعل العاجز الذي لا يدفع عن نفسه ، و " من " لتأكيد النَّفي و " قيام " مجرور لفظاً منصوب محلاً إذ التقدير : فما استطاعوا قياماً ولو استطاعوا لفعلوا فلَّما لم يستطيعوا مكثوا في أماكنهم .

قال الإمام الفخر : قوله تعالى ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ ﴾ يحتمل وجهين : - أحدهما - أنه لبيان عجزهم عن الهرب والفرار على سبيل المبالغة ، فإن مَنْ لا يقدر على قيام كيف يمشي فضلاً عن أن يهرب ، وعلى هذا فيه لطائف لفظية - أحدها - قوله تعالى - فما استطاعوا - فإن الاستطاعة دون القدرة ، لأنَّ في الاستطاعة دلالة الطَّلب - السين والتاء - وهو ينبئ عن عدم القدرة والاستقلال ، فَمَنْ استطاع شيئاً كان دون مَنْ يقدر عليه ، وقوله : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا ﴾ أبلغ من قول القائل ما قدروا على قيام . - ثانيها - قوله تعالى : ﴿ مِن قِيَامٍ ﴾ بزيادة مِنْ ، وقد عرفت ما فيه من التأكيد - ثالثها - قوله : ﴿ قِيَامٍ ﴾ بدل قوله هرب لما بيَّنا أنَّ العاجز عن القيام أولى أن يعجز عن الهرب - الوجه الثاني - : هو أنَّ المراد بـ ﴿ مِن قِيَامٍ ﴾ القيام بالأمر ، أي ما استطاعوا من قيام به (١) " .

---

(١) التفسير الكبير ٢٢٥/٢٨ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٧/٤ .

ومفهوم قوله : ﴿ مِن قِيَامٍ ﴾ دالٌّ على أنَّهم قد لصقوا بمكانهم من الأرض لا يقدرون على الحركة والقيام فضلاً عن الهرب فالقيام ضدُّ القعود، وهم ما استطاعوا أن يدفعوا ذلك حين رؤيتهم بوارده ، فالقيام هنا إمَّا أن يكون على حقيقته لوقوع ذلك منهم لهول ما أصابهم وما حلَّ بهم ، وإمَّا أن يكون كناية عن عدم القدرة على الحركة والهرب .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ نفى آخر معطوف على سابقه . فمع عدم قدرتهم على القيام والهرب أو الحركة والدِّفاع عن أنفسهم ، لم يستطع أحدٌ نصرتهم ، أو لم يقم أحدٌ لنصرهم فينتصروا ، أو ما نصرهم أحدٌ فانتصروا ، أو ما كانوا ممتنعين من هذا العذاب بغيرهم ولا بأنفسهم ، أو ما كانت عندهم قوة ومنعة يمتنعون بها من أمر الله تعالى ، وقيل : ما كانوا طالبين ناصراً يمنعهم من عذاب الله تعالى .

<u>انتقال إلى آخر قصَّة فى السُّورة " قصَّة قوم نوح " :</u>

<u>قال تعالى</u> : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ عطف على قصص الأمم السابقة ، قرأ الجمهور بنصب " قوم " بتقدير اذكر ، أو بفعل مقدَّر يدلُّ عليه ما ذكر من القصص التى قبله ، والمعنى : وأهلكنا قوم نوح ، وهو على هذا من باب عطف القصَّة على القصَّة والخبر على الخبر وليس من عطف المفردات ، وقرأ الأخوان الكوفيان " حمزة والكسائى " وأبو عمرو البصرىُّ ويعقوبُ الحضرمىُّ ، وخلفُ الأسدىُّ البغدادى " وقومِ " بالجرِّ عطفاً على قوله تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ والتقدير : وفى قوم نوح آية وعبرة للذين يخافون العذاب الأليم .

وقوله : ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ جارٌ ومجرور متعلِّقان بمحذوف حال أى من قبل ذلك ، و " قبل " ظرفٌ مبنىٌّ على الضمِّ لانقطاعه عن الإضافة لفظاً لا

معنى ، والمعنى : أنَّ قوم نوح أهلكوا قبل أولئك الأمم التي مرَّ الحديث عنهم فهم أول الأمم المكذِّبين رسولهم نوحاً – عليه السلام – فأهلكهم الله تعالى جزاء كفرهم وتكذيبهم واستكبارهم .

وقوله : ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ احتراسُ وتكميل (١) ، حيث جاء هذا تنبيهاً على وجه مخالفة عادة القرآن في ترتيب أحوال الأمم على حسب ترتيبهم في الوجود ، وكان قوله : ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ إيماءً إلى هذا ، لأنه قد تأخَّر الكلام على قوم نوح لما عرض من تجاذب المناسبات فيما أورد من آيات العذاب للأمم المذكورة سابقاً (٢) " .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ جملة تعليلية لهلاك هؤلاء القوم بالطُّوفان ، وهلاكهم إنما هو بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الرحمن بارتكابهم الكفر والعصيان ، وتأكيد الجملة بـ " إنَّ " لبيان علَّة الهلاك ، والتعبير بالفعل الماضي " كانوا " للدلالة على وقوع الكفر والفسوق منهم ، وأنَّ هلاكهم كان جزاء هذا الفسوق والكفر من باب الاستحقاق أي استحقُّوه لفسقهم وعصيانهم ، وإعادة لفظ " قوماً " دون أن يقال : " كانوا فاسقين " للتسجيل عليهم بهذه الجريمة ، وهي الخروج عن حدِّ الاستقامة وتكذيبهم نبيهم نوحاً – عليه السلام – ، أو أعيد زيادة في التحقير والإهانة وإحضارهم بصورتهم للسامع .

وقوله : ﴿ فَاسِقِينَ ﴾ نعت للقوم ، والفسق في الأصل استعارة للخروج عن حدِّ الطَّاعة مستعار من فسقت الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرتها وبرزت للوجود ، وهو استعارة تبعية في المشتَّقات " اسم الفاعل " والجامع الخروج

---

(١) الاحتراس في لغة القوم : هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه ، أو المحافظة على المعنى من كل ما يفسده ويغيره والتكميل كذلك .

(٢) التحرير والتنوير ١٥/٢٧ .

ومجاوزة الحدّ في كلّ ، وفائدة هذه الاستعارة بيان حال هؤلاء القوم الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله نوح - عليه السلام - ، ولهذا استحقّوا هذا الجزاء ، وهو الهلاك بالغرق نتيجة مباشرة لتكذيبهم ثم جرت الكلمة مجرى الحقيقة فشاع استعمالها ، فقد بيَّن الله تعالى أنهم كذّبوه في دعواه النُّبوة وتبليغ التكاليف من الله وأصرُّوا على ذلك التكذيب ، ثم إن الله تعالى أنجاه في الفلك وأنجى مَنْ كان معه من المؤمنين ، وأغرق الكفّار المكذّبين ، وبين العلّة في ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنُّبوة والمعاد ، فترتّب على ذلك خروجهم عن هذه الأخلاق وساء حالهم فكانت النتيجة المترتبة على هذا كله الهلاك والإغراق على أبلغ وجه في الإعجاز ، ومن هنا كانت نجاة نوح - عليه السلام - ومَنْ معه من المؤمنين آية الآيات فإذا جاءت قصَّته مؤخَّرة ظلّ الخوفُ ماثلاً في نفوس الفاسقين ، وظلّ الأمل في النَّجاة والنصر ماثلاً في قلوب المؤمنين .

المبحث الخامس

" بيان دلائل القدرة الإليهية "

أولى الدلائل على وحدانية الله تعالى وقدرته :

قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ .

النظم البلاغي : بعد أن انتهى سبحانه وتعالى من ذكر أخبار الأمم الطّاغية المكذّبة وهلاكهم ، شرع عزّ وجلّ في بيان دلائل قدرته ووحدانيته فقال : ﴿ وَالسَّمَاءَ ... ﴾ إلخ والآية معطوفة على ما سبق إخباراً منه تعالى بخلق السماء ووصف هيئتها فلمّا كان هلاك الأمم السابقة آية وعبرة كان بناء السماء من أكبر الآيات وأعظم البراهين الدالّة على قدرته سبحانه .

و ﴿ وَالسَّمَاءَ ﴾ منصوبة على الاشتغال بالفعل ﴿ بَنَيْنَاهَا ﴾ إذ التقدير : بنينا السماء بنيناها فحذف المسند الأول لدلالة الثاني عليه إيجازاً واختصاراً ، ولعدم وجود داعٍ لذكره ، " وقرأ أبو السمال ومجاهد وابن مقسّم برفع السماء على الابتداء ، وقراءة الجمهور أفصح نحوياً بالنّصب لعطف الجملة الفعلية على الفعلية " (١) ، وجملة " بنيناها " لا محلّ لها من الإعراب لأنها مفسّرة لقوله : " والسّماء " ، والمعنى : وشيدّنا السماء ، وأحكمنا خلقها بقوّة وقدرة ، و " وتقديم – السّماء – على عاملها – بنيناها – للاهتمام به ، ثم بسلوك طريقة الاشتغال زاده تقوية ليتعلّق المفعول بفعله مرتين مرّة بنفسه ، ومرّة بضميره ، فإن الاشتغال في قوّة تكرر الجملة (٢) " .

وتخصيص " السّماء" بالذّكر لأنه لاشئ أعظم منها ممّا يشاهده الناس ، وقوله : " بأيد " يجوز أن يتعلّق بمحذوف على أنه حال ، وفيه وجهان : أحدهما أنه حال من فاعل " بنيناها " أي : متلبّسين بقوّة ، والثاني : أنه حال

---

(١) البحر المحيط ١٤٢/٨ ، حاشية الصاوي ١٢١/٤ ، إعراب القرآن وبيانه ٣٢٠/٩ .

(٢) التحرير والتنوير ١٦/٢٧ .

من مفعوله أى : متلبِّسة بقوَّة ، ويجوز أن تكون البـــاء ســـببية أى بســـبب قدرتنا ، ويجوز أن تكون معدِّية " المجاوزة " على باب المجاز العقلى لعلاقة السببية بجعل الأيدى كالآلة المبنى بها كقولك : بنيت بيتك بالآجر فاليد سبب فى البناء (١) " .

والقوَّة هنا بمعنى القدرة فإنَّ القوَّة عبارة عن شدَّة البنيـــة وصـــلابتها المضادَّة للضَّعف والله تعالى منزَّه عن ذلك ، والقدرة هى الصِّفة التـــى بهـــا يتمكَّن الحىُّ من الفعل وتركه بالإرادة ، والأيد والآد بمعنى واحد فى الصَّلابة والقوَّة .

قال الإمام الفخر : " قوله : – بأيد – بالجمع لأنه لمَّا قال : – بنيناهـــا – بالجمع قابل الجمع بالجمع ، فإن قيل : فَلِمَ لَمْ يقـــل : بنيناهـــا بأيـــدينا – وقال : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ (٢) ؟

نقول لفائدة جليلة ، وهى أنَّ السَّماء لا يخطر ببال أحد أنهـــا مخلوقـــة لغير الله ، والأنعام ليست كذلك ، فقال هناك – ممَّا عملت أيدنيا – تصريحاً بأن الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة وكذلك قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْـــتُ بِيَدَيَّ ﴾ (٣) ، وفى السَّماء – بأيدٍ – من غير إضافة للاستغناء عنهـــا (٤) " ، ثم يقول مؤكداً كلامه ردَّاً على هذا : " وفيه لطيفة أخرى وهى أنَّ هناك لمَّا أثبت الإضافة بعد حذف الضَّمير العائد إلى المفعول ، فلم يقل : خلقته بيدىَّ ، ولا قال عملته أيدينا ، وقال ههنا – بنيناها – لأنَّ هناك لم يخطر ببال أحد أن

---

(١) الدر المصون ١٩٢/٦ ، تفسير روح البيان ١٧/٩ ، حاشية الجمل ٢٩٧/٧ .

(٢) يس /٧١ .

(٣) ص /٧٥ .

(٤) التفسير الكبير ٢٧٧/٢٨ ، ٢٢٨ .

الإنسان غير مخلوق وأن الحيوان غير معمول فلم يقل خلقته ولا عملته ، وأمَّا السَّماء فبعض الجهَّال يزعم أنها غير مجعولة فقال – بنيناها – يعود الضَّمير تصريحاً بأنها مخلوقة (١) " .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ يجوز أن تكون الجملة حالاً من فاعل "بنيناها" ويجوز أن تكون حالاً من مفعوله ، ومفعول " موسعون " محذوف أى موسعون بناءها ، ويجوز ألاَّ يقدَّر لها مفعول ، لأن معناه لقادرون من قولك : ما فى وسعى كذا ، أى ما فى طاقتى وقوَّتى (٢) " .

والموسع : اسم فاعل من أوسع ، إذا كان ذا وُسْع أى قدرة ، وتصاريفه هذا يأتى من السَّعة ، والمراد بها امتداد مساحة المكان ضدُّ الضيِّق ، واستعير معناها للوفرة فى أشياء كالأفراد وغيرها ، وجاء قوله : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ تذييلاً لقوله : ﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ وتأكيداً له والواو اعتراضية ، وتأكيد الخبر بإنَّ واللاَّم واسمية الجملة لتنزيل المخاطبين منزلة مَنْ ينكر سعة قدرة الله تعالى إذ أحالوا إعادة المخلوقات بعد بلاها ، وقيل : قوله : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ حالٌ مؤكَّدة أو تذييل جاء إثباتاً لسعة قدرته كل شئ فضلاً عن السَّماء ، أو لموسعون السَّماء أى جاعلوها واسعة أو ما بينها وبين الأرض أو الرزق على خلقنا لقوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ ﴾ وفيه إشارة إلى أنَّ وسعة البيت والرِّزق من تجلِّيات الاسم الواسع ، وعلى هذا يكون السياق للامتنان على العباد ولا لبيان القدرة ، والأرجح أن الآية

---

(١) السابق ٢٨٨/٢٨ .

(٢) الدرُّ المصون ١٩٢/٦ .

جاءت لبيان سعة قدرته وعظم سلطانه ، وقيل إن قوله " لموسعون" تتميمٌ (١) لما قبله من بناء السَّماء بالقوَّة والقدرة ، وذكر المسند إليه " إنَّا " لتعظيم شأن القدرة الإلهية ورفعة أمرها وعلوّ قدر الخالق سبحانه وتعالى أو تعريفه بضمير التكلُّم لأنَّ المقام يستدعيه ويطلبه وهو مقام بيان سعة قدرته وعظم سلطانه ، ومعلوم أنَّ البناء يحتاج إلى قدرة وقوة ونفاذ أمر وحسن تدبير والتعبير باسم الفاعل " موسعون " دلالة على ثبوت تلك الصِّفة واستمرارها وعدم انقطاعها .

قال الخازن : " أي أوسعنا السَّماء بحيث ثارت الأرض وما يحيط بها من السَّماء والفضاء بالنِّسبة إلى سعة السَّماء كالحلقة الملقلة في الفلاة (٢) " .

وفي الآية دقيقة نودُّ أن نشير إليها هي : أن حديث القرآن تكرر عن بناء السَّماء في غير موضع لأن البناء باقٍ إلى قيام الساعة لم يسقط منه شئ ولم يُقدَم منه جزء ، والسَّماء كالبناء المبنيِّ الثابت .

ثاني الأدلة على وحدانية الله وقدرته :

قال تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ ، هذه الآية معطوفة على سابقتها مشاركة لها في الحكم الإعرابي والمقصود بالمعنويّ ، وقد ابتدأ بخلق السَّماء لأن السَّماء أعظم مخلوق يشاهده الناس ، وعطف عليه خلق الأرض عطف الشئ على مخالفه لاقتران المتخالفين في الجامع الخياليّ ، وعطف عليها خلق أجناس الحيوان لأنها قريبة للأنظار لا يُكلَّفُ النُّظر فيها

---

(١) التتميم : هو أن يؤتى في كلام لا يوهم المقصود بفضله لنكتة بيانية ، والنكتة هنا بيان عظيم قدرته وقوَّته .

(٢) تفسير الخازن ٢٤٦/٦ ، التفسير الكبير ٢٢٨/٢٨ .

والتدبُّر فى أحوالها ما يرهق الأذهان " (١) ، و " الأرض " منصوبة على الاشتغال بالفعل " فَرَشْنَاهَا " ، والتقدير : فرشنا الأرض فرشناها فحذف المسند الأول لدلالة الثانى عليه إيجازاً واختصاراً ولعدم وجود داع لذكره ، وتقديم " الأرض " على عاملها " فَرَشْنَاهَا " للاهتمام به ، بسلوك طريقة الاشتغال زادة تقوية ليتعلّق المفعول بفعله مرتين – كما ذكرنا سابقاً – مرة بنفسه ، ومرَّة بضميره ، فإن الاشتغال فى قوة تكرار الجملة .

وقوله : " فَرَشْنَاهَا " أى مهَّدناها وبسطناها ، والفرش فى الآية استعارة تبعية ، فقد شُبِّه تكوين الله الأرض على حالة البسط بفرش البساط ونحوه ، ثم استُق منه " فَرَشْنَاهَا " ، والجامع التَّمهيد والتَّهيئة فى كلٍّ ، أو أن الفرش هنا كناية عن البسط والتَّسوية ، وفى استخدام الفرش دلالة على قدرة الله وحكمته حيث جعل الأرض مبسوطة لمَّا أراد أن يجعل على سطحها أنواع الإنسان والحيوان يمشى عليها ويتوسَّدها ويضطجع عليها ، ولو لم تكن كذلك لكانت محدودبة تؤلم الماشى بَلْهَ المتوسِّد والمضطجع ، وعبَّر عن خلق الأرض وبسطها بالفرش دلالة على التبدُّل والتَّغيُّر إذ هى كالفرش الذى يبسط ويطوى وينقل فكم منها ما صار بحراً وعاداً أرضاً من وقت حدوثها وهى مبسوطة مدحوة ، أما البناء فهو بالمرفوع " السَّماء " أولى ، وأيضاً فيه دليل على أنَّ دحوا الأرض بعد خلق السَّماء ، لأن بناء البيت يكون فى العادة قبل الفرش ، واستخدام الضَّمير " نا " للدلالة على عظمة الخالق جلَّ جلاله ولإلقاء المهابة فى النفوس واستحضار عظمته سبحانه وتعالى .

قال الإمام الفخر : وفيه إشارة إلى أنه تعالى إذا عذَّب قدر على أن يُعذِّب بما به البقاء والوجود وهو التُّراب والماء والهواء والنَّار ، فحكايات

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٢٧ .

لوط تدلّ على أنّ التُّراب الذى منه الوجود والبقاء إذا أراد الله جعله سبب الفناء ، والماء كذلك فى قوم فرعون ، والهواء فى عاد ، والنَّار فى ثمود ، ولعل ترتيب الحكايات الأربع للتَّرتيب الذى فى العناصر الأربعة " (١) .

ومراده – رحمه الله – من هذا أن الله تعالى لمَّا ذكر الأمم الأربع : قوم لوط ، فرعون وقومه ، عاد قوم هود ، ثمود قوم صالح ، أشار إلى أنَّ عذابهم إنما هو من أسباب وجودهم ، وهو التُّراب والماء والهواء والنَّار ، وهذه هى عناصر الوجود ومكوِّناته ، فعلى التَّرتيب أهلَك قوم لوط بالحجارة وهى من طين ، وأهلك قوم فرعون بالماء ، وأهلك عاداً بالرِّيح العقيم وهو هواء ، وأهلك ثموداً بالنَّار وهى الصَّاعقة .

ولم يقل هنا : " فرشناها بأيدٍ " استغناءً عن إعادته لدلالة ما سبق عليه.

وقوله : ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ تفريع على ما قبله لأنه لمَّا كان فى فرش الأرض إرادة جعلها مهاداً لمن عليها من الإنسان وغيره ، أتبع هذا الفرش بتفريع ثناء الله على نفسه فى إجادة تمهيد الأرض للتذكير بعظمته وتمام نعمته ، والمراد : فنعم الماهدون نحن ففى قوله : ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ دليلٌ على أنَّ دحو الأرض كان بعد خلق السَّماء ، لأنه كما هو معلوم أنَّ بناء البيت يكون عادة قبل الفرش – كما ذكرنا آنفاً – .

وفى قوله : ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ حذف المخصوص بالمدح أى نحن ، أو هم نحن فحذف المبتدأ أو الخبر من غير أن يقوم شئٌ مقامها ، وحذف المخصوص لفهم المعنى ولظهوره . وحذف إيجازاً واختصاراً ، والإيجاز بلاغة والتطويل عيب .

---

(١) التفسير الكبير ٢٢٩/٢٨ ، التحرير والتنوير ١٦/٢٧ .

وتعريف ﴿ الْمَاهِدُونَ ﴾ بأل الجنسية لاستغراق هذه الماهيَّة بمن أحسن الصنع وأبدع الخلق ، ونظَّم الكون الفسيح ، وصيغة الجمع في قوله : ﴿الْمَاهِدُونَ﴾ للتعظيم ، وروعي في وصف خلق الأرض ما يبدو للناس من سطحها لأنه الذي يهمُّ الناس في الاستدلال على قدرة الله وفي الامتنان عليهم بما فيه لطفهم ، والرِّفق بهم دون تعرُّض إلى تكريرها إذ لا يبلغون إدراكه ، كما روعي في ذكر السَّماء ما يبدو من قُبَّة أجوائها دون بحث عن ترامي أطرافها ، وتعدُّد عوالمها لمثل ذلك ، ومن هنا أتبع الاعتراض بالتذييل بقوله : ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ المراد منه تلقين الناس الثناء على الله فيما صنع لهم فيها من مِنَّة ليشكروه بذلك الثناء كما في قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) ، وبين قوله : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ الْمَاهِدُونَ ﴾ السَّجع المرصَّع وهو ما كان فيه ألفاظ إحدى الفقرتين كلِّها أو أكثرها مثل ما يقابلها من الفقرة الأخرى وزناً وتقفية (٢) " فالأولى مختومة بالواو والنُّون والثانية كذلك ، وهذا السَّجع رصين غير متكلَّف إذ جاء عفوياً لا تصنُّع فيه ، فكان بليغاً في موطنه .

<u>ثالث الدلائل على وحدانيته تعالى وقدرته :</u>

قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، قوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ معطوف على ما سبق من بناء السَّماء وفرش الأرض من عطف الخبر على الخبر ، والجمل على مثيلاتها بالواو لمشاركتها في حكم واحد إعراباً ومقصداً .

والمعنى : " إنه لمَّا استدلَّ على وجوده وكمال قدرته ببناء السَّماء

---

(١) الفاتحة /٢ ، التحرير والتنوير ١٧/٢٧ .

(٢) جواهر البلاغة /٣٣٠ ، دراسات منهجية في علم البديع /١٠٣ د. الشحات

وفرش الأرض استدلَّ عليها بما بينهما فقال : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى من كلِّ جنس خلقنا نوعين كالسَّماء والأرض والليل والنَّهار والبِّر والبحر والموت والحياة والذكر والأنثى والحرارة والبرودة والرَّطوبة واليبوسة إلى غير ذلك من أنواع الجواهر والأعراض ، وكلُّ نوعين منها زوجٌ لا يستغنى أحدهما عن الآخر ولا تتمُّ المصلحة إلاَّ بالمجموع (١) " .

فقوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تابع لبناء السَّماء وفرش الأرض لبيان الصِّفة التى تمَّ عليها خلق الموجودات التى ذكرناها آنفاً لما فى ذلك من الدِّلالة على تفرُّد الله تعالى بالخلق المستلزم لتفرُّده سبحانه بالإلوهية المطلقة، وتقديم الجارِّ والمجرور " من كلٍّ " لبيان عموم الخلق من جميع الأجناس وشمول قدرته تعالى ، وما تفيده كلمة " كلٍّ " من العموم والشمول ، والتَّقديم يفيد تخصيص الخلق بأنه من كلِّ شئ ، ومجئ " شئ " نكرة لعموم هذا الشئ سواء كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً ، والشئ هو الجنس الشَّامل للصنف أو النُّوع من المخلوقات .

وقوله : ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أى أوجدنا صنفين متقابلين ذكراً وأنثى ، وهذا إشعارٌ بتعداد الأمثلة إلى ما نشاهده وعليه فلا يردُّ كونُ كلٍّ من العرش والكرسى ، واللَّوح والقلم لم يخلق من كلٍّ منها إلاَّ واحدٌ ، وهذا أدلُّ على العظمة والقدرة .

قال البروسوي : وفى قوله ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ تنبيه على أنَّ الأشياء كلَّها مركَّبة من جوهر وعَرَض ومادة وصورة ، وأن لاشئ يتعرَّى منها إذ الأشياء كلُّها مركَّبة من تركيب يقتضى كونه مصنوعاً وأنه لابدَّ له من صانع تنبيهاً على أنه تعالى هو الفرد فبيَّن بقوله ﴿ وَمِن كُلِّ

---

(١) حاشية الشيخ زادة ٣٩٨/٤ .

شَيْءٍ ﴾ إلخ أن كلَّ ما فى العالم فإنه زوج من حيث إنَّ له ضدّاً ما أو مثلاً ما أو تركيباً ما بل لا ينفكُّ من وجه من تركُّب صورة ومادة وذلك زوجان فقد أظهر معنى الربوبية والوحدانية بأن خلق الأزواج لتخلص له الفردانية (١) ".

وفى الآية حذف المسند الثانى إذ التقدير : " ومن كلِّ شئ خلقنا زوجين خلقنا – استغناء بدلالة الكلام عليه وإلاَّ صار ذكره عبثاً ينزَّه عنــه القــرآن الكريم .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تعليل لقوله : ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أى رجاء أن يكون فى خلق هذين الزوجين تذكُّرٌ لكم ، أى دلالة مغفول عنها ، و "لعل" من الله تحقيق ومن خلقه رجاء ، ومراد التَّذكُّر هنا أن يقال : فعلنا ذلك كلَّــه من بناء السَّماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن يتذكَّروا فيعلمــوا أنَّ التَّعدُّد من خواصِّ الممكنات وأنه تعالى فردٌ واحدٌ بالــذَّات لا يقبــل التعــدُّد والانقسام فتعرفوه بالوحدانية وتخصُّوه بالعبادة (٢) " .

والتَّذكُّر مستعملٌ فى إعادة التَّفكُّر فى الأشياء ومراجعة أنفســهم فيمــا أحالوه ليعلموا بعد إعادة النَّظر أنَّ ما أحالوه ممكن ولكنهم لم يألفوه فاشــتبه عليهم الأمر الغريب بالمحال فأحالوه فلَّما كان تجديد التَّفكُّر المغفــول عنــه شبيهاً بتذكُّر الشئ المنسيِّ أطلق عليه قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وقد ذُيِّلت الآية برجاء التَّذكُّر – لما بيَّنــا – ومجــئ الفعــل " تَــذَكَّرُونَ " مضــارعاً لاستحضار صورة هذا الخلق العجيب أمام النفوس لتعتبر ، ولحدوث التَّذكُّر وتجدُّده المرَّة بعد الأخرى وحصول العبرة ، أو أنه أراد فعلنا ذلك كلَّه مــن البناء والفرش وخلق الأزواج كى تتذكَّروا فيه فتعرفوا أنه خالق الكلِّ ورازقه

---

(١) تفسير روح البيان ١٧٢/٩ .

(٢) تفسير البيضاوى ١٩٠/٥ ، حاشية الشيخ زادة عليه ٣٩٨/٤ .

وأنه المستحقُ للعبادة وأنه قادر على إعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه ، وأنه فردٌ لا نظير له ولا شريك معه .

وقال الطَّبرىُ : " وإنما نبَّه جلَّ ثناؤه بذلك من قوله : - خلقنا - على قدرته على خلق ما يشاء خلقه من شئ وأنه ليس كالأشياء التى شأنها فعل نوع واحد دون خلافه إذ كلُّ ما صفته فعل نوع واحد دون ما عداه كالنَّار التى شأنها التَّسخين ولا يصلح للتَّبريد وكالثَّلج الذى شأنه التبريد ولا يصلح للتَّسخين ، فلا يجوز أن يوصف بالكمال وإنما كمال المدح للقادر على فعل كلِّ ما شاء فعله من الأشياء المختلفة والمتَّفقة ، وقوله : " لعلكم تَذكَّرون " يقول : لتذكروا وتعتبروا بذلك فتعلموا أيُّها المشركون بالله أنَّ ربَّكم الذى يستوجب عليكم العبادة هو الذى يقدر على خلق الشئ وخلافه وابتداع زوجين من كلِّ شئ لا ما لا يقدر على ذلك (١) " .

إتباع المنهج الحقِّ فيه النجاة : ويشمل مبدأين أولهما : الفرار إلى الله ، والثانى : توحيده تعالى :

قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ هذا القول مفرَّع على ما علم من توحيد الله تعالى ، والفاء فصيحة لإفصاحها عن مقدَّر وهو : إذا علمتم أنَّ الله تعالى فردٌ لا نظير له ولا نديد ، وأنه الضَّارُّ النَّافع المعطى المانع فالجأوا إليه واهرعوا إلى طاعته ووحِّدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وقوله : ﴿ فِرُّوا ﴾ فعل أمر مرادٌ به الحثُّ والوعظُ مع الزَّجر والتَّخويف ، وقوله : ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ مبنىٌ على حذف مضاف ، والمراد إلى ثوابه ، فبعد أن بيَّن ضلال هؤلاء فى تكذيبهم بالبعث بياناً بالبرهان السَّاطع ، ومثَّل حالهم بحال الأمم الذين سبقوهم فى تكذيب الرُّسل ، وما جاءوا به جمعاً

---

(١) جامع البيان ٦/٢٧ .

بين الموعظة للضَّالِّين وتسلية الرسول – ﷺ – والمؤمنين ، وكانت فيما مضى من الاستدلال دلالة على أنَّ الله متفرِّدٌ بخلق العالم وفى ذلك إبطال إشراكهم مع الله آلهة أخرى أقبل على تلقين الرسول – ﷺ – ما يستخلصه لهم عقب ذلك بأن يدعوهم إلى الرُّجوع إلى الحقِّ بقوله : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ وقد غُيِّر أسلوب الموعظة إلى توجيه الخطاب للنبيِّ – عليه الصَّلاة والسلام– بأن يقول لهم هذه الموعظة لأن لتعدُّد الواعظين تأثيراً على نفوس المخاطبين بالموعظة (١) " .

وقوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ استعارة تمثيلية شُبِّه حال تورطِّهم فى الضَّلالة بحال إنسان فى مكان مخوِّف يدعوه إلى الفرار منه لمن يجيره ، فالفرار هنا مستعار للإقلاع عمَّا هم فيه من الإشراك وجحود البعث .

فاستعمل المركّب فى قوله : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ فى هذا التمثيل ، والتَّفريع الذى فى قوله : ﴿ فَفِرُّوا ﴾ مقول لقول محذوف لأنَّ المعنى : فقل يا محمد فرّوا ، والدالُّ على هذا الحذف قوله : ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإن هذا كلام لا يصدر إلاَّ من قائل ، ولا يستقيم أن يكون كلامَ مُبلِّغ ، وهذا باب من أبواب الإيجاز فى القرآن وسمة من سماته بل من أعلى خصائصه ، والإيجاز بلاغة .

فجملة : ﴿ فَفِرُّوا ﴾ من كلامه – ﷺ – ، والخطاب فى قوله : ﴿فَفِرُّوا﴾ مرادٌ به المشركون وذلك لأنَّ المؤمنين قد فرُّوا حقيقة إلى الله من الشِّرك والكفر وفى الأمر بالإيمان وملازمة الطَّاعة بلفظ الفرار تنبيه على أنَّ وراء الناس عقاباً يجب أن يفرُّوا منه بل عليهم أن يشمرُّوا عن ساعد الجدِّ للفوز بالجنَّة .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٧ ، ١٩ بتصرُّف .

قال العلاَّمة أبو السعود : وقوله تعالى ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ مقدَّر لقول خوطب به النبيُّ – ﷺ – بطريق التَّلوين ، والفاء إمَّا لترتيب الأمر على ما حكى من آثار غضبه الموجبة للفرار منها ومن أحكام رحمته المستدعية للفرار إليها . كأنه قيل لهم إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذى هذه شئونه بالإيمان والطَّاعة كى تنجوا من عقابه وتفوزوا بثوابه ، وإمَّا للعطف على جملة مقدَّر مترتبّة على قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ كأنه قيل لهم فتذكَّروا ففروا إلى الله (١) " .

وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ تعليل لجملة الأمر فى قوله : ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ على اعتبار أنَّ الغاية من الإنذار قصد السلامة من العقاب فصار الإنذار بهذا الاعتبار تعليلاً للأمر بالفرار إلى الله أى التَّوجُّه إليه وحده .

وقال الصَّاوى في حاشيته : " والفرار مراتب ففرار العامَّة من الكفر والمعاصى إلى الإيمان والطَّاعة ، وفرار الخاصَّة من كلِّ شاغل عن الله كالمال والولد إلى شهود الله والانهماك فى طاعته فلا يصرف جزءاً من أجزائه لغير الله فكما أنَّ الله فى خلق العبد واحد فليكن العبدُ فى إقباله على ربِّه واحداً بحيث لا يجعل فى قلبه غير حبِّ ربِّه ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون (٢) " .

والضَّمير فى " منه " عائد على الله تعالى ، والمعنى : فرُّوا إليه لأنى مخوِّف لكم منه ، وتقديم الجارِّ والمجرور " لكم " للتخصيص أى لكم يا أهل مكة لا لغيركم لدعوتكم وهدايتكم . وقوله : " منه " جملة الجارِّ والمجرور

---

(١) تفسير أبى السعود ١٤٣/٨ ن حاشية الجمل ٢٩٩/٧ .

(٢) حاشية الصَّاوى على الجلالين ١٢١/٤ .

صفة فى محلٍّ نصب حال من قوله : " نذير " من تقديم الصّفة على الموصوف ، وحرف " من " للابتداء المجازىّ ، ومعناه : مأمور لى بأنى أبلِّغكم وتقديم هذه الصّفة على موصوفها لكونه – عليه الصَّلاة والسلام – مأموراً من الله تعالى لا من غيره فهو لا يصدر عن هواه أو يتبع رأى غيره .

وجملة : ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ مؤكَّدة بإن والجملة الاسمية تعليلاً للأمر الوارد فى قوله : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ، ومرادها : أنذركم عقابه وأخوّفكم عذابه الذى أحلَّه بهؤلاء الأمم الذين قصّ عليكم قصصهم ، والذى هو مذيقهم العذاب الأليم فى الآخرة ، وفى الآية أسلوب قصر بتقديم ما حقُّه التأخير بقصر الصّفة على الموصوف قصراً إضافياً قصر تعيين لنفى الشكّ فى مغزاه – عليه الصَّلاة والسلام – من التخويف والزجر وتخصيصه بذلك.

وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ تكرير للتأكيد ، أو أنَّ الأول فى جملة الأمر جاء تعليلاً له " للأمر " ، والثانى جاء تعليلاً للنَّهى فإنه تعالى أمر أولاً بالفرار إليه بالإيمان والطَّاعة ، وعقَّبه بقوله : ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ تأكيداً للائتمار بالأمر المذكور ثم نهى عن الإشراك فهو مترتّبٌ عليه ، وعقَّبه أيضاً كذلك تأكيداً للانتهاء عمَّا نهى عنه ، فهما متغايران لتغاير ما ترتَّب كلٌّ منهما عليه ووقع تعليلاً له (١) .

وقال الشيخ أبو السعود : " فإن تعلق – كلمة – من – بالإنذار مع كون صلته بالباء بتضمينه معنى الفرار يقال فرَّ منه أى هرب وأفرَّه غيرُه كأنه قيل : وفرّوا من أن تجعلوا معه تعالى اعتقاداً أو قولاً إلهاً آخر ، وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى لكن لا بطريق التكرير كما

(١) حاشية الشيخ زادة ٣٩٨/٤ ، حاشية الشهاب ٩٩/٨ ، روح المعانى ١٨/٢٧ .

قيل بل بالنَّهي عن سببه وإيجاب الفرار (١) " فالوجه في تكرير قوله : ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أنَّ الثاني منعقد بغير ما انعقدت به الأول . إذ تقديره : إني لكم منه نذير في الامتناع من جعل إله آخر معه ، وتقدير الأول إني لكم منه نذير في ترك الفرار إليه بطاعته ، فهو كقولك : أنذرك أن تكفر بالله أنذرك أن تتعرَّض لسخط الله ، والنذير المخبر بما يحذِّر منه وهو يقتضي المبالغة والمنذر صفة جارية على الفعل ، والمبين الذي يأتي ببيان الحقِّ من الباطل ، ومعلوم أنَّ الرسالة لها أركانٌ ثلاثة المرْسِلُ والرَّسولُ والمرْسَلُ إليه ، وهنا ذكر الكل مقولة " لكم " إشارة إلى المرْسَل إليهم ، و " منه " إشارة إلى المرْسِل ، و " نذير " بيانٌ للرسول ، وقُدِّم المرْسَلُ إليه في الذِّكر ، لأنَّ المرْسَل إليه أدخل في أمر الرسالة لأنَّ عنده يتمُّ الأمر (٢) " .

بعد أن ذكر تعالى أنَّ هؤلاء المشركين في قول مختلف مضطرب لا يلتئم بعضه مع بعض فبينما هم يقولون : إنَّ خالق السموات والأرض هو الله إذا بهم يعبدون الأصنام والأوثان ، وتارة يقولون : إنَّ محمداً ساحر ، وتارة يقولون هو كاهن إلى غير ذلك ، قفَّى على ذلك بأن ذكر أنَّ قومه ليسوا بدعاً في الأمم ، فكما كذَّبت قريشُ نبيَّها فعلت الأمم التي كذَّبت فأحلَّ الله بهم نعمته كقوم نوح وعاد وثمود ، فقال تعالى مسلِّياً رسوله - ﷺ - على احتمال الأذى والإعراض عن جدل هؤلاء الذين قد أبطرتهم النِّعمة ، وغرَّهم الإمهال ، فلا تجدي فيهم عظة ولا تنفعهم الذِّكرى فقال : " كذلك " إلخ .

---

(١) تفسير أبي السعود ١٤٣/٨ ، محاسن التأويل ٣٤٨/١٥ ، تفسير روح البيان ١٧٤/٩.
(٢) مجمع البيان للطبرسي ٢١/٢٧ ، ٢٢ ، التفسير الكبير ٢٢٩/٢٨ .

تسلية الرسول – ﷺ – :

قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ جاءت هذه الآية تسلية لرسول الله – ﷺ – على احتمال الأذى والإعراض عن جدل المشركين ، وقوله : " كذلك " فصل خطاب دالٌّ على انتهاء حديث ، وشروع فى غيره ، أو رجوع إلى حديث قبله أتى عليه حديث آخر ، و " كذلك " هنا فيه وجهان : أظهرهما : أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر مثل ذلك ، والإشارة بذلك إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحراً ومجنوناً ، ثم فسر ما أجمل بقوله : ﴿ مَا أَتَى ﴾ . الثانى : أنَّ الكاف فى محلٍّ نصب نعتاً لمصدر محذوف ، ولا يصحُّ أن ينتصب بما بعده لأجل ما النَّافية ، وأمَّا المعنى فلا يمتنع ، قال الزمخشريُّ : ولا يصحُّ أن تكون الكاف منصوبة بـ " أتى " لأنَّ ما النَّافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، ولو قيل لم يأت لكان صحيحاً على معنى : مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول الله قالوا (1) " فاسم الإشارة فى قوله : " كذلك " عبارة عن تكذيب قوم محمد – ﷺ – له ، ومن هنا شبِّه تكذيب الأمم السابقة لرسلهم بتكذيب قوم محمد له .

وقوله : ﴿ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ تفصيل بعد إجمال فلمَّا أجمل فى قوله : ﴿ كذلك ﴾ أى أجمل فى التقرير والتوكيد فيه على ما مرَّ فهى جملة تفسيرية أى إتياناً مثل إتيانهم . فحصَّل فى قوله : ﴿ مَا أَتَى الَّذِينَ ﴾ وجملة : ﴿ مَا أَتَى ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً من قوله : ﴿ كذلك ﴾ ، ومن هنا فصلت عنها ، أو هى مستأنفة ردَّاً إلى الإنحاء واللَّوم على المشركين فى أول السُّورة فى قولهم المختلف بأنواع التكذيب فى التوحيد والبعث وما يتفرَّع على ذلك ،

---

(1) الكشاف ٢٠/٤ ، تفسير البيضاوى ١٩٠/٥ ، الدرُّ المصون ١٩٣/٦ ، حاشية الجمل ٢٩٩/٧ .

ومعنى الآية : إنَّ حال هؤلاء كحال الذين سبقوهم ممَّن كانوا مشـــركين أن يصفوا الرَّسول – ﷺ – بأنه ساحر ، أو مجنون فكذلك سيجيب هؤلاء عـــن قولك : " ففروُّا إلى الله – ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر " بمثل جواب من قبلهم فلا مطمع فى ارعوائهم عن عنادهم (١) " .

والمراد بـــ ﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ الأمم المذكورة فى الآيات السابقة من قوم لوط وموسى وقوم عاد وقوم ثمود وقوم نوح ومَنْ ينهج نهجهم ويســـتَنُّ سنتّهم ، والضَّمير فى قوله :﴿ قَبْلِهِم ﴾ عائد إلى مشركى العرب الحاضرين ، أى ما أتى الذين من قبل قريش . والتعبير عن هؤلاء الأمم بالاسم الموصول ﴿ الَّذِينَ ﴾ للتنبيه على خطأهم فى ادعائهم ورميهم الرُّسل بهـــذه الأوصـــاف التى لا تليق بهم ، أو للإيماء والإشارة إلى معرفة الخبر فى إتيان الرسل إلى أقوامهم ورمى هؤلاء الأقوام رسلهم بالسَّفه والسِّحر والجنون مـــا لا يتَّفـــقُ وكرامة هؤلاء الرسل ونزاهة ساحتهم ورفعة أقدارهم . و " مِن " فى قوله : ﴿ مِّن رَّسُولٍ ﴾ زائدة للتَّنصيص على إرادة العموم ، بمعنى أن كلَّ رســـول وصفه فريق من قومه بالسِّحر ، ووصفه آخر بالجنون ، كما وصفوا نوحاً – عليه السلام – بكونه مجنوناً لعدم معرفة هؤلاء القوم بالسِّحر قـــال تعـــالى حكاية عنهم فى شأن نوح : ﴿ إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِـــهِ حَتَّـــى حِينٍ ﴾ (٢) ، وقد يجمعون الوصفين كما هنا ، وكما وصف فرعون موسى – عليه السلام – فى سورة الشعراء (٣) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٧ ، ٢١ .
(٢) المؤمنون /٢٥ .
(٣) الشعار /٢٧ ، ٣٤ .

ومجئ " رسول " نكرة للعموم والتكثير ، مع كثرة المكذِّبين ، ولشمول الرسالة لكلِّ الأمم وشمول التكذيب لجميع الرسل فما جاء رسولٌ قومه إلا عودي وحورب وكُذِب .

قال الشيخ الطَّاهر ابن عاشور : " وهذا العموم يفيد أنه لم يخل قوم من الأقوام المذكورة إلاَّ قالوا لرسولهم أحد القولين ، وما حكى ذلك عن بعضهم فى ىآيات أخرى بلفظه أو بمرادفه كقول قوم هود : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ ﴾ (¹) ، وأول الرسل هو نوح ، فلا يردُّ أنَّ آدم لم يكذِّبه أهله ، وأنَّ أنبياء بنى إسرائيل مثل يوشع ، وأشعيا لم يكذِّبهم قومهم ، لأن الله قال ﴿ مِّن رَّسُولٍ ﴾ والرسول أخصُّ من النبىِّ " (²) .

وقد دفع الألوسي – رحمه الله – الاستشكال فى قوله : ﴿ مِّن رَّسُولٍ ﴾ بقوله : " وعن الاستشكال بآدم – عليه السلام – بأنَّ المراد – ما أتى الذين من قبلهم من الأمم الذين كانوا موجودين على نحو وجود هؤلاء رسول إلاَّ قالوا – إلخ ، وآدم – عليه السلام – لم يأت أمة كذلك إذ لم يكن حين أرسل إلاَّ زوجته حوَّاء ، ولعله أولى ممَّا قيل : إنَّ المراد من رسول من بنى آدم فلا يدخل هو – عليه السلام – فى ذلك " (³) .

ثم يقول أيضاً : " وإسناد القول إلى ضمير الجمع على إرادة الكثير بل الأكثر ، وذكر المكذَّب فقط لأنه الأوفق بغرض التَّسلية ، وقيل : الحكم باعتبار الغالب لا أن كلَّ أمة من الأمم أتاها رسول فكذبته ليردَّ آدمُ والمقررون حيث لم يكذَّبوا " (⁴) .

(¹) هود /٥٤ .

(²) التحرير والتنوير ٢١/٢٧ .

(³) روح المعانى ١٩/٢٧ ، التفسير الكبير ٢٣٠/٢٨ ، ٢٣١ .

(⁴)روح المعانى ١٩/٢٧.

والتعبير بالفعل الماضى " أتى " دلالة على تحقُّق مجئ هؤلاء الرُّسل أقوامهم مجيئاً فيه خيرهم ونفعهم وردّ هؤلاء الأقوام عليهم ودحضهم هذا الخير والنَّفع ووصفهم الرسل بالسحر والجنون .

وقوله : ﴿ إلا قَالُوا سَاحِرٌ ﴾ استثناء من أحوال محذوفة تقديرها : ما أتى الذين من قبلهم من رسول فى حال من أحوال أقوالهم إلاَّ فى حالة قولهم ساحر أو مجنون ، والتعبير بالفعل " قَالُوا " الماضى للدلالة على وقوع هذا القول منهم جاء نتيجة لنصح الرسل أقوامهم فكافئهم هؤلاء بهذا الردّ الدَّالّ على قلَّة عقل أصحابه وسفههم .

وحذف السند إليه " هو " أى هو ساحر لوقوعه بعد القول إذ لا فائدة من ذكره فلا يصير عبثاً ، وإسناد القول إلى ضمير الذين من قبل مشركى العرب الحاضرين ، وهذا الإسناد باعتبار أنه قول أكثرهم فإنَّ الأمور التى تنسب إلى الأقوام والقبائل تجرى على اعتبار الغالب – كما نوَّهنا سابقاً – ، والقصر فى قوله ﴿ إلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ قصرٌ إضافىٌ ادعائىٌ من قصر الموصوف على الصِّفة لأنَّ للأمم أقوالاً غير السِّحر والجنون ، ولهم أحوال أخر ، وإنما قُصِروا على هذا بالنسبة لهذه الأمم للاهتمام بذكر هذه الحالة العجيبة من البهتان لرميهم أعقل الناس وأقومهم وهم الرُّسلُ الكرام بالجنون والسِّحر ، وطريق القصر هنا النَّفى والاستثناء ، وهو قصر إفراد ، واستخدام النَّفى والاستثناء لأنَّ هؤلاء يجهلون منزلة هؤلاء الرُّسل وكرامتهم وعظم شأنهم وينكرون فضلهم وقدرهم استكباراً وعناداً .

و " أو " فى قوله : ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ للتفصيل أى قال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : مجنون ، وقال بعضٌ آخر : ساحر ومجنون فجمع القائلون فى الضّمير ودلَّت – أو – على التفصيل (١) .

دأب المكذِّبين الاستكبار وهو وصاة بينهم :

قال تعالى : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ هذه الجملة جاءت إنكاراً وتعجيباً من حالهم لأنَّ قوله : ﴿ إلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ الآية لإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء فضلاً عن التفوّه بها ، ومن هنا فصلت هذه الجملة عن قوله : ﴿ كذلك ﴾ إلخ لاختلافهما خبراً وإنشاءً ، والاستفهام هنا كما يقول البلاغيون : للتعجيب من تواطئهم على هذا القول فلهذا شابه بعضهم بعضاً ، حتى صار ذلك وصية بينهم ورثوها كابراً عن كابر ، وهذا الاستفهام خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى كنائىٍّ عن لازمه وهو التَّعجيب لأنَّ شأن الأمر العجيب أن يُسأَلَ عنه ، فهو كأنهم قد أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة واجتمعوا عليها فهى وصاة الأوائل للأواخر قد أصبحت ميراثاً يورَّث أو وديعة تستردُّ بين الأقوام عناداً واستكباراً وصلفاً وجهلاً . " فالاستفهام إنكار تعجبُى ، والمعنى ما وقع منهم تواصٍ بذلك لأنهم لم يتلاقوا فى زمان واحد " (٢) إذ مبنى الكلام على المشابهة حتى نزّل ذلك منزلة الوصية ، والتعبير بلفظ " الوصية " دلالة على بقاء العناد والاستكبار فى الأقوام يتوارثونه كابراً عن كابر إرث القوم للقوم والجماعة للجماعة كأنها صارت مكتوباً يُتنَاقَلُ بينهم والضمير فى الفعل "تواصوا" عائد على الاسم الموصول " الذين " ومن الضَّمير المضاف إليه من

(١) البحر المحيط ١٤٢/٨ ، روح المعانى ١٩/٢٧ .

(٢) حاشية الصَّاوى على الجلالين ١٢٢/٤ .

" قبلهم " والمعنى : أوصى بعضهم بعضاً حتى بلغت الوصية إلى القوم الحاضرين والضَّمير فى " به " راجعٌ إلى القول المدلول عليه فى " قالوا " أى أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعاً متفقين عليه ؟ "(١).

وقوله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ إضراب عن أن التَّواصى جامعهم لتباعد أيَّامهم إلى أنَّ الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم فى الطُّغيان الحامل عليه، أى إضراب عمَّا أفاده الاستفهام فى قوله : ﴿ أَتَوَاصَوْا ﴾ من حيث تشابههم أو من حيث تواصيهم به مع بيان سبب التَّواطؤ على هذا القول " السِّحر والجنون " فليس هذا تواصياً بل هو تماثل وتشابه فى منشأ ذلك القول ، أى سبب تماثل المقالة تماثل التَّفكير والدَّواعى للمقالة فالعلَّة التى جمعتهم على هذا التَّواصى علَّة واحدة هى الطُّغيان .

وقوله : ﴿ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر مبيِّنة لحال هؤلاء موضِّحة سبب هذا التَّواصى معلِّلة له ، وتعريف المسند إليه بضمير الغائب " هم " لتقدُّم ذكر ما يدلُّ عليه فى قوله : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ وللتسجيل عليهم بهذه الصِّفة الذميمة التى اتَّسموا بها فى كونهم أهلاً لها وهم جديرون بها فصارت علامة دالَّة على تكذيبهم واستكبارهم ، وقد عاد هذا الضَّمير " هم " على ما عاد إليه الضَّمير فى الفعل " تواصوا " فى قوله : ﴿ مِن قَبْلِهِم ﴾ وزيادة "قوم" وكان من الممكن أن يستعاض عنها للإيذان بأنَّ الطُّغيان راسخ فى نفوسهم حتى صار من مقوِّمات حياتهم ومنهج قوميَّتهم ومنزع زعامتهم .

<u>تسليته – ﷺ – ، وما عليه إلاَّ الذِّكرى :</u>

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى مقولتهم ومقولة غيرهم عن الرسل وعنه هو نفسه – ﷺ – من حيث كونهم سحرة أو مجانين ، وكان ذلك وُصَاةً فيهم

---

(١) الكشاف ٢٠/٤ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٨/٤ .

وفى عقبهم ، ووسمهم بأنهم طُغاة . التفت إليه – عليه السَّلام – بفعل الأمر قائلاً له : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ تفريعاً على ما سبق للإشعار بأنهم بعداء عن أن تقنعهم الآيات والنُّذر ، ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عن الإلحاح فى جدالهم ، فقد كان – ﷺ – شديد الحرص على إيمانهم – كما هو معلوم وكان – عليه السلام – يصاب بالهمِّ من شدَّة عنادهم وكفرهم فما كان منه تعالى إلاَّ أن يعاود له التَّسلية الفينة بعد الفنية والحين بعد الحين .

والفاء فى قوله : ﴿ فَتَوَلَّ ﴾ فصيحة أفصحت عن مقدَّر ، والمراد : إن كان هذا شأنهم وقد بلوته وخبرته بنفسك فأعرض عنهم ، وفعل الأمر " تولَّ" خرج عن معناه الحقيقىِّ إلى الإرشاد والامتنان والتسلية ، أمَّا الإرشاد فإنَّ الله تعالى يرشده إلى ما يجب أن يقابل به سفه هؤلاء ومدى طغيانهم بالإعراض، وأمَّا الامتنان فإنَّ كثيراً من الرُّسل قبلك قد كُذِّبوا وأوذوا فصبروا فكان النَّصر حليفهم وأهلكَ أقوامهم ، وأمَّا التَّسلية فإنَّ الله تعالى عرض له قصص الأمم السابقة وما حدث لها فأمره بالإعراض وعدم الأسف على تخلُّف هؤلاء عن الإسلام – مبيَّناً له أنه – عليه السلام – لم يألُ جهداً فى الدَّعوة ، وهم مع ذلك ما زادوا إلاَّ عتوَّاً واستكباراً ، وطغياناً وإعراضاً .

وقوله : ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ تعليل الأمر فى قوله : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فقد فرَّع سبحانه وتعالى على أمره بالتَّولىِّ عنهم إخباره بأنه لا لوم عليه فى إعراضهم عنه ، ومجئ الكلام بأسلوب الجملة الإسمية المنفية دلالة على ثبات مضمون الجملة فى النَّفى بأنه لا لوم عليه بدل أن يقال لا نلومك بالجملة الفعلية ، والمعنى : لا لوم عليك فى إعراضك بعدم ما بلَّغت

الرّسالة وبذلت مجهودك فى البلاغ والدّعوة ولا تدع التّذكير والموعظة بأيام الله " ([١]).

ومجئ ضمير المخاطب " أنت " مسنداً إليه حيث قال سبحانه : ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ دون أن يقال : ملام عليك ، أو نحوه للاهتمام بالتنويه بشأن المخاطب وتعظيمه ، والباء فى قوله : " بملوم " واردة لتأكيد الخبر المنفىّ أى توكيد نفى أن يكون – ﷺ – ملوماً على عدم إيمانهم أو عدم هدايتهم إلى الإيمان .

ذكر المفسّرون – رحمهم الله – أنه لمّا نزل قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ الآية حزن رسول الله – ﷺ – والمؤمنون ورأوا أنّ الوحى قد انقطع وأنّ العذاب قد حضر فأنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فسرّوا بذلك " ([٢]) .

منهج الرسول الوعظ والذكرى :

قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿وَذَكِّرْ﴾ معطوف على الأمر فى قوله : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ من عطف الجمل الإنشائية على بعضها فالجملتان مرادٌ بهما الأمر – كما هو معلوم – إذ الأولى يؤمر فيها – ﷺ – بالإعراض عن المشركين وعدم الأسف على إيمانهم لبلوغه الطّاقة فى الدّعوى لهم والحثّ على الإيمان ، وهذه حثٌّ وتحريضٌ على التذكير فربّما صادف التذكير قلوباً مؤمنة تهتدى به ، وعطفُ قوله : ﴿وَذَكِّرْ﴾ على قوله : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ احتراسٌ كى لا يتوهّم أحد أنّ

([١]) الكشاف ٢٠/٤ .

([٢]) جامع البيان ٧/٢٧ ، المحرر الوجيز ١٨٢/٥ ، مجمع البيان ٢٢/٢٧ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٨/٤ ، تفسير الخازن ٢٤٧/٦ ، حاشية الجمل ٣٠٠/٧ ، حاشية الصاوى ١٢٢/٤.

الإعراض إبطال للتذكير بل التذكير باقٍ فإنَّ النبىَّ – ﷺ – ذكرَّ الناس بعد أمثال هذه الآيات فآمن بعضُ مَنْ لم يكن آمن من قبل ، وليكون الاستمرار على التذكير زيادة فى إقامة الحجَّة على المعرضين ، ولئلا يزداد طغياناً فيقولوا : ها نحن أولاء قد أفحمناه فكفَّ عمَّا يقوله ، والأمر فى " ذكِّر " مرادٌ به الدوام على التذكير وتجددُّه وعدم الكلل أو الملل .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعليل لقوله : ﴿ ذَكِّرْ ﴾ والمعنى : لا تترك التذكير فربَّما انتفع به مَنْ علم الله إيمانه ، ويؤخذ من الآية آنَّ البلاء لا ينزل بقوم وفيهم المتذكِّرون " (١) .

ومعنى الآية : عِظْ بالقرآن كفَّار مكَّة فإنَّ الذكرى تنفع من علم الله أنه يؤمن منهم ، وقيل : معناه عِظْ بالقرآن مَنْ آمن من قومك فإنَّ الذِّكرى تنفعهم " (٢) .

واقتصر فى تعليل الأمر بالتذكير على علَّة واحدة وهى انتفاع المؤمنين بالتذكير لأن فائدة ذلك محققَّة ، ولإظهار العناية بالمؤمنين فى المقام الذى أظهرت فيه قلَّة الاكتراث بالكافرين ، ولذلك فوصف المؤمنين يراد به المتَّصفون بالإيمان فى الحال كما هو شأن اسم الفاعل ، وأمَّا مَنْ سيؤمن فعلِّته مطوية (٣) " .

وتوكيد جملة " فإنَّ الذكرى " لبيان الردِّ على مَنْ يشكُّ فى فائدة الذكرى ومدى نفعها للمعتبرين بها ، ولذا كانت الذكرى نافعة مَنْ يزدادون بها بصيرة وعبرة ، والتعريف فى " الذكرى " بأل الجنسية لاستغراق جميع جوانبها من

(١) حاشية الصاوى ١٢٢/٤ .
(٢) تفسير الخازن ٢٤٧/٦ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٨/٤ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٤/٢٧ .

حيث النَّفع بها وعمومها وشمولها للمعتبرين بها ، ومجيء الفعل " تنفع " مضارعاً للدلالة على تجدُّد النَّفع وحدوثه دوماً ، ولاستحضار صورته وحالته المفيدة فى النفس ، وتعريف " المؤمن " بأل العهدية ، والمراد بها المؤمنون المعهودون بالإيمان الكامل المتَّصفون به ، وهم كاملو الإيمان البالغون فيه مبلغاً عظيماً ، والنَّفع الحاصل من الذكرى هو رسوخ العلم بإعادة التذكير لما سمعوه واستفادة علم جديد فيما لم يسمعوه أو غفلوا عنه ، ولظهور رجحَّة المؤمنين على الكافرين يوماً فيوماً ويتكرَّر عجز المشركين عن المعارضة ووفرة الكلام المعجز ، والمراد من الآية : دُمْ على العظة والنَّصح ، فإنَّ الذكرى تنفع مَنْ فى قلوبهم استعداد للهداية والرَّشاد .

وظيفة العباد فى الدنيا وضمان الرِّزق على الله :

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ . بعد أن بيَّن سبحانه وتعالى حال المكذِّبين ذكر هنا سوء صنيعهم حيث تركوا عبادته التى خلقهم لأجلها فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ﴾ إلخ ، وهذه الجملة مؤكِّدة للأمر بالتذكير فى الآية السابقة ، وفيها تعليل له ، فإن خلقهم لما ذكر سبحانه يدعوه إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكير والاتِّعاظ (١) " ، والأظهر أنَّ قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ﴾ إلخ معطوف على قوله ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ من قبيل عطف الغرض على الغرض لوجود مناسبة بين الغرضين ، وذلك أنه تعالى بعد أن شبَّه حال مشركى العرب بحال مَنْ سبقهم من الأمم التى أصرَّت على الكفر والتكذيب أتبع ذلك بذكر شنيع حالهم من الانحراف عمَّا خلقوا من أجله ولأجله ، وكان هذا غريزة فيهم بدليل أنه كان وصيَّة بينهم يوصى بها السَّابق اللاَّحق فى قوله : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ .

---

(١) تفسير المراغى ٢٩٩/٩ .

فقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ ﴾ إلخ خبر مستعمل فى التعريض بالمشركين الذين انحرفوا عن الفطرة التى خلقوا عليها فخالفوا سنتَّها اتباعاً لتضليل المضلّين (١) " .

والمراد : وما خلقت الثقلين الإنس والجنَّ إلا لعبادتى وتوحيدى لا لطلب الدنيا ، والانهماك بها ، و " الجنّ " خلق من خلق الله تعالى سمُّو كذلك لاستتارهم عن الإنس وسائر المخلوقات الأخرى .

قال الألوسي : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ ﴾ استئناف مؤكِّد للأمر مقرِّرٌ لمضمون تعليله فإنَّ خلقهم لما ذكر سبحانه وتعالى ممَّا يدعوه - ﷺ - إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكُّر والاتِّعاظ ، ولعل تقديم الجنّ فى الذِّكر لتقدُّم خلقهم على خلق الإنس فى الوجود ، والظَّاهر أنَّ المراد مَنْ يقابلون بهم وبالملائكة - عليهم السلام - ولم يذكر هؤلاء ، قيل لأنَّ الأمر فيهم مسلَّم ، أو لأنَّ الآية سبقت لبيان صنيع المكذِّبين حيث تركوا عبادة الله تعالى وقد خلقوا لها ، وهذا التَّرك ممَّا لا يكون فيهم الملائكة بل هم عباد مكرمون لا يستكبرون عن عبادته عزَّ وجلَّ (٢) " .

وقيل : إنَّ ذكر " الجنّ " هنا لتنبيه المشركين بأنَّ الجنَّ غير خارجين عن العبودية لله تعالى ، وتقديمهم للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجنَّ ليعلموا أنَّ الجنَّ عباد لله تعالى .

وأمَّا كلمة الإنس فهى اسم جمع واحده إنسيُّ بياء النَّسب إلى هذا الاسم الجمعيّ ، وفى ذكر الجنّ هنا إدماجٌ لأنَّ المقصود من هذا الإخبار فى الآية هم الإنس . وتعريف كلٌ من " الجنّ والإنس " باللام الجنسية لاستغراق جنس

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٧ .

(٢) روح المعانى ٢٠/٢٧ .

كلٍّ منهما ، ولإفادة العموم والشمول المراد من تعريفهما ، أو للعهد والمراد المعهودون بالإيمان منهم لوجود الكافر منهما ، وقوله : ﴿ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ استثناء مفرَّغ من علل محذوفة عامة على طريقة الاستثناء المفرَّغ ، وبين كلٍّ من لفظى " الجنَّ " و " الإنس " طباق التضَّاد إذ ذاك من وادٍ وهذا من وادٍ ، وذلك لتلوين الخطاب وعرضه أبلغ عرض ، إذ بضدِّها تتميَّز الأشياء كما يقال ، والتكليف بالعبادة وأمر الرسالة شامل لهما .

معنى الَّلام فى قوله : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ :

اختلفت كلمة القوم فى أن اللام فى قوله : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أهى للتعليل أم أنها للغاية والعاقبة ؟ فيرى البعض : أنَّها للعلَّة أى لام التعليل ، والمعنى : ما خلقتهم لعلَّة إلاَّ لعلَّة عبادتهم إيَّاى ، والتقدير : لإرادتى أن يعبدون ، ويدلُّ على هذا التقدير قوله فى جملة البيان : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ ، وهذا التقدير يلاحظ فى كلِّ لامٍ ترد فى القرآن تعليلاً لفعل الله تعالى ، أى ما أرضى لوجودهم إلاَّ أن يعترفوا لى بالتَّفرُّد بالإلهية (١) " .

وفى الآية على هذا استشكال : وهو أنَّ الحصر المذكور وهو جواب عن سؤال مقدَّر حاصله أنَّ الله تعالى حصر الجنَّ والإنس فى العبادة فمقتضاه أنه لا يخرج أحدٌ عنها مع أنه شوهد كثيرٌ من الخلق كفر وترك العبادة فما معنى اللام فى الآية ؟ وعلى هذا فإنَّ اللاَّم فى قوله : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ لام الغاية والعاقبة ، ونقول لدفع هذا الاستشكال : أجيب عن هذا الاستشكال ودفعه بأن اللام فى هذا الفعل للغاية والعاقبة لا للعلَّة الباعثة لأن الله لا يبعثه شئٌ على شئ وإلاَّ لكان مستكملاً بذلك الغرض وهو كامل فى نفسه يستحيل

---

(١) التفسير الكبير ٢٣٣/٢٨ ، تفسير الخازن وبهامشة البغوى ٢٤٧/٦ ، التحرير والتنوير ٢٥/٢٧ .

أن يكون مستكملاً بغيره أو أن تدخل على غايته المترتبة على الفعل من الحكم والمصالح تشبيهاً لها بالغرض الحامل للفاعل على الفعل من حيث كونها منفعة مترتبة على الفعل ، ومن حيث إنَّ ذلك الفعل لو صدر من غيره تعالى لكانت تلك الغاية غرضاً مطلوباً للفاعل ، وتقدير الجواب إن العبادة ليست غرضاً مطلوباً من الخلق ولا غاية مترتِّبة على خلق كثير من الجنّ والإنس إلا أنها شُبِّهت بالغاية المترتبة من حيث إنَّ الجنَّ والإنس خلقوا على صورة متوجِّهة إلى العبادة أى صالحة وقابلة لها فإنهما من حيث تتأتّى منهما العبادة وأنهما هديا إليها يخلق أسبابها ودواعيها من الأدلة العقلية والنّقلية فيهما صارا بذلك كأنهما خلقا للعبادة وأنها مترتِّبة على خلقهما فلذلك أطلق عليها اسم الغاية ودخلت عليها لام الغاية مبالغة فى خلقهما على تلك الصُّورة، ولمَّا وُجِّه الكلام بإخراج اللام عن ظاهر عنها بجعلها للمبالغة فى خلقهما بحيث تتأتّى منهما العبادة بسهولة أشار إلى وجه العدول عن الظّاهر ، ولمَّا صُرِفَ الكلامُ عن ظاهره بأن جعلت العبادة شبيهة بالغاية – استعارة تبعية فى الحروف – ارتفع التعارض وانتفى الاستشكال (١) . وقيل : إنَّ قوله : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ من قبيل المجاز المرسل لعلاقة السببيَّة بمعنى " إن لام الغاية وإن دخلت على العبادة ظاهراً إلا أنها فى الحقيقة داخلة على ما وهو سبب للعبادة وهو الأمر بها فيكون من قبيل ذكر المسبَّب وإرادة السبب ، وذلك على تفسير العبادة بالمعرفة ، ولعلَّ السِّر فى ذلك التنبيه على أنَّ

---

(١) تفسير البيضاوى ١٩١/٥ ، حاشية الشيخ زادة عليه ٣٩٨/٤ ، ٣٩٩ ، حاشية الشهاب ١٠٠/٨ ، تفسير أبى السعود ١٤٤/٨ ، ١٤٥ ، تفسير روح البيان ١٧٧/٩ ، حاشية الجمل ٣٠٠/٧ ، ٣٠١ ، حاشية الصاوى ١٢٢/٤ .

المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة (١) ".

والقصر فى قوله : ﴿ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ لقصر علّة خلق الله الإنس والجنّ على إرادته أن يعبدوه ، والذى يقتضيه العقل وتطمئن إليه النفس أنه قصرٌ إضافىّ من قصر الموصوف على الصّفة وهو من قبيل قصر القلب نظراً لاعتبار مفعول " يَعْبُدُونِ " ، والمراد : خلقتهم للعبادة دون ضدّها إلاّ ليعبدونى وحدى ، أى لا ليشكروا غيرى فى العبادة فهو ردّ للإشراك ، وليس قصراً حقيقياً لأنّا وإن كنّا لم نطلع على مقادير حِكَمِ الله تعالى من خلق الخلائق ، ولكنّا نعلم أنّ الحكمة من خلقهم ليست مجرّد أن يعبدوه فَحِكَمُه تعالى فى أفعاله كثيرة لا يحاط بها .

وقوله : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعالياً عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم ، وهى جواب لتقرير معنى قوله : ﴿ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ومن هنا فصلت عنها ، ومجئ كلمة " رزق " نكرة لإفادته العموم مع التعظيم والتكثير أو التعظيم والتقليل على معنى ، ولو كان المراد والمطلوب من الرّزق قليلاً .

وقد لفت الإمام الفخر – رحمه الله – إلى وجهين سديدين فى الآية : أمّا أحدهما : فإن المراد بذلك : دفع توهُّم الحاجة من خلقهم للعبادة ، فقال : ما خلقتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لا لى ، وذلك أن منفعة العبد فى حقّ السّيد أن يكتسب له إمّا بتحصيل المال له أو بحفظ المال عليه فنفى سبحانه وتعالى

---

(١) تفسير أبى السعود ١٤٥/٨ ، روح المعانى ٢١/٢٧ ، حاشية الشيخ زادة ٣٩٩/٤ .

ذلك أى لستَ كهؤلاء ، وأمَّا الآخر : أن يكون لتقرير كونهم مخلوقين للعبادة وذلك لأنَّ الفعل فى العرف لا بدَّ له من منفعة (١) " .

ثم نراه يُقسِّم العبيد قسمين : أولهما : قسم يتخذون لإظهار العظمة بالمثول بين أيادى سادتهم وتعظيمهم إيَّاهم كعبيد الملوك ، وثانيهما : قسم يتخذون للانتفاع بهم فى تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها ، فكأنه قال سبحانه : إنى خلقتهم ولابُدَّ فيهم من منفعة فليتفكَّروا فى أنفسهم هل هم من قبيل أن يُطْلَبَ منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك فـ " مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ " ؟ وهل هم ممَّن يُطْلَبُ منهم إصلاح قوتٌ كالطباخ ومن يُقرِّب الطَّعام ؟ وليسوا كذلك فـ " مَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ " فإذا هم عبيد من القسم الأول فينبغى ألاَّ يتركوا التعظيم (٢) " .

فقوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ كناية عن عدم الاحتياج إليهم ، وذلك لأنَّ أشدَّ حاجات الناس فى عرفهم ومعتقدهم حاجتهم إلى الطعام واللباس والسَّكن ، وإنما يحصّل ذلك بالرِّزق الذى هو المال ، ومن هنا بدأ به الكلام ثم عطف عليه الإطعام ، أى إعطاء الطعام إذ هو أشدُّ ما يحتاج إليه الناس ، وفى هذا تعريض بأهل الشِّرك إذ يُهْدون إلى الأصنام الأموالَ والطَّعام تتلقَّاه منهم سدنة الأصنام فكانوا يحضرون لهذه الأصنام المآكل فربَّما أكلتها الكلاب ثم بالت على الأصنام ثم لا يصدُّهم ذلك عن عبادتها ، وتقديم طلب الرِّزق على طلب الإطعام من الارتقاء فقال : لا أطلب منكم رزقاً ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم الطَّعام ، وقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ نفى آخر معطوف على سابقه من عطف الخبر على الخبر ،

---

(١) التفسير الكبير ٢٣٥/٢٨ ، روح المعانى ٢٢/٢٧ .

(٢) السابقان نفسهما .

والمراد : لا أريد منهم أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم ولا أن يطعموا أحداً من خلقى ، وأسند سبحانه وتعالى الإطعام إلى نفسه لأنَّ الخلق كلَّهم عيال الله تعالى ، ومَنْ أطعم عيال أحد فكأنَّما أطعمه هو ، وخصَّ الإطعام بالذِّكر لكونه يمثِّل معظم المنافع المطلوبة من المماليك بعد اشتغالهم بالأرزاق ، ونفى الأهمِّ يستلزم نفى ما دونه بطريق الأولى كأنه قيل : ما أريد منهم من عين ولا عمل ، والعين هى الرِّزق ، والعمل هو الإطعام ، ونفى العين من لوازمه نفى العمل ، وهو كناية عن عدم حاجته سبحانه وتعالى إليهما .

<u>السرُّ فى تكرار الإرادتين :</u>

كررت الإرادة فى الآية مرتين : لأن الإرادة الأولى متعلِّقة باكتساب الرِّزق والثانية متعلِّقة بإصلاحه من حيث إطعام الطَّعام وتقريبه .

<u>قال الإمام الفخر</u> : " فإن قلت : ما الفائدة فى تكرار الإرادتين ، ومَنْ لا يريد من أحد رزقاً لا يريد أن يطعمه ؟ نقول : هو لما ذكرناه من قبل ، وهو أنَّ السَّيد قد يطلب من العبد الكسب له ، وهو طلب الرِّزق منه ، وقد يكون للسيد مالٌ وافر يستغنى عن الكسب لكنه يطلب منه قضاء حوائجه بِمَالَهُ من المال وإحضار الطَّعام بين يديه مِنْ مالِه ، فالسَّيدُ قال لا أريد ذلك ولا هذا (١) " .

وقد نعى الله تعالى على ابن آدم صلة العبد بأخيه فى حال جوعه وعطشه ومرضه ، فقد جاء فى حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – الطَّويل . قال : قال رسول الله – ﷺ – : " إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول : يوم القيامة – يا ابن آدم : مرضت فلم تَعُدْنىِ . قال : يا ربِّ ، كيف أعودُك ؟ وأنت ربُّ العالمين . قال : أما علمت أنَّ عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، أما

(١) التفسير الكبير ٢٣٥/٢٨ .

علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم : استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يا ربِّ . وكيف أطعمك ؟ وأنت ربُّ العالمين ، قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلانٌ فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم : استسقيتك فلم تسقنى . قال : يا ربِّ ، كيف أسقيك وأنت ربُّ العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلانٌ فلم تسقه أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى (١) " .

وقوله : ﴿ مَا أُرِيدُ ﴾ فى الآية يفيد النَّفى فى الحال ، والتخصيص بالذِّكر يوهم نفى ما عدا المذكور ، لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقاً لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، فَلِمَ لَمْ يقل : لا أريد منهم من رزق ولا أريد ؟ والجواب أن " ما " للنفى فى الحال ، و " لا " للنفى فى الاستقبال ، فكلُ واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص لكنَّ النَّفى فى الحال أولى لأنَّ المراد من الحال الدُّنيا ، والاستقبال هو فى أمر الآخرة فالدُّنيا وأمورها كُلُّها حالية فقوله : ﴿ مَا أُرِيدُ ﴾ أى فى هذه الحالة الرَّاهنة التى هى ساعة الدُّنيا ، ومن المعلوم أنَّ العبد بعد موته لا يصلح أن يُطْلَبَ منه رزق أو عمل فكان قوله : ﴿ مَا أُرِيدُ ﴾ مفيداً للنَّفى العامِّ ، ولو قال لا أريد لما أفاد ذلك (٢) " .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ تعليل لما تقدَّم من الأمرين أو الإرادتين ، فقوله : ﴿ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ تعليل لعدم طلب الرِّزق ، وقوله تعالى : ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ تعليل لعدم طلب العمل ، لأنَّ مَنْ يطلب رزقاً يكون فقيراً محتاجاً ، ومَنْ يطلب عملاً من غيره يكون عاجزاً لا قوَّة له ، فصار كأنَّه يقول : ما أريد منهم من رزق فإنى أنا الرزَّاق ولا عمل فإنى قوىّ

---

(١) صحيح مسلم ١٩٩٠/٤ ك البر والصلة والآداب باب ٤٣ ح رقم ٢٥٦٩ .

(٢) التفسير الكبير ٢٣٦/٢٨ بتصرُّف .

وتأكيد هذه الجملة بإنَّ وإسمية الجملة لردِّ معتقد مَنْ يعتقد أن الله قد يطلب منه رزقاً أو يريد منه إطعاماً لأحدٍ من خلقه إذ هو قد تكفَّل بالرِّزق وتكفَّل بالإطعام أيضاً ، ولإنكار مَنْ ينكر سعة رزقه وإطعام من يشاء الله إطعامه ، وتعريف المسند إليه بضمير الغائب لإفادة القصر والتخصيص أى هو لا غير ، ووضع الظّاهر " اسم الجلالة " فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ إخراج للكلام على خلاف مقتضى هذا الظّاهر إذ مقتضاه : إنى أنا الرزّاق فعدل عن الإضمار إلى الاسم الظّاهر لتكون هذه الجملة مستقلة بالدلالة لأنها سارت مسير الكلام الجامع والأمثال ، ففى الآية التفات من التكلُّم إلى الغائب ، وفائدته أنَّ اسم الله يفيد كونه رزّاقاً وذلك لأنَّ الإله بمعنى المعبود ، وحذفت ياء المتكلم من الأفعال " يعبدون " و " يطعمون " للتخفيف .

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ قصر بوجود ضمير الفصل، والقصر إضافىٌّ ، وهو قصر إفراد بتنزيل المشركين فى إشراكهم أصنامهم بالله منزلة مَنْ يدّعى أن الأصنام شركاء لله فى صفته التى منها الإرزاق والقوّة ، والشدَّة . والمعنى : لا رزّاق ولا ذا قوّة ، ولا متين إلا الله فَأَبْطِلَ ذلك بهذا القصر " (١) .

واستخدام صيغة المبالغة فى قوله : " الرزّاق " للمبالغة فى وصف الرِّزق ، وللردِّ على من يزعم أنَّ من البشر مَنْ يعطى عطاءً يظنُّ معه أنه يرزق غيره من ماله أو من عطاياه . فقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ من التعبيرات الثرية التى تقصر أمر الرِّزق على الله تعالى وتلقى فى النفس راحة وتجعل فى القلب طمأنينة يستريح معها العبد إلى أن يكل أمره إلى الله تعالى فهذا أهمُّ ما تترتَّب عليه حياة العبد وتقرُّ عينه به ، وهو من باب قصر

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٧ .

الصّفة على الموصوف ، أى لا رازق إلاَّ الله الذى يرزق كلُّ ما يفتقر إلى الرِّزق وفيه تلويح بأنه غنىٌّ عنه .

وقوله : ﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾ صفة ثانية أو خبرٌ ثانٍ ، والمراد به صاحب القدرة ، والتعبير بـ " ذو القوَّة " دون – القوى – لأنَّ فى " ذو " تعظيماً لما أضيفت إليه ، والموصوف بها والمقام يقتضيه ولذا جئ بعده بقوله : "الْمَتِينُ" ولم يكتف به عن الوصف بالقوَّة ، فَعُلِمَ أنَّ القوَّة هنا قوَّة خالية من النَّقائص .

و " الْمَتِينُ " الشديد وهو هنا وصف لقوله : ﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾ والمراد الشديد القوَّة ، وعُدَّ هذا الاسم من أسماء الله تعالى الحسنى ، والمعنى : إنَّه سبحانه المستغنى غنى مطلقاً فلا يحتاج إلى شئ فلا يكون خلقه الخلق لتحصيل نفع له ولكن لعمران الكون وإجراء نظام العمران باتباع شرعه الذى يجمعه معنى العبادة فى قوله : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ و ﴿ الْمَتِينُ ﴾ الشديد القوَّة لأنَّ القوَّة تمام القدرة ، والمتانة شدَّتها ، وهو بالرفع على أنه نعتٌ لـ " الرزَّاق " أو لـ " ذو " أو خبر بعد خبر ، أى إن الله هو الرزَّاق لجميع الخلائق ذو القوة المتين فى خلق الأرزاق والمرزوقين .

قال الإمام الفخر : " لمَّا كان المقصود تقرير ما تقدَّم من عدم إرادة الرِّزق وعدم الاستعانة بالغير ، ولكن فى عدم طلب الرِّزق لا يكفى كون المستغنى بحيث يرزق واحداً فإنَّ كثيراً من النَّاس يرزق ولده وغيره ويسترزق والملك يرزق الجند ويسترزق ، فلم يكن ذلك المقصود يحصل له إلاَّ بالمبالغة فى وصف الرِّزق فقال : " الرزَّاق " وأمَّا ما يغنى عن الاستعانة بالغير فدون ذلك ، وقال : " الْمَتِينُ " وذلك لأنَّ " ذُو الْقُوَّةِ " كما بيَّنا لا يدلُّ إلاَّ على أنَّ له قوَّة ما فزاد فى الوصف بياناً وهو الذى له ثبات لا يتزلزل ، والمتين هو الثابت الذى لا يتزلزل والعزيز هو الغالب ففى المتين أنه لا

يغلب ولا يقهر ولا يهزم ، وأنَّ القوى أكمل وأبلغ من ذى القوَّة والعزَّة أكمل من المتانة ، فقرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه " (١) .

وقرئ " الرَّازق " بزنة فاعل ، وقرئ بالجرِّ تخريجاً على أنه صفة لـ " القوَّة " وتذكير وصفها لكون تأنيثها غير حقيقى ، أو لكونها فى تأويل الإبداع والاقتدار ، وقيل : هو مجرور على الجوار كقول العرب : هذا جحر ضبٍّ خرب ، وما فى القراءة الأولى أبلغ إذ الزيادة فى المبنى زيادة فى المعنى ، والمراد بالقراءة على صيغة اسم الفاعل هو المتكفِّل بالرِّزق القائم على كلِّ نفس بما يقيمها من قوتها .

بيان جزاء المكذِّبين رسول الله – ﷺ – :

قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ . بعد أن بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ كفَّار قريش كذَّبوا رسول الله – ﷺ – كما كذَّب كفَّار الأمم الماضية رسلهم بيَّن جزاء تكذيبهم بقوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ إلخ ، والفاء فى قوله : " فَإِنَّ " فصيحة عن مقدَّر ، والمعنى : إذا عرفت حال أولئك الكفرة المتقدِّمين من عاد وثمود وقوم نوح وفرعون فإنَّ لهؤلاء المكذِّبين نصيباً من العذاب مثل نصيبهم .

وتقديم الجارِّ والمجرور الذى هو المسند فى الجملة للتنبيه على خبريته أو لتخصيص هؤلاء الظَّالمين بالعذاب نتيجة ظلمهم وتكذيبهم ، و " الَّذِينَ ظَلَمُوا " هم الذين أشركوا من العرب ، والظُّلم – كما هو معلوم فى قصَّة لقمان الحكيم – هو الشِّرك فى قوله : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) ، وكما فسَّرها – عليه الصَّلاة والسلام – لأصحابه رضى

---

(١) التفسير الكبير ٢٣٧/٢٨ ، ٢٣٨ بتصرُّف ، روح المعانى ٢٤/٢٧ .

(٢) لقمان /١٣ .

الله عنهم – عند قوله تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) حين قالوا له : " وأيُّنا لم يظلم نفسه ، وتسمية الشِّرك ظلماً من باب المجاز بتسمية الكلِّ باسم الجزء (٢) " .

وقوله : ﴿ ذَنُوبًا ﴾ اسم إنَّ مؤخَّر عنها ، و " الذَّنوب " بفتح الذَّال وهو الدّلو العظيمة يستقى بها السُّقاة على القليب " قليب البئر " واستعير للنَّصيب ، ولا تُسَمَّى ذنوباً إلا إذا كانت هذه الدّلو ملأى ، وذاك أنَّ السُّقاة من عادتهم أنهم يقتسمون الماء من الآبار على النَّوبة ، ومن ذلك قول علقمة ابن عبدة الفحل (٣) :

وَفِى كُلِّ حَىٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ .·. فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وفى قوله : ﴿ ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ استعارة تمثيلية تصريحية شُبِّهت هيئة تساوى حظِّ الذين ظلموا من العرب بحظوظ الذين هلكوا من الأمم السابقة بهيئة السُّقاة الذين يستقون الماء من قليب واحد " بئر " حيث يتساوون فى حظوظهم وأنصابهم من الماء، وهذا من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس ، وأطلق سبحانه وتعالى على الأمم الماضية اسم وصف أصحاب الذين ظلموا باعتبار الهيئة المشبَّه بها إذ هى هيئة جماعات الورد إلى الماء يكونون متصاحبين ، وهذا التمثيل قابل لفصل أجزائه وذلك بأن يُشَبَّه المشركون بجماعة وردت الماء ، وتُشبَّه الأمم الماضية بجماعة سبقتهم للماء،

---

(١) الأنعام /٨٢ .

(٢) خطوات التفسير البيانى /١٣ د. محمد رجب البيومى .

(٣) المفضليات /٣٩٦، وشأس هو أخو عقلمة ، وذلك فى مدح الحرث بن شمر الغسانى ، وكان قد أسر أخاه شأساً ثم أطلق سراحه ومن معه من أسرى بنى تميم ، ديوان علقمة /٤٨ لطفى الصقال ، درية الخطيب ، ط دار الكتاب العربى سوريا .

ويُشَبَّه نصيبُ كلٍّ جماعة بالدَّلو التي يستقون ويَمْتَحُون بها الماء من هذا القليب ، والتعبير عن الكفَّار أو المكذِّبين بالاسم الموصول دون ذكرهم باسمهم الصَّريح استهجاناً للتصريح به ، أو لصون اللسان عن ذكرهم لكراهة ذلك ، كما أن التعبير بذلك ليشملهم ويشمل من يفعل فعلتهم أو يستنُّ سنتَّهم وينهج نهجهم إلى يوم القيامة ، والظلم أشنع أنواع الكفر ، وتأكيد الجملة وخبرها بـ " إنَّ " لأن هؤلاء المشركين كانوا مكذِّبين بالوعيد ، وفي الآية تعريض للمشركين بالعذاب وأخذ النَّصيب والحظِّ منه ، وفيها تسلية للرسول - ﷺ - وتطمين لقلوب المؤمنين بأنَّ الظَّالم لن يفلت من عذاب الله تعالى، وأنه إذا أخذه أخذه أخذاً أليماً فهو سبحانه قادر على ذلك وإن أخَّره استدرجه.

وقوله : ﴿ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ معطوف على سابقه لترتيب النَّهي عن الاستعجال ولذا فرَّع عدم الاستعجال على التأكيد السَّابق في قوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ﴾ إلخ ، والنَّهي خرج عن معناه الحقيقيِّ إلى معنى مجازيٍّ مستعمل في التهكُّم إظهاراً لغضب الله عليه ، فهؤلاء كما حكى القرآن عنهم كثيراً كانوا يستعجلون العذاب ويطلبون نزوله على سبيل الاستهزاء والتهكُّم والإشعار بأنَّ ذلك وعدٌ مكذوب وأنه - ﷺ - كأنه يهدِّدهم به ، وهم في الواقع إنما يستعجلون الله تعالى بوعيده ، ومعلوم أنَّ وعيده لا يتأخَّر ، وإذا نظرنا إلى قوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ نراه عُدِّي إلى ضمير الجلالة ، وهم في الحقيقة إنما استعجلوا النبيَّ - ﷺ - لإظهار - أنه - عليه الصَّلاة والسَّلام - قد أخبر عن الله تعالى توبيخاً لهم وإنذاراً بالوعيد ، والتعبير بالفعل المضارع " يَسْتَعْجِلُونِ " دلالة على تجدُّد الاستعجال وحدوثه منهم دوماً ، ولاستحضار صورتهم العجيبة المثيرة لأنَّ مَنْ يتعجَّل وقوع الشئ إمَّا أن يكون معدّاً له عُدَّته ، وإمَّا أن يكون مستهزئاً لا يعبأ به وهم كانوا من الصِّنف الثاني ، ولذا

كثر استعجالهم العذاب وطلبهم وقوعه تهكُّماً ، وحذفت ياء المتكلم من الفعل " يَسْتَعْجِلُونِ " كالأفعال السابقة تخفيفاً .

وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ معطوف على ما سبق بالفاء لترتيب ثبوت الويل أى العذاب الشديد لهم ، وويل مبتدأ نكرة وسوّغ الابتداء به مع كونه نكرة لتضمنُّه معنى الدُّعاء ، والويل هو الشرُّ وسوء الحال ، والتنكير فيه للتعظيم ، أى ويل عظيم ينتظرهم .

قال العلاَّمة أبو السعود (١) : " وضع الموصول – للذين – موضع ضميرهم – أى ذكره بالاسم الظاهر – تسجيلاً عليهم بما فى حيِّز الصِّلة من الكفر إشعاراً بعلِّة الحكم ، والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أنَّ لهم عذاباً عظيماً كما أنَّ الفاء الأولى لترتيب النهى عن الاستعجال على ذلك إذ إن قوله " فَلا يَسْتَعْجِلُونِ " جواب لقولهم دائماً ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢) ففى الآية إخبار منه تعالى بحصول الويل لهؤلاء الكافرين ، وأنَّ العذاب وسوء الحال ينتظرهم يوم القيامة الذى أوعدهم الله إيَّاه فى قوله : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣) ، وقد ورد سؤالهم وقوع العذاب بمتى استعجالاً فى تسعة مواضع فى القرآن الكريم دلالة على الاستهزاء والاستكبار والصَّلَف (٤) .

ويرى الشيخ الطَّاهر ابن عاشور : أن قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ إلخ " يحتمل إنشاء الزَّجر والتَّعجيب من سوء حالهم فى يوم أوعدوه ، و " من "

---

(١) تفسير أبى السعود ١٤٥/٨ ، روح المعانى ٢٥/٢٧ ، تفسير روح البيان ١٨٣/٩ .

(٢) يونس /٤٨ وغيرها .

(٣) سبأ /٣٠ .

(٤) من الأسماء المضمنة معنى الاستفهام فى القرآن /١٥٧ وما بعدها د. أحمد ناجى .

للابتداء المجازىّ أى سوء حال بترقُّبهم عذاباً آتياً من اليوم الذى أوعدوه " (1).

وقيل : إنَّ هذا اليوم هو يومُ بدر فقد وقف – ﷺ – على القليب قائلاً يا أهل القليب إنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقَّاً فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقَّاً ؟ قيل : إنَّه أرجح لمناسبته لقوله : " ذنوباً " حيث إنه ذنوبٌ من العذاب الدنيوىِّ، وقيل : إنه يوم القيامة – كما سنرى – ، وتغيير التعبير بـ ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ دون ﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كما فى الآية السابقة لما فى صفة الكفر من الإيمان إلى عدم شكرهم النِّعمة ولا المنعم وفى لفظ الكفر عموم وشمول يعمُّ ظلم النفس وظلم الغير وظلم النِّعمة والمنعم إذ هو سترٌ لكلِّ الأخلاق والمبادئ ، وطمس لمعالمها وانحراف عن مناهجها .

و "من " فى قوله ﴿ مِن يَوْمِهِمُ ﴾ للتعليل ، أو للابتداء المجازىّ كأنَّ الويل يبدأ من هذا اليوم " يوم القيامة " ، والعائد على الموصول محذوف أى يوعدونه أو يوعدون به ، وحذف المفعول للإيجاز والاختصار أو لقصد العموم والشمول وإضافة " يوم " إلى ضمير ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ للدلالة على اختصاصه بهم ، أى هو معيَّن لجزائهم كما أضيف " يوم " إلى ضمير المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (2) .

وتعريف اليوم بالاسم الموصول " الذى " للعهد أى اليوم المعهود لعذابهم وهو زمن حلول العذاب إمَّا أن يكون يوم القيامة ، وإمَّا أن يكون حلوله فى الدُّنيا كيوم بدر أو لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو

---

(1) التحرير والتنوير ٣١/٢٧ .

(2) جزء آية /١٠٣ الأنبياء ، التحرير والتنوير ٣٢/٢٧.

بيان الهول والشدّة وفظاعة هذا اليوم الذى ينتظر هؤلاء الظالمين الكفرة مَنْ كان دأبهم الاستهزاء والعناد ، وعلى كلٍّ حال فإن مضمون جملة " مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي " مغاير لمضمون الجملة التى قبلها ولمَّا كان المضاف إليه ضمير الكفَّار المعينين وهم كفَّار العرب رُجِّح أن يكون المراد من هذا اليوم يوماً خاصَّاً بهم وإنما هو يوم بدر لأنَّ يوم القيامة لا يختصُ بهم بل هو عامٌّ لكفَّار الأمم كلِّهم بخلاف اليوم الذى ذكرناه عن أهل الجنَّة فى سورة الأنبياء لأن ضمير الخطاب فيها عائد إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى ﴾ كلهم ([1]) " . و " كلَّهم " أى كلُّ أهل الجنَّة وعدهم الله تعالى بالحسنى والتَّعبير بالفعل المضارع " يوعدون " دلالة على تجدُّد هذا الوعيد وحدوثه باستمرار فى كلِّ زمن ومع كلِّ داعية يدعو إلى الله ومع كلِّ مكذِّب جاحد لدعوته .

وفى قوله : ﴿ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ ردُّ العجز على الصدر حيث رُدَّ آخر السُّورة ، وهو قوله : ﴿ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ على أول السُّورة فى قوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ ، وفائدته الإيذان بانتهاء هذه السورة بما بدأت به ، دلالة على صدق هذا الوعد ومدى حقيَّته ، وذلك من براعة المقطع السُّورى ومن دقَّة البلاغة القرآنية ، فصادق آخرُ السورة ما ورد فى أولها ، فسبحان مَنْ له تحت كلِّ حرف من كلامه سرٌّ لا يهتدى إليه إلاَّ العالمون ، وصلى الله وسلم على أفصح العرب وأنقطهم بياناً .

([1]) آية ١٠١ الأنبياء ، التحرير والتنوير ٣٢/٢٧.

الخاتمـــــــــــة

بعد هذه الرحلة الكريمة بين ثنايا سورة الذاريات وهى من السُّور المكيَّة التى تهتمُّ بأسس العقيدة وترسيخ الإيمان فى النفوس ، وهذه السورة ميدان فسيح الأرجاء لا تثبت فيه إلا أقدام الأبطال ، وبحر زاخر عميق الأغوار لا يجيد السباحة إلاَّ الدُّرَّبُ من الرجال ، أما الغوص فى أعماقه فهو أمر بعيد المنال بل هى وحدها كون لا تنتهى عجائبه ولا تنقضى غرائبه ، وقد جمعت هذه السورة الكريمة فى آياتها الستين أصول العقيدة ومكارم الشريعة ، وقد أقامت على صدقها البراهين السَّاطعة والحجج القاطعة وحرصت على توكيدها بشتىَّ أساليب الإقناع ، وقد اشتملت السُّورة الكريمة على الأمور التالية :

أولاً : دلائل البعث من العجائب الطبيعية والعلوم النفسية .

ثانياً : جزاء المتَّقين بما يلقونه من النَّعيم يوم القيامة .

ثالثاً : أخبار الأمم السابقة التى كذَّبت رسلها .

رابعاً : تسلية الرسول – ﷺ – على ما يلقاه من أذى قومه .

خامساً : الفرار إلى الله من هذه الدُّنيا المحفوفة بالمخاطر .

سادساً : النَّهى عن الإشراك بالله تعالى بل إفراده بالوحدانية

سابعاً : إخبار الرسول – ﷺ – بأن قومه ليسوا ببدع فى التكذيب ، بل قد كُذِّب رسلٌ من قبله .

ثامناً : أمره – عليه الصَّلاة والسَّلام – بالإعراض عن المشركين ، وتذكير مَنْ تنفعه الذكرى من المؤمنين .

تاسعاً : إخباره – ﷺ – بأنَّ الله ما خلق الجنَّ والإنس إلاَّ لعبادته وتنزيهه وإنفاذ أوامره واجتناب نواهيه .

عاشراً : وعيد الكافرين بأنَّ العذاب سيحلُّ بهم يوم القيامة .

حادى عشر : بيان أنَّ المشركين سينالهم نصيبهم من العذاب مثل نصيب نظرائهم من المكذِّبين . هذا ما احتوته السُّورة الكريمة إلاَّ أنَّا نلاحظ أشياء أضفت على معالجة السورة لهذه الأفكار صوراً بليغه أفصحت عن المراد منها بأبلغ وجه نذكر بعضاً منها :

فى حديث السورة عن البعث والجزاء أكَّدت السُّورة هاتين الحقيقتين بأسلوب القسم الذى لا يأتى فى القرآن ولا فى سائر الكلام البليغ إلاَّ فى عظائم الأمور ، ومعلوم أن للقسم فى القرآن خصائصه ومميِّزاته فهو يأتى بالدَّعوى مصحوبة بالدليل مع حمل المتأمِّل على الإيمان بالمقسم عليه قبل أن يرد عليه . كما أنَّ فى القسم إيجازاً يعدُّ ضرباً فريداً من ضروب الإعجاز البيانىِّ للقرآن الكريم ، مع الاشتمال على الأسلوب الخبرىِّ ، والأسلوب الحكيم الجامع بين الترغيب والترهيب ، ما يحيى القلوب ويستنهض الهمم ، وردِّ النفوس الجامحة إلى الله .

كذلك نجد الله تعالى قد وجَّه أنظار منكرى البعث والجزاء إلى ما فى الآفاق والأنفس من آيات شاهدة بوحدانيته وكمال قدرته ، مع ذكر قصص الأمم السابقة وما حلَّ بها ، ثم الدعوة إلى التحرُّر من الجمود الفكرى والتقليد الأعمى .

أيضاً التكرار الوارد فى هذه السورة وهو من عوامل التوكيد البارزة فيها بتكرار الأدلة والمقاصد ، ومن هذا تكرار القسم وكان من آخرها القسم ببعض صفات الخالق جلَّ وعلا مصحوباً بأبلغ أدوات التوكيد الأخرى فى قوله : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ ، وتكرار البعث والجزاء صراحة بالإجمال والتفصيل للمبالغة فى التهديد والإنذار

والزجر والتخويف لإعادة النفوس الضَّالة إلى رشدها . وكذلك إبراز حقيقة التوحيد وهى من أهمِّ مقاصد هذه السُّورة مع حشد البراهين والحجج القاطعة لتثبيتها فى النفوس .

أيضاً أيَّدت هذه السُّورة الرسول – ﷺ – ودعوته بكل أساليب التأييد وإقامة البراهين على صدقه ، وأخيراً أمره – عليه السلام – بالإعراض عن المنكرين الملحدين عن طريق التذكير لأنه وظيفته الأولى . فإن كان المنكرون لا ينتفعون به ، فإن هناك مؤمنين تنشرح صدورهم له وتهتدى قلوبهم به ، كما دعت السورة إلى تطهير القلوب وتزكية النفوس من بقايا الشرك ومما تميَّزت به أيضاً مغايرة فواصلها حسب المقامات والأغراض دون تكلُّف أو تصنُّع .

وبعد : فهذا جهدٌ متواضع فى رحاب القرآن الكريم ومع سورة من سوره أدعو الله أن يكتب له التوفيق والسداد ، ولله الحمد فى الأولى والآخرة.

غرَّة ربيع الآخر سنه ١٤٢٧هـ.

الفهارس

القرآن الكريم .

١- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم د / صبَّاح دراز مطبعة الأمانة بمصر ط أولى سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٢- أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن الشيخ محمد الأمين الشنقيطى ط عالم الكتب بيروت ، ط دار المدنى المؤسسة السعودية بمصر سنة ١٣٩٦هـ .

٣- إعراب القرآن وبيانه للأستاذ محى الدين الدرويش ط دار اليمامة ، ابن كثير ، دار الإرشاد للشئون الجامعية سوريا ط خامسة سنة ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م .

٤- إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن أبو البقاء العكبرى ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م .

٥- الإنصاف على الكشاف ابن المنير الإسكندرى ط دار المعرفة بيروت .

٦- الإنصاف فى مسائل الخلاف " بين النحاة " ابن الأنبارى ط دار الاستقامة مصر سنة ١٣٤٦هـ .

٧- الإيضاح فى علوم البلاغة ط صبيح القاهرة ط ثانية ، تحقيق د خفاجى ط دار الجيل بيروت ط ثالثة سنة ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م .

٨- البحر المحيط فى تفسير القرآن أبو حيَّان ط دار إحياء التراث العربى بيروت ط ثانية سنة ١٤١١هـ - سنة ١٩٩٠م .

٩- بدائع الفوائد لابن القيمِّ ط دار الفكر بيروت .

١٠-البديع فى ضوء أساليب القرآن د٠عبد الفتاح لاشين ط دار التضامن للطباعة مصر سنة ١٩٧٩م .

١١-البرهان فى علوم القرآن للزركشى ت الأستاذ محمد أبى الفضل ط دار الفكر بيروت ط ثالثة سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

١٢-بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة الشيخ عبد المتعال الصعيدى ط صبيح مصر سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م .

١٣-البلاغة فنونها وأفنانها " علم المعانى " د فضل عباس ط دار الفرقان عمَّان ط خامسة سنة ١٩٩٨م .

١٤-البلاغة فنونها وأفنانها " علم البيان والبديع " د فضل عباس ط دار الفرقان عمَّان ط سابعة سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

١٥-البيان فى غريب إعراب القرآن ابن الأنبارى ت د طه عبد الحميد طه ، مصطفى السقاط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

١٦-تأملات فى سورة الذاريات تفسير تحليلى د محمد بكر إسماعيل توزيع مكتبة الاعتصام القاهرة ط ثانية سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

١٧-تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ت السيد صقر ط دار التراث القاهرة ط ثانية سنة ١٩٧٣م .

١٨-التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم نشر مكتبة القاهرة مصر .

١٩-التبيان فى علم البيان للطيبى ت د هادى عطية مطلر ط عالم الكتب بيروت ط أولى سنة ١٩٨٧م .

٢٠-تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ابن أبى الإصبع المصرى ت د / حفنى شرف ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة سنة ١٣٨٣هـ .

٢١-التحرير والتنوير فى تفسير القرآن الشيخ الطاهر ابن عاشور نشر الدار التونسية تونس سنة ١٩٨٤م .

٢٢-تفسير أبى السعود المسمَّى " إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " ط دار إحياء التراث العربى بيروت .

٢٣-تفسير البيضاوى المسمَّى " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " ت د / حمزة النشرتى وآخرين نشر مكتبة الأهرام القاهرة سنة ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م.

٢٤-تفسير الخازن المسمَّى لباب التأويل فى معانى التنزيل وبهامشه معالم التنزيل للبغوى ط دار الفكر بيروت سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٢٥-تفسير روح البيان الشيخ إسماعيل حقى البروسوى ط دار إحياء التراث العربى بيروت ط سابعة سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٢٦-تفسير القاسمى المسمَّى " محاسن التأويل " ت الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقى ، الشيخ هشام البخارى ط مؤسسة التاريخ العربى بيروت ط أولى سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

٢٧-تفسير القرآن العظيم لابن كثير نشر دار التراث العربى للطبع القاهرة .

٢٨-التفسير الكبير المسمَّى " مفاتيح الغيب " للفخر الرازى ت الشيخ خليل محيى الدين الميس ط دار الفكر بيروت سنة ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م .

٢٩-تفسير النَّسفى المسمَّى " مدارك التنزيل وحقائق التأويل " عناية الشيخ عبد المجيد طعمة جلبى ط دار المعرفة بيروت ط أولى سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٣٠-تفسير المراغى للأستاذ أحمد المراغى تخريج باسل عيون السود ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م .

٣١-تهذيب السعدد التفتازانى على مختصر تلخيص المفتاح ت الشيخ محمد محى الدين ط صبيح القاهرة ط رابعة سنة ١٣٧٥هـ - ١٩٩٥م .

٣٢-ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن " الرمانى - الخطّابى - الجرجانى " ت د محمد زغلول سلام ، د محمد خلف الله أحمد ط دار المعارف مصر ط رابعة سنة ١٩٩٠م .

٣٣-جامع البيان فى تفسير القرآن وبهامشه غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ط دار المعرفة بيروت ط رابعة سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٣٤-الجامع لأحكام القرآن القرطبى ت الأستاذ عبد الرزّاق المهدى ط دار الكتاب العربى بيروت ط أولى سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٣٥-جواهر البلاغة " المعانى - البيان - البديع " السيد أحمد الهاشمى ت د يوسف الصميلى ط المكتبة العصرية بيروت ط أولى سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

٣٦-الجواهر الحسان فى تفسير القرآن للثعالبى ت أبى محمد الغمارى الحسنى ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

٣٧-حاشية الجمل على الجلالين المسمَّى " الفتوحات الإلهية " لسليمان بن عمر العجيلى " الجمل " ط دار الفكر للطبع والنشر بيروت سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

٣٨-حاشية السيد الشريف على الكشاف ط دار المعرفة بيروت .

٣٩-حاشية الشهاب الخفاجى المسمَّاة " عناية القاضى وكفاية الرَّاضى على البيضاوى " ط دار صادر بيروت .

٤٠-حاشية الشيخ زادة على البيضاوى نشر المكتبة الإسلامية محمد ازدمير ديار بكر تركيا .

٤١-حاشية الصاوى على الجلالين مراجعة الشيخ محمد على الضبَّاع ط دار الجيل بيروت ط أخيرة سنة ١٢٢٨هـ .

٤٢-خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم د محمد رجب البيومى نشر مجمع البحوث الإسلامية القاهرة سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

٤٣-خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ت الأستاذ عبد السلام هارون ط بولاق سنة ١٢٩٩هـ .

٤٤-دراسات منهجية فى علم البديع د الشحات أبو ستيت ط دار خفاجى للطبع والنشر مصر ط أولى سنة ١٩٩٤م .

٤٥-الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون " السمين الحلبى " ت الشيخ على محمد معوض وآخرين ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

٤٦-دلائل الإعجاز ت الشيخ محمود شاكر نشر مطبعتى المدنى القاهرة والسعودية ط ثالثة سنة ١٩٩٢م .

٤٧-دلالات التراكيب دراسة بلاغية د محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبة القاهرة ط ثانية سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

٤٨-ديوان أبى الطيب المتنبى ش الشيخ ناصف اليازجى ط دار صادر بيروت .

٤٩-ديوان الأعشى ط دار بيروت للطبع والنشر بيروت سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .

٥٠-ديوان امرئ القيس . شرح حسن السندوبى المكتبة التجارية الكبرى بمصر ط خامسة .

٥١-ديوان جرير ت د نعمان أمين طه ط دار المعارف مصر سنة ١٩٨٦م.

٥٢-ديوان ذى الرُّمة ط عالم الكتب بيروت عناية كارليل هنرى هيس مكارتنى .

٥٣-ديوان علقمة ت لطفى الصقَّال ، درية الخطيب ط دار الكتاب العربى حلب ط أولى سنة ١٩٦٩م .

٥٤-ديوان لبيد ط دار صادر بيروت ت كوثر أسعد الديب .

٥٥-ديوان النابغة الذُّبيانى ش الشيخ الطَّاهر ابن عاشو ط الشركة التونسية تونس سنة ١٩٨٦م .

٥٦-روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى الألوسى البغدادى ط دار إحياء التراث العربى بيروت ط رابعة سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٥٧-زاد المسير فى علم التفسير ابن الجوزى ت الأستاذ أحمد شمس الدين ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

٥٨-سنن ابن ماجة بشرح السندى ت الشيخ خليل مأمون شيحا ط دار المعرفة بيروت ط أولى سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

٥٩-سنن أبى داود للإمام الحافظ سليمان الأزدى ت الشيخ محمد محى الدين نشر المكتبة العصرية بيروت .

٦٠-سنن الدرامى أبو محمد عبد الله الدرامى ط دار الكتب العلمية بيروت .

٦١-سنن النَّسائى بشرح السيوطى ومعه حاشية السندى ط دار المعرفة بيروت ط أولى سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

٦٢-شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ت الشيخ محمد محي الدين ط المكتبة العصرية بيروت سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م مراجعة د محمد أسعد النادرى .

٦٣-شرح ديوان الحماسة للمرزوقى نشر أحمد أمين عبد السلام هارون ط دار الجيل بيروت ط أولى سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

٦٤-شرح القصائد العشر " الخطيب التبريزى " ت الأستاذ عبد السلام الحوفى دار الكتب العلمية بيروت ط ثانية سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٦٥-شرح النووى على صحيح الإمام مسلم ت الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ط دار إحياء التراث العربى " عيسى البابى الحلبى " مصر ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م .

٦٦-شروح التلخيص فى علوم البلاغة – مطبعة السعادة مصر سنة ١٣٤٢هـ.

٦٧-الصّاحبى فى فقه اللغة ابن فارس ت السيد صقر ط عيسى البابى الحلبى القاهرة سنة ١٩٧٧م .

٦٨-صحيح الإمام مسلم بن الحجاج ت الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ط دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٤م .

٦٩-صفوة التفاسير الشيخ محمد على الصّابونى ط دار الرشيد سوريا .

٧٠-الصناعتين " الكتابة والشعر " لأبى هلال العسكرى ت د / مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٩٨١م .

٧١-الصور البلاغية فى سورة المعارج د أحمد سعد ناجى ط التركى مصر ط أولى سنة ١٩٩٨م .

٧٢-عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى لابن العربى المالكى ت الشيخ هشام البخارى ط دار إحياء التراث العربى بيروت ط أولى سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٧٣-فتح البارى بشرح صحيح البخارى ابن حجر العسقلانى ط دار الريّان للتراث القاهرة .

٧٤-فتح القدير الجامع بين فنىّ الرواية والدراية من علم التفسير " الشوكانى" مراجعة يوسف الغوسن ط دار المعرفة بيروت ط ثانية سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

٧٥-الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ابن القيم نشر مكتبة المتنبى القاهرة .

٧٦-فى ظلال القرآن " سيد قطب " ط دار الشروق بيروت ، القاهرة ، ط خامسة عشر سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٧٧-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل "الزمخشرى" ط دار المعرفة بيروت .

٧٨-لسان العربى لابن منظور المصرى ط دار المعارف القاهرة .

٧٩-لطائف الإشارات فى تفسير القرآن " القشيرى " ت د٠إبراهيم بسيونى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب مركز تحقيق التراث القاهرة ط ثانية سنة ١٩٨٣م .

٨٠-المجاز اللَّغوى دراسة بلاغية د عبده أحمد هليل ط مؤسسة الوفاء للطباعة القاهرة ط أولى سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٥م .

٨١-مجلة المجلة القاهرة عدد نوفمبر سنة ١٩٦٩م .

٨٢-مجمع البيان فى تفسير القرآن " الطبرسى " منشورات دار مكتبة الحياة بيروت .

٨٣-محاضرات فى علم المعانى د أحمد ناجى ، د على العطَّار نشر مكتب الكرنك دمنهور ط أولى سنة ١٩٩٤م .

٨٤-المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز " ابن عطية الأندلسى " ت عبد السلام عبد الشافى ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

٨٥-المزهر فى علوم اللغة وأنواعها " السيوطى " ت محمد أحمد جاد المولى ن الأستاذ محمد أبو الفضل ، على محمد البجاوى ط دار الفكر بيروت ، دار الجيل بيروت .

٨٦-المستدرك على الصحيحين " أبو عبد الله الحاكم " ومعه التلخيص للحافظ الذهبى ت د يوسف المرعشلى ط دار المعرفة بيروت سنة ١٣٣٥هـ .

٨٧-المطول على التلخيص " سعد الدين التفتازانى " ط أحمد كامل القاهرة سنة ١٣٣٠هـ .

٨٨-المعجم الوسيط ت مجموعة من المحققِّين الفضلاء ط المكتبة الإسلامية تركيا ، نشر مجمع اللغة العربية الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث .

٨٩-مغنى اللبيب من كتب الأعاريب ابن هشام المصرى ط عيسى البابى الحلبى القاهرة .

٩٠-مفتاح العلوم " أبو يعقوب السكاكى " ط عيسى البابى الحلبى القاهرة ط أولى سنة ١٩٣٧م .

٩١-المفردات فى غريب القرآن " الراغب الأصفهانى " ت محمد سيد كيلانى ط دار المعرفة بيروت .

٩٢-المفضليات " المفضل الضبى " ط دار المعارف القاهرة .

٩٣-مقدمة تفسير ابن النقيب فى علم البيان والمعانى والبديع وإعجاز القرآن " ابن النقيب " ت د زكريا سعيد على نشر مكتبة الخانجى القاهرة . أولى سنة ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م .

٩٤-من الأسماء المضمنة معنى الاستفهام فى القرآن دراسة بلاغية ط التركى مصر ط أولى سنة ١٩٩٧م د أحمد ناجى .

٩٥-من بلاغة القرآن د أحمد أحمد بدوى ط دار نهضة مصر ط ثالثة .

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
▫ المقدمـــة	٥
▫ مدخل إلى سورة الذاريات " التمهيد " .	١١
▫ المبحث الأول : تحليل آيات القسم وبيان جزاء المكذبين .	١٧
▫ تفسير الاستعاذة " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " .	١٩
▫ تفسير البسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " .	٢١
▫ رأى ابن القيم والزمخشرى فى الجمع بين صـــفتى " الـــرحمن الرحيم " .	٢٢
▫ فضل البسملة .	٢٤
▫ تحليل آيات القسم .	٢٥
▪ رأى الإمام الفخر فى سرِّ القسم .	٢٦
▪ سرُّ العطف بالفاء فى " فالحاملات وقراً " إلخ .	٣١
▪ رأى ابن عطيَّة فى " المقسِّمات " .	٣٤
▪ رأى ابن هشام والدكتور أبى موسى فى معنى الفاء .	٣٨
▫ العلاَّمة محمود شاكر واستعمال الفاء .	٣٩
▪ قضية البعث التى وردت جواباً للقسم .	٤٠
▫ المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه بين الشيخ الطـــاهر ابـــن عاشور والسمين الحلبى وأبى حيّان .	٤١
▫ قسم آخر على أمر آخر " والسماء ذات الحبك " .	٤٤
▪ جواب القسم المراد .	٤٦
▪ باب آخر من أبواب الاختلاف .	٤٩

الموضــــــوع	الصفحة
▪ العلاَّمة الزمخشرى والقراء فى " يؤفك " .	٥١
▪ دعاء بالهلاك على الكذَّابين .	٥٣
▪ بيان وصف الخرَّاصين الكذَّابين .	٥٤
▪ الاستكبار والعناد دَيْدَنُ المشركين .	٥٧
▪ الإمام عبد القاهر ووقوع الجملة حالاً لا تقترن بالواو .	٥٧
▪ أيَّان بين المعنى والتركيب .	٥٨
▪ الدكتور صبَّاح يجعل الاستفهام إنكاراً بغير همزة .	٥٩
▪ جواب سؤال المشركين والردُّ على صلفهم وتهكُّمهم .	٦١
▪ المبالغة فى الإهانة وإضاعة الكرامة .	٦٤
▪ الطبرى يقدِّر المحذوف فى " ذوقوا فتنتكم " .	٦٥
▪ سرُّ إضافة الفتنة إليهم .	٦٥
▪ مرجع الإشارة فى " هذا الذى كنتم به تستعجلون " .	٦٦
▪ المبحث الثانى " جزاء المتقين ، وبيان آيات الله فــى الأنفــس والآفاق " .	٦٩
▪ الإمام الفخر ومقامات المتقين .	٧٢
▪ تشويق الأسماع وجذب الانتباه .	٧٤
▪ المهر الذى دفعه المتقون لنيل الجنَّات .	٧٥
▪ أوصاف الإحسان التى اتصَّفوا بها .	٧٧
▪ الطبرى والاختلاف فى قلَّة الهجوع .	٧٨
▪ القاضى البيضاوى والمبالغات فى الآية .	٧٩
▪ انتقال إلى وصف آخر من أوصاف المحسنين .	٨١
▪ المفسِّرون والمراد بالاستغفار .	٨٣

الصفحة	الموضـــــوع
٨٤	■ مع الوصف الأخير من أوصاف المحسنين .
٨٦	■ وهم ابن عطية فى تفسير الحقّ فى الآية .
٨٧	■ بين السائل والمحروم تفسير لغوىٌّ بيانى .
٨٩	■ السرُّ فى تقديم السائل على المحروم .
٩٠	■ دلائل على قدرة الله تعالى .
٩٢	■ الشيخ الطاهر ابن عاشور وسرٌّ استعمال اسم الفاعل " الموقنين".
٩٢	■ انتقال إلى الآيات فى النفوس .
٩٣	■ العلاَّمة الزمخشرى ومعنى " وفى أنفسكم " .
٩٥	■ ضمان الرِّزق على ربِّ الأرزاق .
٩٨	■ انتقال إلى القسم إلى أن القرآن أو الوعد أو الرسول أو الـــرِّزق حق .
٩٩	■ مرجع الضمير فى قوله : " إنَّه لحقٌ " .
١٠١	■ العلاَّمة الزمخشرى يروى قصَة الأعرابى المحزون على قســم الله تعالى بنفسه .
١٠٣	■ المبحث الثالث : " حديث ضيف إبــراهيم – عليــه الســلام – والحوار الذى دار بينه وبينهم – عليهم السلام " .
١٠٥	■ معنى الاستفهام ومغزاه فى " هل أتاك " .
١٠٦	■ الدكتور صبَّاح يشير إلى أن " هل " يفيد التشويق .
١٠٨	■ الشهاب الخفاجى وتسمية الملائكة ضيفاً .
١٠٩	■ بدء الحوار بين الضَّيف ومضيفهم .
١١٠	■ رأى كلٍّ من ابن عطية وابن القيم فى نصب " سلاماً " .
١١١	■ الإمام عبد القاهر وعدم العطف فى القول .

الموضــــــوع	الصفحة
▪ كرم الضيافة .	١١٣
▪ الألوسى والفاء فى " فراغ " .	١١٤
▪ الإمام عبد القاهر وترك العطف فى " ألا تأكلون " .	١١٦
▪ خوفٌ وتوجُّس وعدم طمأنينة .	١١٦
▪ الإمام الفخر والبشارة بالغلام .	١١٨
▪ المفسِّرون وإرجاع جبريل العجل كما كان حيًا .	١١٨
▪ حال سارة عند البشارة .	١١٩
▪ بين حذف المسند إليه وذكره فى القصة .	١٢١
▪ موازنة بين آيات القصة فى سورتى هود والذاريات .	١٢٥
▪ انتقال الحوار بين إبراهيم والملائكة – عليهم السلام – .	١٢٧
▪ جواب الملائكة إبراهيم وبيان علَّة نزولهم .	١٢٩
▪ بدء الهلاك لقوم لوط – عليه السلام – .	١٣٠
▪ حجارة لا تخطئ أصاحبها .	١٣٢
▪ الإمام الفخر والحجارة المسوَّمة .	١٣٣
▪ تمييز الخبيث من الطيِّب .	١٣٣
▪ بين الوصف بالمؤمنين والمسلمين .	١٣٤
▪ بقاء هذه القرى آية دالة على هلاك الظَّالمين .	١٣٦
▪ المبحث الرابع : " هلاك الأمم المكذِّبة " .	١٣٩
▪ بين جبروت البشر وانتقام السَّماء .	١٤١
▪ الصَّلف والعناد والزَّيف .	١٤٤
▪ الجزاء المنتظر لفرعون وأمثاله .	١٤٦
▪ منهج واحد ومصير متشابه .	١٤٨

الموضـــــوع	الصفحة
▫ العلاَّمة الرُّمانى يصف الاستعارة فى " العقيم " بالأبلغية :	١٥٠
▫ النووى يبيِّن المراد بـ " الصبّا " .	١٥١
▫ الإمام النَّسفى وقصَّة عاد .	١٥٣
▫ منزع الكفر واحد وطريق الهلاك كذلك .	١٥٤
▫ الدكتور صبَّاح يجعل الأمر فى الآية للتهكُّم .	١٥٥
▪ اعتراضه على الرازى حمل الأمر على معنى النَّهى .	١٥٥
▪ هل الحين المذكور فى الآية هو الأيام الثلاثة المذكورة فى سورة " هود " ؟	١٥٦
▪ الشيخ الجمل وقراءة الكسائى " الصَّعقة " .	١٥٨
▪ الألوسى وقصَّة ثمود " قوم صالح " .	١٥٩
▪ وصف حالهم عند نزول الصَّاعقة عليهم .	١٦٠
▪ انتقال إلى آخر قصَّة فى السورة " قصة قوم نوح " .	١٦١
▪ المبحث الخامس " بيان دلائل القدرة الإلهية " .	١٦٥
▪ أولى الدلائل على وحدانية الله تعالى وقدرته .	١٦٧
▪ الإمام الفخر الرازى وإفراد الأيدى .	١٦٨
▪ ثانى الأدلة على وحدانية الله وقدرته .	١٧٠
▪ الإمام الفخر وربطه هلاك الأمم الأربعة بعناصر الوجود الأربعة .	١٧١
▪ ثالث الدلائل على وحدانيته تعالى وقدرته .	١٧٣
▪ البروسوى وخلق الزوجين .	١٧٤
▪ إتباع المنهج الحقّ فيه النَّجاة .	١٧٦
▪ مبادئ هذا المنهج الأول الفرار إلى الله .	١٧٦

الموضـــــــوع	الصفحة
■ أبو السعود والفرار إلى الله .	١٧٨
■ المبدأ الثانى من مبادئ إتّباع المنهج الحقّ .	١٧٩
■ السرُّ فى تكرير قوله : " إنى لكم منه نذير مبين " .	١٨٠
■ تسلية الرسول – ﷺ – .	١٨١
■ الاستشكال فى قوله : " من رسول " ودفعه .	١٨٣
■ دأب المكذّبين الاستكبار وهو وصاة بينهم .	١٨٥
■ تسليته – ﷺ – وما عليه إلاّ الذكرى .	١٨٦
■ منهج الرسول الوعظ والذكرى .	١٨٨
■ وظيفة العبد فى الدنيا وضمان الرّزق على الله .	١٩٠
■ معنى اللام فى قوله : " ليعبدون " .	١٩٢
■ استشكال فى حصر الجنّ والإنس فى العبادة ودفعه .	١٩٢
■ أقسام العباد من وجهة نظر الإمام الفخر .	١٩٥
■ السرُّ فى تكرار الإرادتين فى السورة .	١٩٦
■ القصر والمبالغة فى قوله :" إنّ الله هو الرزّاق ذو القوة المتين".	١٩٧
■ بيان جزاء المكذّبين برسول الله – ﷺ – .	٢٠٠
■ أبو السعود ووضع المظهر موضع المضمر فى " الذين " .	٢٠٣
■ اليوم الموعود وتحديده .	٢٠٥
■ الخاتمة .	٢٠٧
■ الفهارس .	٢٢٥

تم بحمد الله ؛؛